



في أدبيات الرحالة وكتابات المستشرقين

الندوة العلمية الثالثة

22 نوفمبر 2019 م



الندوة العلمية الثالثة



في أدبيات الرحالة وكتابات المستشرقين

22 نوفمبر 2018م



رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية بعدن: (١١٤٣) لعام ٢٠٢٠م

الطبعة الأولى: ٢٠٢٠



دار الوفاق الحديثة للنشر والتوزيع - مصر

هاتـف وواتس آب: 00201008170225

بريدً إلكتروني: daralwefaqnet@gmail.com




بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة مدير المركز

د. محمود علي السالمي

بسم الله الرحمن الرحيم

يسعدني في بداية كلمتي القصيرة أن أرحب بكم، باسمِي وباسم أعضاء مجلس مركز عدن للدراسات والبحوث التاريخية والنشر، ترحيًا حاراً، واسمحوا لي أن أخص بالذكر استأذنا القدير الدكتور محمود الميسري رئيس جامعة أبين رئيس جامعة عدن الذي شرفنا بحضوره الكريم الندوة، على الرغم من مشاغله الكثيرة. فتقبلّوا منّا، استأذنا العزيز، عاطفةَ شكرِنا الجيزيل، وامتنانِنا العميق، ودعواتنا الصادقة لكم بالسَداد، و بالنجاح.

واسمحوا لي كذلك أن أتوجَّه بالشكر لكلِّ مَن كان له نصيبٌ في الإعداد لهذه الندوة، وفي مقدّمتهم الأساتذةَ مُعدّي الأوراق البحثيّة الذِينَ لولا جهودهم لما كنا هنا اليوم، وكذلك جميعَ مَن لبُّوا دعوتَنا إلى المشاركةِ في الندوة، من أساتذة ومدراء مراكز بحثية ومن باحثين، وإعلاميين، ومَن سيشاركون في إثراء جلساتِها بمعلوماتِهم وآرائِهم واقتراحاتِهم القيِّمة.

الحضور الكرام:

لن نتحدث عن أهمية عدن ولا عن أهمية موضوع ندوة اليوم، فهذا ما نتوق لسماعه من مقدمي الأوراق البحثية. لكننا نود التأكيد على الأهمية الكبيرة التي يكتسبها علم التاريخ على الصعيد المحلي الدولي، ففي ظل ثورة المعلومات يتزايد الإدراك العام بأهمية هذا العلم لدى الأمم والشعوب التي تبذل جهوداً كبيرة لاستقصاء جذورها، والمحافظة على هويتها، وتحقيق الشعور بالانتماء والمواطنة لدى أبنائها.

وإدراكا من مركز عدن للدراسات والبحوث التاريخية والنشر لتلك الأهمية فقد حاول خلال عمره القصير الإسهام في خدمة تاريخنا الوطني بحسب إمكاناته المتواضعة، من خلال إقامة العديد من الأنشطة والندوات والمؤتمرات والإصدارات التاريخية العلمية، ومنها المجلة التاريخية المحكمة التي كنا نأمل أن نوزع عددها الأول عليكم اليوم في القاعة غير أن ظروف الشحن حالت دون وصولها بالوقت المناسب.

أكرر شكري وترحيبي بكم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

برنامج الندوة

الجلسة الافتتاحية	الوقت
كلمات الافتتاح	٨,٤٥ – ٩,٠٥
عرض فلم تعريفي بالمركز	٩,٠٥– ٩,١٥

الجلسة الأولى من (٩,١٥ : ١١,٠٠)

م	البحث	الوقت
١	عدن في سجلات صاحب الطواف حول البحر الاريتري (Periplus)م **أ. د. محمد بن هاوي باوزير.**	٩,١٥ – ٩,٣٠
٢	عدن في كتابات الرحالة والبلدانيين في العصر الإسلامي **د. نادر حسن محمد الشاوش**	٩,٣٠ –٩,٤٥
٣	عدن في كتاب المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم **د. أمل صالح سعد**	٩,٤٥– ١٠,٠٠
٤	عدن في أدبيات الرحالة العرب في العصر الإسلامي ابن بطوطة أنموذجاً **أ. د. طه حسين عوض هُديل**	١٠,٠٠– ١٠,١٥
٥	قلعة صيرة في كتابات الرحالة والبلدانيين **د. هيفاء عبد القادر مكاوي**	١٠,١٥– ١٠,٣٠
	نقاش	١٠,٣٠– ١١,٠٠
	استراحة	١١,٠٠– ١١,١٥

الجلسة الثانية من (١١,١٥ : ١,١٥)

الوقت	البحث	م
١١,١٥ – ١١,٣٠	عدن في كتابات الرحالة الألماني مالتزان **مهندس/ أحمد عبد الله فضل**	١
١١,٣٠ – ١١,٤٥	المرأة العدنية في كتابات سوزان دلاجرين **د. أسمهان عقلان العلس**	٢
١١,٤٥ – ١٢,٠٠	عدن في كتابات الرحالة البريطانية فريا ستارك **أ. د. مسعود عمشوش**	٣
١٢,١٥ – ١٢,٣٠	الرحالة والمجتمع الفسيفسائي العـــدني **أ. د. سمير عبد الرحمن هائل الشميري**	٤
١٢,٣٠ – ١٢,٤٥	عدن والمحميات الشرقية في كتابات الرحالة فان در ميولين **د. راهيلا حسين ناصر عمير**	٥
١٢,٤٥ – ١,١٥	نقاش	
	التوصيات	

عدن في أدبيات صاحب الطواف حول البحر الإرتيري

القرن الأول الميلادي (PERIPLUS)

أ.د. محمد بن هاوي باوزير
أستاذ تاريخ اليمن والجزيرة العربية القديم
كلية الآداب - جامعة عدن

ملخص البحث

باتت الصلات التجارية بين جنوب الجزيرة العربية وحوض البحر المتوسط وشبه القارة الهندية ثابتة منذ نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، وترجع إلى طريق الطيوب البري. ثم أخذت هذه الصلات تطَّرد في نموها حتى أصبح عرب الجنوب يسيطرون على الطريق البحري. ومنذ أوائل عهد البطالسة في مصر (في بداية القرن 3 ق. م) قامت علاقات بحرية شبه منتظمة بين عالم البحر المتوسط والبلاد المحاذية للبحر الأحمر والمحيط الهندي، وهي علاقات تجارية ساحلية على امتداد الشواطئ. ويبدو أن تنظيم العلاقات البحرية بدأ مع اكتشاف نظام الرياح الموسمية المنسوبة إلى هيبالوس، وقد أدى هذا الاكتشاف إلى إقامة صلات تجارية منتظمة بين جنوب الجزيرة العربية والهند وعالم البحر المتوسط. وكانت الملاحة المباشرة بين موانئ البحر الأحمر وموانئ الساحل الهندي تقتضي تأسيس وكالات تجارية ومحطات في الساحل الجنوبي للجزيرة العربية قادرة على تقديم المساعدة خاصة (عدن)،كأهم محطة وميناء في طريق السفن القادمة من البحر الأحمر بعد عبورها مضيق باب المندب.

ولعل أهم شهادة أدبية في بداية العصر الميلادي حول هذه الصلات التجارية المنتظمة في أدبيات أو سجلات معروفة وبالغة الأهمية (مخطوطة) المعروفة باسم (الطواف حول البحر الإرتيري) (periplus) وهي لملَّاح أو تاجر إغريقي مجهول

الاسم، وتناول فيها مدى النشاط التجاري (التجارة الشرقية عن طريق البحر الأحمر والمحيط الهندي)، بل أورد صاحب الطواف وصفًا لموقع شرق باب المندب في خليج عدن، صالح كميناء ومحطة ومرسى مناسب للسفن(Euedaemon)، يقصد به عدن كملتقى للسفن القادمة من مصر بسفن الهند في هذا الموضع، فيلتقي فيها تجار الشرق والغرب. وعلى هذا الأساس سيكون البحث في ثلاثة محاور:

1. كتاب الطَّواف والجدل التاريخي.. حول مؤلفه وتاريخه وأهميته.
2. النص الإنجليزي: الفقرات المتعلقة بالموانئ والمراسي الواقعة في أقصى جنوب البحر الأحمر لاسيما عدن.
3. ترجمة النص والتعليق عليه.

في الرحلة والرحَّالة:

نقدم في هذا البحث نظرة مفادها أن الرحلة والرحَّالة قد ساعدت على كشف النقاب عن المجهول من الأرض، لهذا رأينا أن يتضمن هذا البحث الحديث عن واحدة من أهم الرحلات القديمة في القرن الأول الميلادي التي أبحرت بين موانئ البحر الأحمر وموانئ الساحل الهندي.. لتصبح معلومات هذه الرحلة مصدرًا مهمًّا من مصادر دراسة تاريخ بلاد العرب الجنوبية وحضارتها.

وأيًا كانت دوافع الرحالة، المعلنة منها والخفية، فقد اتصف أغلبية الرحالة - ولو بدرجات متفاوتة - بدقة الملاحظة والوصف والتقصي في تسجيل مشاهداتهم بأمانة وصدق، كما حرص معظمهم على التفرقة بين المشاهدة والرواية عند التسجيل لمعلوماتهم[1]. هذه كلها سمات قد أصبحت الآن بمثابة قواعد أساسية من منهجية البحث الميداني في الكثير من الدراسات الإنسانية بالمعنى الحديث، الأمر الذي يجعلنا نعالج أو نناقش موضوع بحثنا هذا المعنون ب: (عدن في سجلات صاحب الطواف حول البحر الإرتيري) بالنظر في نتائج رحلة الرحالة التاجر الإغريقي (صاحب الطواف).

---

(1) فهمي، حسين محمد، أدب الرحلات، كتاب عالم المعرفة، العدد (138)، الكويت، 1989م، ص16 ومابعدها.

إذن فالرحلات اكتشاف للعالم والإنسان، وقد جاء بقلم أحد الكتاب الفرنسيين في القرن 18م القول إن الرحلات تشكل أكثر المدارس تثقيفًا للإنسان[1]. (الرحلة عين الجغرافيا المبصرة)، عنوان كتاب لأستاذ الجغرافيا صلاح الشامي، ما يشير إلى أن الرحلة ليست وسيلة اكتشاف فحسب، بل هي أيضًا (جزء أصيل من حركة الحياة على الأرض) على حد تعبيره[2].

ولاشك أن الرحلة قديمة قدم الإنسان، وعلى سبيل المثال: الرحلة التي قام القدماء المصريون عام 1493 ق. م تعد من أقدم الرحلات التجارية والاثنواغرافية على الإطلاق، وكذا الرحلات المصرية إلى بلاد بونت[3] للحصول على البضائع والسلع النفيسة كالبخور والعطور[4]، وهكذا فالرحلة أو الرحلات عبر التاريخ الإنساني كثيرة لا تحصى ولا مجال هنا للحديث عنها وعن دوافعها ونتائجها[5].

كتاب الطواف من أهم الكتابات الكلاسيكية:

(The periplus of Erythrean sea)

سجل أو مخطوط أو كتاب (الطواف حول البحر الإرتيري) أو الإريثري، هو من أبرز الكتابات الكلاسيكية (اليونانية والرومانية) وبالذات فيما يخص شواطئ وموانئ ومراسي البحر الأحمر والساحل الهندي وخاصة عدن كميناء ومرسى مهم للتجارة

---

(1) الإشارة هنا إلى الكاتب الفرنسي (سافري) الذي إلف كتاب عن مادة الرحلات عام 1785م وقدمه لأخي الملك لويس ملك فرنسا آنذاك.

(2) أدب الرحلات، المرجع السابق، ص21-22

(3) بلاد بونت: يبدو أنه اسم عام يطلق على المنطقة التي تنبت فيها أشجار البخور الأحمر على مقربة من باب المندب، وتشمل كل من الشاطئيين الإفريقي والآسيوي (جنوب جزيرة العرب والصومال وأرثيريا) لمعرفة المزيد عن ذلك انظر، فخري، أحمد، اليمن ماضيها وحاضرها، ط1،بيروت 1988م، ص111-114.

(4) راجع أدب الرحلات، ص22-23.

(5) لمعرفة المزيد عن دوافع الرحلات وأهميتها ونتائجها، وكذا روايات وقصص الرحالة راجع، فهيم، أدب الرحلات، ص15 ومابعدها.

الشرقية عن طريق البحر الأحمر والمحيط الهندي. علمًا أن كثيرًا من الكتابات الكلاسيكية قد تحدثت عن ذلك من خلال تناولها أخبار القدماء العرب ونشاطهم التجاري وعلى وجه الخصوص جنوب الجزيرة العربية (العربية الجنوبية وممالكها القديمة)[1] في حقب ما قبل الإسلام، لذلك لابد أولاً أن نعطي نظرة موجزة عن أهم هذه الكتابات ومن ثم سنعرج لموضوع بحثنا.

الكتابات والمصادر الكلاسيكية (اليونانية والرومانية):

المصادر الكلاسيكية هي المؤلفات التي وضعها اليونان والرومان، وقد عنت بتاريخ العرب القديم وحضارته، وقد تناولت بعض هذه المصادر أخبار العربية الجنوبية قبل الفترة المسيحية أو في عصورها الأولى، ومعظم هذه الأخبار عامة تحتوي غالبًا على معلومات جغرافية عن اليمن، وعن منتجاتها من السلع المقدسة (الطيوب)، حصل عليها المؤرخ عادة عن طريق السماع، أو قام بتسجيلها بعض التجار والرحالة اليونانيون الذين تمكنوا في مختلف الأزمنة من الوصول إلى شواطئ الجزيرة العربية، فجمعت الكثير من الأخبار والمعلومات عن العرب عمومًا وعن جنوب الجزيرة العربية خصوصًا، نذكر منهم:

(ثيوفراست Theophraste): وكانت له إشارات عن بلاد العرب الجنوبية وبالذات عن طيوبها. وبعد ثيوفراست بنصف قرن تقريبًا تولى (أيراتوستن القوريني Eratosthene de cyrene) (ت نحو 195)، وهو أحد كبار العلماء، تولّى منصبًا مهمًّا هو مدير المكتبة الكبرى للإسكندرية، وهو الذي وفر معلومات مفصلة عن العربية الجنوبية تضمنها مؤلفة الجغرافي الكبير الذي فقد، والذي لم يبق منه سوى بعض المعلومات الضئيلة، وكانت بلاد العرب كاملة تعرف لديه بالعربية السعيدة، (انظر الخارطة). وذكر أن جزأه الشمالي صحراوي ويسكنه أعراب، وجزؤها الجنوبي

(1) الممالك العربية الجنوبية (اليمن القديم)، أوسان، معين، قتبان، سبأ، حضرموت، وحمير (مملكة سبأ وذو ريدان).

يستحق تسميته بالعربية السعيدة، لأنه خصب، وهو مصدر السلع المقدسة (البخور والمر)، وتسكنه أربعة شعوب (سبأ وقتبان ومعين وحضرموت).[1]

وبعد (ايراتوستن) ببضعة عقود، أي حوالي منتصف القرن الثاني، نجد عالمًا آخر مثله يهتم بجمع معلومات مفصله عن الجزيرة العربية هو (أغاثركيدس - Agatharchide deCnide)، وفي كتاباته خص الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية باسم العربية السعيدة[2].

ومن بين المهتمين أيضًا بجمع المعلومات عن العربية الجنوبية هو: (استرابون Strabon) (ولد نحو 63 أو 64 ق.م وتوفي بعد سنة 20م)، وهو جغرافي ومؤرخ زار مصر عند فتح الرومان. استفاد من مكتبة الإسكندرية، من أهم مؤلفاته كتاب (الجغرافيا) المكون من (17) جزءًا، غني بالمعلومات عن العالم القديم، أفرد فصلًا خاصًا من الجزء (16) تحدث فيه عن مدن العرب وقبائلهم، ووصف أحوالهم التجارية والاجتماعية والاقتصادية، كما تحدث عن الحملة الرومانية على الممالك العربية الجنوبية عام (24ق.م)، بقيادة (إليوس جالوس - Aelius Gallus)، وقد أخفقت هذه المغامرة على وجه الدقة أمام العاصمة السبئية (مأرب) وعاد جالوس وهو شديد القرب من الغاية، أي كانت يومان فقط تفصلانه عن بلاد الطيوب الحقيقية (حضرموت)، حيث تواجد أشجار المر واللبان والصبر.[3]

وتكمن قيمة حديثه عن هذه الحملة كونه معاصرًا لها، بل يقال إنه كان صديقًا لقائد الحملة فشارك فيها، فتضمَّنت مدوناته جوانب مهمة من تاريخ العرب بوجه عام،

---

(1) انظر: كتاب بلاد اليمن في المصادر الكلاسيكية، جمع وترجمة حميد العواضي وعبداللطيف الأدهم، ط1، صنعاء، 2001م، ص26-30.

(2) راجع كتاب اجاثارخيدس عن البحر الأريتيري، ترجمة وتعليق الحسين أحمد عبدالله، عين للدراسات، مصر، ط1، 2001م.

(3) لمعرفة المزيد عن الحملة الرومانية راجع باوزير، محمد بن هاوي: الحملة الرومانية بين المصادر الكلاسيكية والجدل التاريخي، مجلة كليات التربية، العدد (9) دار جامعة عدن، أغسطس 2008م، ص231-265.

وعرب الجنوب بوجه خاص[1]. بالإضافة إلى كتاب بليني (القرن الأول الميلادي) المسمى (التاريخ الطبيعي)، وهو كتاب موسوعي يتناول فيه أخبار الجزيرة العربية وتفاصيل مهمة عن المنتجات التجارية وخاصة طيوب العربية الجنوبية.[2]

أما كتاب (الطواف حول البحر الإرتيري)، أو (التطواف حول البحر الأحمر)، وهو بيت القصيد الذي كتبه رحالة يوناني مجهول، فقد وصف فيه تطوافه في البحر الأحمر وسواحل البلاد العربية الجنوبية، وكشف عن معلومات جغرافية وتاريخية مهمة عنها، ويبدو أنه كان عالمًا بأحوال الهند وشواطئ إفريقيا الشرقية، ولعله كان رحَّالة أو تاجرًا من التجار الذين كانوا يطوفون في هذا الاتجاه للاتجار، فكان مهتمًّا بأحوال السواحل دون الأقسام الداخلية من شبه الجزيرة العربية.[3]

ومن بين معلوماته المهمة حديثه عن تصدير الطيوب من موانئ بلاد العرب الجنوبية المطلة على البحر الأحمر والمحيط الهندي ومنها عدن وقنا. أما موضوع البحث بمحاوره الثلاثة فسنتناوله في السياق التالي:

أولًا- كتاب الطواف والجدل التاريخي حول: مؤلفه وتاريخه وأهميته:

أ- التاجر الملاح الإغريقي صاحب الطواف:

لازلت الغيوم تخيم على شخصيته وسيرته الذاتية، فهل كان تاجرًا أم ملَّاحًا يونانيًّا، أم هو من أبناء مصر؟!. يرجِّح كثير من المؤرخين أنه عاش في القرن الأول الميلادي، وأنه كان تاجرًا، بل يرجَّح أنه تاجر يوناني مجهول الاسم (يوناني مصري)، كان يعيش في مصر القرن الأول الميلادي، ولعله من أبناء الإسكندرية.[4]

(1) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1969م، ج 1، ص58-59؛ وجرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، دار المكتبة الأهلية، بيروت، ص21.

(2) المرجع السابق، المفصل،ج1، ص59-58.

(3) ينظر: جواد علي: المفصل، ج1، ص59.

(4) حوراني، جورج فضلوا، العرب والملاحة في المحيط الهندي، دار الكتاب العربي، القاهرة، ص54؛ النعيمات، سلامة، تجارة اللبان والبخور عبر موانئ شبة الجزيرة العربية قبل الإسلام، ص308.

أما الأمر الثابت فهو أن صاحب الطواف إغريقي مصري يعيش في مصر فترة حكم البطالة، ويستدل على ذلك من خلال وصفه للمحيط المصري، ومن أحاديثه عن الأشهر المصرية الموازية زمنًا للأشهر الإغريقية[1]. ويظل السؤال المحير للباحثين قائمًا عن: اسم مؤلف كتاب الطواف حول البحر الإرتيري.. وماذا عن سيرته وحياته؟

ب - الرحلة:

انطلق الملاح التاجر اليوناني المصري من الميناء المصري (Myos) ميوس هرموس أو مايوس الواقع الآن في (رأس سومر) على البحر الأحمر فإلي ميناء بيرنك أو (برنيس) حيث يقع الآن (رأس برناس)، وهكذا تستمر الرحلة وبمحاذاة الساحل الشرقي الإفريقي وشواطئ إفريقيا فيما وراء باب المندب مرورًا بسواحل بلاد العرب وموانئها ومراسيها كمَوْزَع ومَيُّون وعَقيل (Okelis) وعدن (Eudamon – Arbia) وغيرها حتى خليج عمان، ومنه إلى سواحل الهند الغربية والشرقية حتى مصب نهر الجانجا تقريبًا إلى آخر حدود (ملبار). كذلك ورد ضمن مادته التي تضمنت كتابه أنه سافر وارتحل إلى الصين، بل ذكر جزرًا هندية وصينية غير معروفة. لذلك نجد صاحب الطواف يقدم وصفًا جغرافيًّا لتلك الرحلة في الهند الغربية والشرقية حتى مصب نهر الجانجا تقريبًا. ويقدم وصف كتابه المؤلَّف من ست وستين فقرة أو فصلًا إجمالًا، ويختلف حجم الفقرات أو الفصول، بينما ترد معلومات بتفصيلات كثيرة وذات مضمون متعدد، بعضها ينسجم مع ما يراه المؤلف صاحب الطواف من فائدة، فهناك ثمة فقرات لا تشمل إلا على بعض الملاحظات[2].

ج - عنوان الكتاب.. تاريخه وأقسامه وأهميته:

كتاب (الطواف حول البحر الإريثري أو الإرتيري)[3] أو (دليل الملاحة في البحر

---

(1) راجع الفصول أو الفقرات الأولى من كتاب الطواف (The periplus) .The peripus of the Erythraean Sea،W.H،Schoff pp.22–24

(2) أجاثارخيدس – عن البحر الإرتيري، ص18 ؛ وراجع الفقرات في:Schoff،op. cit،22–49.

(3) حوراني، المرجع السابق، من 54.

الأحمر)[1] أو (دليل البحر الإرتيري)[2].

(Periplus of the Enythrocean

Periplus Maris Erythrci

وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية في عدة ترجمات كلها تحت عنوان[3]:

sea) The periplus of the Erythraean

من قبل: Hunting ford، G.London،1980)

ومن قبل: Casson،L.،Princeton،1933)

ومن قبل:Wilfred، H.Shoff،New York،1912)

ولأن الترجمة الأخيرة هي المتاحة لنا فقد اعتمدنا عليها.

ومثل هذا العنوان نجدة في كتاب آخر لأحد المؤلفين الكلاسيكيين هو: (أجاثارخيدس الكندي -Agathar chide de Cnide)

من كنيدوس عاش في القرن 2ق.م. وربما كان هو الكاتب الذي أسهمت كتاباته عن الجزيرة العربية في تحديد ملامح صورة كان ينبغي أن تدون عبر القرون. لقد خص الجزء الجنوبي من الجزيرة باسم العربية السعيدة، وفي نظره أنهم شعوب غنية ينتجون ويتاجرون بأنواع من النباتات العطرية[4]، ونظرًا لأهمية كتابه فقد كثر استعماله، ونسخه

(1) مصطفى العبادي، ميناء الإسكندرية وخطوط الملاحة العالمية في العصرين البطلمي والروماني، مصر، 1998م، ص56؛كرون باتريشيا، تجارة مكة وظهور الإسلام، ترجمة آمال الروبي، ط1، القاهرة، 2005م. ص44.

(2) شوقي عثمان، ميناء الإسكندرية وخطوط الملاحة العالمية في العصرين البطلمي والروماني، مصر، 1998م،42-43 ؛ سلامة النعيمات، المرجع السابق، ص308؛ الشيبة، عبدالله حسن، ترجمات يمانية، ط1، صنعاء، 2008م، ص71.

(3) نهاية ملاعبة، المرجع السابق ص16.

(4) العواضي، حميد مطيع والأدهم، حميد، بلاد اليمن في المصادر الكلاسيكية، الطبعة الأولى، صنعاء 2001م، ص31-33.

كُتّاب آخرون ونقلوا فحواه إلى جمهور واسع جدًّا[1]. ووجه الشبه بين عنواني كتابه وكتاب الطواف أن عنوانه: (أجا ثار خيدس الكنيدي عن البحر الإرتيري)، والآخر (الطواف حول البحر الإريثري).

وقد استخدم المؤرخون والجغرافيون الإغريق القدماء مصطلح البحر الإريثري للإشارة إلى الخضم المائي الكبير الذي يمتد من إفريقيا إلى الهند بالإضافة إلى خليجيه، وهو ما نعرفه الآن بالمحيط الهندي والبحر الأحمر والخليج الفارسي (العربي)، وكانت للإغريق والرومان لاحقًا صلة قديمة بأحد أجزاء هذا الكيان المائي الضخم وهو البحر الأحمر، بداية من القرن السادس قبل الميلاد وربما قبل ذلك[2]. ويطلق اسم البحر الإرتيري على الجزء الجنوبي من المحيط الهندي وعلى وجه التحديد الجزء الملامس لسواحل شرق إفريقيا[3].

أما الأمر الآخر فإن العنوان يحتوي على لفظين مهمين هما:(Erythreanو periplus)، فالأولى (Periplus) تعني دورة ملاحية، وقد أطلق هذا اللفظ على رسائل في الملاحة يصف اليونان سواحل البحار اليونانية[4]، وتعني (طوّافًا أو دليلاً)، أو سجل الطواف وقد استعملت كثيرًا عند الجغرافيين والمؤرخين والرحالة، وتطلق على البحار، وتطلق على عدة كتابات المقصود بها (سجل الإبحار) أو(كتاب الإرشاد)، وتطلق

(1) ربما أن صاحب الطواف إلى جانب مشاهداته في أثناء رحلته قد استقى بعض المعلومات عن العربية الجنوبية وأفريقيا والهند من البحارة الذين جابوا البحار ليصلوا إلى تلك المناطق، وربما استفاد أيضًا من معلومات أجاثارخيدس وغيره من الكلاسيكيين.

(2) لمعرفة المزيد عن ذلك وعلاقة الإغريق وخاصة منذ عهد البطالمة بالبحر الأحمر انظر: أجاثارخيدس (عن البحر الإريثري)، ترجمة الحسين أحمد عبدالله، ط1، الجيزة – مصر، 2011م، ص17–18.

(3) عثمان، شوقي عبدالقوي، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، كتاب عالم المعرفة، العدد (151)، يوليو1990م، الكويت، ص42– 43.

(4) الجرو، أسمهان، الموانئ العمانية القديمة ومساهمتها في التجارة الدولية، ط1، مسقط، 2011م، ص28.

على رحلات البحارة المرشدين للبحار مثل سيكيلاكس وآريان ومارسيان وغيرهم[1].

أما كلمة (Erythraean) فهي كلمة يونانية تعني الأحمر، ومع أن هناك البحر الأحمر إلا أن الكلمة اليونانية لم تقصد البحر الأحمر في ذلك الزمن الذي استخدمت فيه، لأن البحر الأحمر كان يسمى (خليج العرب) عند غالبية الجغرافيين الكلاسيكيين، وحتى بعد هذه الفترة التي وضع فيها المؤلف كتابه هذا باسم (خليج العرب)، أما كلمة (إرتيري) فكانت تعني في ذلك الوقت القسم الشمالي من المحيط الهندي والأجزاء المتفرعة عنه بما في ذلك البحر العربي وخليج عمان[2].

والكلمتان (Mari Erythraeo) أو (Maris Erthrci) تعنيان البحر الأحمر، ويشمل عند الإغريق والرومان البحر الأحمر حاليًّا (الذي كانوا يسمونه الخليج العربي)، وخليج عدن والبحر العربي وغرب المحيط الهندي[3].

وثَمّ سِجل طريف لذا أجا ثار خيديس إن الاسم (Erythras) هو اسم لملك فارسي ورد اسمه في أسطورة بحرية أتى على ذكر الكاتب[4]. ويؤكد مصدر الاسم أنه لملك، بدليل أن الاسم لم يشتق من اللون لأن مياهه ليست حمراء، وهناك من يعتقد أن جماعة من الناس استقرت بالبحرين ثم انتشرت في جنوب الجزيرة العربية، وكانوا يتمتعون بحمرة صحية في الأجساد، ومن ثم جاءت التسمية بحر الملك الأحمر أو بحر الجماعة الحُمْر[5].

---

(1) زيادة، نيقولا، دليل البحر الإرتيري وتجارة الجزيرة العربية، الرياض،1984م، ص622-623؛ الحبشي، حسين علي وشميري، نجيب (ترجمة) الطواف في البحر الأحمر، ط1، دار جامعة عدن، 2004م، ص11؛ والنعيمات، المرجع السابق، ص308.

(2) النعيمات، سلامة، المرجع السابق، ص308؛ ملاعبة، نهاية عبدالرحمن، دور ممالك جنوب الجزيرة العربية في التجارة الدولية بين (القرن 1ق.م -3م)، رسالة ماجستير (غير منشورة)، الجامعة الأردنية، مايو1995م، ص17.

(3) أجاثارخيدس، المرجع السابق، ص17؛ والحبيشي، المرجع السابق، ص47.

(4) ذكر بلينيوس في كتابه التاريخ الطبيعي (فقرة153)، اسم هذا الملك الفارسي وأنه دفن في جزيرة (Ogyris) انظر: الشيبة، المرجع السابق، ص93،61.

(5) الحبيشي، المرجع السابق، ص47.

وإلى جانب كون كتاب الطواف مجهول المؤلف، أيضًا وضعت له تواريخ مختلفة تتأرجح بين القرن الثاني ق.م والقرن الأول الميلادي. وأفضل تاريخ القرن الثاني ق.م الذي يمثل فترة نشاط بطالمة مصر في البحر الأحمر، ومما يعزز هذا الرأي ماذكرته بعض المصادر من أن الملك بطليموس الثامن (يورجتيس الثاني 166ق.م) قام باختيار يودوكسوس الكيزي ليقود بعثة كشفية، مما تعد دليلًا على استفادة البطالمة من الرياح الموسمية في السفر[1]، وربما كتب في حوالي (40م)[2] أو (60م)[3]، وهناك من يرى أن تاريخ تأليفه في الفترة ما بين (80-50م)[4]، وبإجماع الكثير من الآراء يعود هذا الكتاب أو (التقرير)، كما يحلو للبعض تسميته إلى منتصف القرن الأول الميلادي[5].

ويتكون كتاب (الطواف في البحر الإرتيري) من قسمين كبيرين، ويتوزع القسم الأول منها في (18فقرة أو فصل)، تتضمن الحديث عن الرحلة انطلاقًا من مصر في شمال البحر الأحمر حتى شواطئ إفريقيا فيما وراء باب المندب، بينما القسم الثاني يتألف من (48 فقرة) يقدم فيه وصفًا للساحل العربي الجنوبي حتى سواحل الهند الغربية والشرقية. وهكذا نجد صاحب الطواف يقدم وصفًا جغرافيًّا في كتابه المكون من ست وستين فقرة إجمالًا، ويختلف حجم الفقرات أو الفصول، فبينما ترد معلومات بتفصيلات كثيرة وذات مضمون متعدد في بعضها منسجمة مع ما يراه المؤلف من فائدة، فهناك ثمة فقرات لا تشمل إلا على بعض الملاحظات[6].

---

(1) كرون، باتريشيا، تجارة مكة وظهور الإسلام، ترجمة آمال الروبي، ط1، القاهرة، 2005م، ص44.

(2) العبادي، مصطفى، ميناء الإسكندرية وخطوط الملاحة العالمية في العصرين البطلمي والروماني، من كتاب تاريخ سواحل مصر الشمالية عبر العصور (ندوة 22-23أبريل) 1998م، الإسكندرية، ص56.

(3) عثمان، شوقي، المرجع السابق، ص43.

(4) حوراني، المرجع السابق، ص54؛ النعيمات، المرجع السابق، ص308؛ ونهاية ملاعبة، المرجع السابق 17-18.

(5) شهاب، حسن صالح، من الملاحة عند العرب، ط1، دار العودة، بيروت، 1982م، ص41؛ أسمهان الجرو، المرجع السابق، ص28؛ والعواضي والأدهم، المرجع السابق، ص48-49.

(6) أجا ثار خيديس، مرجع سابق، ص 18.

أما أهمية الكتاب فنجد صاحب الطواف يقدم في كتابه وصفًا جغرافيًّا للساحل الغربي لبلاد العرب الجنوبية وقد تناولها في الفقرات أو الفصول من (36-19)، والجزء الغربي من سواحل الهند إلى آخر حدود (ملبار) الساحل الغربي للهند، وقد تناوله في الفصول (63-37)، وشواطئ إفريقيا، فيما وراء باب المندب قد تحدث عنها في الفصول (18-1)، أما الفصول الثلاثة الأخيرة فقد أفردها للحديث عن جزر هندية غير معروفة وعن الصين[1].

ويذكر صاحب الطواف عددًا من الموانئ في كل من مصر وبلاد العرب الجنوبية وإفريقيا والهند، ويشير إلى أهم الموانئ وبعضها مراسي في كل منطقة، ومن الجدير بالذكر أن هذه الموانئ والمراسي هي النقاط الرئيسة التي تصل بين الطريق التجاري البحري من الشرق الأقصى وحتى مصر[2].

وقد أورد الجغرافي (كلوديوس بطليموس -168) (90-Ptolemy م) الكثير من المعلومات عن المنطقة نفسها التي وضعها صاحب كتاب الطواف، إلا أن معلوماته تبقى أقل دقة من كتاب الطواف الأكثر دقة بوصفه ملاحًا، وقد زار المنطقة وتعرف عليها، بينما بطليموس اعتمد على نقل معلوماته عن هذه المنطقة ممن سبقوه[3].

ونخلص مما تقدم إلى أن الهدف من سجل أو كتاب صاحب الطواف إما أن يكون عونًا ومرشدًا للتجار وملاحي السفن، أو ربما كان الهدف من وضعه استخباراتيًّا للإمبراطورية الرومانية[4]. (وفي نظرنا) ربما الاثنان معًا كانا الهدف من وراء هذا

---

(1) نهاية ملاعبة، مرجع سابق، ص 17؛ وانظر: W.Theperiplus، PP.22-49...، Schoff.

(2) المرجع السابق (Periplus).

(3)، Vogel "Notes on ptolemy"1954، pp.153-168

(4) ربما استفادت الإمبراطورية الرومانية من معلومات صاحب الطواف في إعادة المحاولة باتجاه الممالك العربية الجنوبية للسيطرة عليها وعلى تجارتها (تجارة البخور) وطرقها التجارية، بعد أن فشلت محاولتهم الاحتلالية في عام 24ق.م، وقد بلغوا حتى أسوار العاصمة السبئية مأرب ولم يبقَ لهم سوى مسيرة يومين عن بلاد البخور الحقيقية، أي مكان تواجد أشجار اللبان والمر في أراضي مملكة حضرموت، ورغم ذلك ظلت رغبة الإمبراطورية في ضم هذه

السجل. فمن يدقق النظر في الترجمة الإنجليزية يجد أنه أبعد من مجرد وصف لمشاهدات رحَّالة في الشواطئ والموانئ التي يمر بها مركبه، بل إنه في بعض الأماكن يتعدى الشاطئ فيصف شعوب البر الداخلي التي ليس لها علاقة بالبحر وتجارته. وما يدعم اعتقادنا هذا أن سجلاته أو كتاباته جاءت في فترة كان فيها الرومان رواد العالم سياسيًّا واقتصاديًّا.

- أن قيمة هذا العمل تتمحور في أنه تضمن أقدم وصف مكتوب لتلك الشواطئ والموانئ وتجارتها خلال القرن الأول الميلادي[1]. بل يتضح من المادة التي جمعت في كتاب الطواف أن واضعها لم يكن مجرد جامع للحقائق، بل من الثابت أنه سافر وارتحل وشاهد بنفسه تلك المناطق التي تحدث عنها، فيصف حالة العرب وتجارتهم في المنطقة، فهو مثلا يعجب لكثرة عدد السفن العربية واختلاط العرب وتزاوجهم من القبائل الإفريقية.. إذن فتكمن أهمية هذا الكتاب في أنه أول مصدر مكتوب قد عثر عليه يؤكد العلاقات التي كانت قائمة بين عرب جنوب الجزيرة العربية والساحل الشرقي الإفريقي[2]، وكذا الساحل الهندي، وأن السفن العربية كانت تتبادل التجارة معهم.

ثانيًا: النص الإنجليزي لكتاب الطواف:

تُرجم كتاب)الطواف حول البحر الإرتيري(من اليونانية إلى الإنجليزية في عدة ترجمات تحت عنوان:

The Periplus of the Erythraean Sea

والترجمة الإنجليزية المتاحة لنا هي لـ: (ويلفريد. هـ. شوف) طبعة نيويورك

المناطق ضمن شبكات الإمبراطورية الاقتصادية. لمعرفة المزيد عن الحملة الرومانية، أسبابها ونتائجها، ينظر: باوزير: محمد بن هاوي، الحملة الرومانية على العربية الجنوبية بين المصادر الكلاسيكية والجدل التاريخي، ص231-265، مجلة كليات التربية، العدد(9)، أغسطس 2008م، دار جامعة عدن.

(1) أسمهان الجرو، المرجع السابق، ص28.

(2) قاسم، جمال زكريا، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، القاهرة، 1975، ص52-54؛ وانظر: David Son.B ،(David Son.B P.174، The Lost Cities of Africa(U.S.A.1959

1912م. Wilfred H. Schoff) وقد اخترنا منها الفقرات المتعلقة بالموانئ والمراسي العربية الجنوبية وخاصة القريبة من عدن في البحر الأحمر وهي من الفقرة (21-27):

21. Beyond these places، in a bay at the foot of the left side of this gulf، there is a place by the shore called Muza، a market-town established by law، distant altogether from Berenice for those sailing southward، about twelve thousand stadia. And the whole place is crowded with Arab shipowners and seafaring men، and is busy with the affairs of commerce; for they carry on a trade with the far-side coast and with Barygaza، sending their own ships there.

22. Three days inland from this port there is a city called Saua، in the midst of the region called Mapharities; and there is a vessal-chief named Cholæbus who lives in that city.

23. And after nine days more there is Saphar، the metropolis، in which lives Charibael، lawful king of two tribes، the Homerites and those living next to them، called the Sabaites; through continual embassies and gifts، he is a friend of the Emperors.

24. The market-town of Muza is without a harbor، but has a good roadstead and anchorage because of the sandy bottom thereabouts، where the anchors hold safely. The merchandise imported there consists of purple cloths، both fine and coarse; clothing in the Arabian style، with sleeves; plain، ordinary، embroidered، or interwoven with gold; saffron، sweet rush، muslins، cloaks، blankets (not many)، some plain and others made in the local fashion; sashes of different colors، fragrant ointments in moderate quantity، wine and wheat، not much. For the country produces grain in moderate amount، and a great deal of wine. And to the king and the Chief are given horses and sumpter-mules، vessels of gold

and polished silver، finely woven clothing and copper vessels. There are exported from the same place the things produced in the country: selected myrrh، and the Gebanite-Minæan stacte، alabaster and all the things already mentioned from Avalites and the far-side coast. The voyage to this place is made best about the month of September، that is Thoth; but there is nothing to prevent it even earlier.

25. After sailing beyond this place about three hundred stadia، the coast of Arabia and the Berber country about the Avalitic gulf now coming close together، there is a channel، not long in extent، which forces the sea together and shuts it into a narrow strait، the passage through which، sixty stadia in length، the island Diodorus divides. Therefore the course through it is beset with rushing currents and with strong winds blowing down from the adjacent ridge of mountains. Directly on this strait by the shore there is a village of Arabs، subject to the same chief، called Ocelis; which is not so much a market-town as it is an anchorage and watering-place and the first landing for those sailing into the gulf.

26. Beyond Ocelis، the sea widening again toward the east and soon giving a view of the open ocean، after about twelve hundred stadia there is Eudæmon Arabia، a village by the shore، also of the Kingdom of Charibael، and having convenient anchorages، and watering-places، sweeter and better than those at Ocelis; it lies at the entrance of a bay، and the land recedes from it. It was called Eudæmon، because in the early days of the city when the voyage was not yet made from India to Egypt، and when they did not dare to sail from Egypt to the ports across this ocean، but all came together at this place، it received the cargoes from both countries، just as Alexandria now receives the things brought

both from abroad and from Egypt. But not long before our own time Charibael destroyed the place.

27. After Eudæmon Arabia there is a continuous length of coast، and a bay extending two thousand stadia or more، along which there are Nomads and Fish-Eaters living in villages; just beyond the cape projecting from this bay there is another market-town by the shore، Cana، of the Kingdom of Eleazus، the Frankincense Country; and facing it there are two desert islands، one called Island of Birds، the other Dome Island، one hundred and twenty stadia from Cana. Inland from this place lies the metropolis Sabbatha، in which the King lives. All the frankincense produced in the country is brought by camels to that place to be stored، and to Cana on rafts held up by inflated skins after the manner of the country، and in boats. And this place has a trade also with the far-side ports، with Barygaza and Scythia and Ommana and the neighboring coast of Persia.

ثالثًا: ترجمة النص والتعليق عليه (من الفقرة 21-27):

20 - (وتأتي البلاد العربية بعد ذلك المكان مباشرة وهي متاخمة له، وتمتد في طولها على امتداد البحر الأحمر، وتسكنها قبائل شتى، تختلف لهجات بعضها البعض كليًّا أو جزئيًّا. وعلى امتداد الساحل تقع مرافق أو تجمعات (الاخثوفاجوا) ALAKHTHUO PHAGOI، أما في الداخل فتقع القرى والتجمعات القبلية التي تقيم فيها بعض القبائل والذين يتحدثون بلهجتين، أما المسافرون الذين يتيهون في المسالك ويقعون في أيدي اللصوص فمصيرهم أن ينهبوا، وإذا نجوا من حطام السفن فيستعدون، ولهذا السبب يظلون دائمًا سجناء لمشايخ أو ملك العرب، ويسمونهم (كانريتية) Kanraitai، وهكذا فإن الرحلة بامتداد الساحل الغربي محفوفة بالمخاطر؛ لأن البلاد ليس لها موانئ، ولها مراسي سيئة وساحل غير سليم، لا يمكن استخدامه لصخوره ولوعورته في كل الأحوال. ولتلك الأسباب عندما نأتي إليه نتخذ وسط البحر طريقًا، ونستمر في ذلك

حتى نصل إلى الجزيرة المحروقة[1] إذ نجد بعدها أراضي متواصلة لسكان حضارية ولديهم قطعان من الأغنام والجمال).

وإلى الجنوب مباشرة تجاور هذا المكان (بلاد العرب) التي تمتد مسافة طويلة على سواحل البحر الإرتيري[2]، وهذه البلاد تسكنها قبائل متباينة تختلف في كلامها اختلافًا جزئيًّا في بعض الحالات، واختلافًا تامًّا في بعضها الآخر.

والأرض المحاذية للبحر تتخللها هنا وهناك كهوف يسكنها أولئك الذين يقتاتون السمك، وفي الأجزاء الداخلية من البلاد توجد جماعات خبيثة تتكلم بلهجتين وتسكن القرى، ومنها جماعات بدوية تسكن الخيام، وهؤلاء يغيرون على التجارة الخارجة عن خط السير في وسط البحر (البحر الأحمر) وينهبونهم ويأسرون الناجين رقيقًا، ومنهم يبقون سجناء عند ملوك بلاد العرب ومشايخها، ويطلق عليهم القرناويين[3]. ويتواصل السير في مقابل بلاد العرب.

21- (وتقع (موزا) بعد هذه الأراضي في الخليج البعيد على (يسار البحر[4]، وهي أرض مجاورة للبحر، وتبعد عن (بئر) مسافة 12،000 ستيد[5] بالنسبة للإبحار جنوبًا. ويسكن العرب تلك الأراضي وهي مليئة بقباطنة السفن والبحارة، ويعلو في مجتمعها ذووا الأعمال التجارية، ويسلك السكان ممر التجارة مع الساحل المقابل ومع (باروجازا) Barugaza[6]).

(1) جزيرة جبل الزبير الواقعة إلى الجنوب الغربي من جزيرة كمران.

(2) هذه تسمية تشمل البحر الأحمر، والسواحل الغربية والشمالية للمحيط الهندي.

(3) القرناويون: نسبة إلى قرناو عاصمة مملكة معين، وأن هذه الجماعات الخبيثة (بحسب إفادة صاحب الطواف) ليست تابعة لمعين بل سجناء لديهم.

(4) يبدو أن الكاتب يقصد يسار الخليج وليس البحر، والأصح يمين البحر الأحمر.

(5) أستيد أو أستاديا: وحدة قياس، تقريبًا 10 أستاديا يساوي ميلًا بحريًّا واحدًا، واثنا عشر ألف ستاديا =(2223،6) كيلو متر تقريبًا.

(6) باروجاز أو بريجاز – براوش: ميناء مهم في الساحل الهندي الشمالي الغربي، وتقع في حوض نهر نربدا، ومن أهم صادراتها الفولاذ والقطن، وكانت مركزًا تجاريًّا لتجميع السفن التجارية من أنحاء العالم آنذك. النعيم، مرجع سابق، 262؛ والشيبة، مرجع سابق، ص97.

أن موزا (Muza) المعروفة بموزع وهي من الموانئ المهمة في جنوب غرب الجزيرة العربية على البحر الأحمر، وتقع حوالي 25 ميلًا إلى الشمال من ميناء المخا الحالي. وقد كان تابعًا للدولة السبئية في أيام ازدهارها، ومنذ القرن الأول الميلادي أصبح الميناء الرئيس للدولة الحميرية. وقد كان ازدهار هذا الميناء سببًا في تدهور كلٍّ من أوكليس وعدن. وقد ورد ذكر موزا في الكثير من الكتابات الكلاسيكية كميناء رئيس وسوق تجاري[1]. ويعج هذا المكان (موزا) بأصحاب السفن من الملاحين العرب.

22- (وعلى مسيرة ثلاثة أيام، تقع مدينة (ساوى) Seua في البلاد التي تدعى بلاد (المفاليس) Mapharitis، وحاكمها هناك هو كوليبوس).

وعلى مسيرة ثلاثة أيام تقع ساوي (السوا)Saue /Save[2] في منطقة تسمى مفارايتيس أي المعافر[3] (إلى الغرب بالقرب من البحر الأحمر)، ويعتقد البعض أن السوا هي مدينة تعز التي تبعد حوالي40 ميلًا شمال شرق المخا أمام المعافر في ولاية وتشمل الحجرية وما جاورها، ويحكمها كوليبوس أي كليب[4] الذي يدين بالولاء لحمير.

23- (وتقع العاصمة (صفر أو ظفر) Saphar على مسيرة تسعة أيام أخرى، حيث يعيش (كرب إيل) الملك الشرعي (لقبيلة الحميريين والسبأيين)، ويدعى «صديق

---

(1) نورا النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية، في الفترة من القرن 3 ق.م -3م، ط1، دار الشواف، السعودية، 1992م، ص254.

(2) السوا: تقع مدينة السوا بالقرب من الطريق الرئيس الذي يربط مدينة تعز وتبعد عن سوق النشمة بحوالي 11كم، وتتبع إداريًّا ناحية المواسط قضاء الحجرية، وتسمى أطلالها اليوم بحصن القدم، وقد ذكرت (س و م) 14/ 954+cIH314.7H،5 /585 Ja وكانت تعد واحدة من أهم مراكز المعافر القديمة: راجع: عبدالله الشيبة، المرجع السابق، ص93.

(3) المعافر: ذكرت في أقدم نقش طويل (4-3/ RES3945) في حملة الملك السبئي كرب أل وتر على المعافر.

(4) لعل كليب هذا كان نائبًا عند الملك المقيم في الحاضرة الحميرية ظفار. راجع: الشيبة، المرجع السابق، ص97.

الأباطرة»؛ لأنه على صلة دائمة بهم عن طريق السفراء والهدايا المرسلة).

العاصمة ظفر أي ظفار حاضرة مملكة حمير، وهي تبعد تقريبًا حوالي 100ميل شرق المخا في الطريق إلى صنعاء، قرب مدينة يريم، وفي فترات ما قبل الإسلام بنيت فيها كنيسة للمسيحيين.

24- (ولا يوجد في أرض موزع ميناء ولكن لها مراسي داخل البحر نتيجة لشواطئها الرملية التي تكون مراسي جيدة، ومستورداتها تشمل مايلي:

ملابس قرمزية ذات جودة عالية، وأثواب عربية ذات أكمام غير مخططة ولكنها معلمة ومطرزة بالذهب والزعفران، وكوبيروس Kuperos، وقماش القطن وعباءات، وأغطية مدفية (وأكثرها فردية ومحلية)، وأحزمة مخططة، وعطور (بكميات زهيدة)، ونقود (كافية)، ونبيذ، وحنطة، ليس بالكثير، لأن البلاد تزرع كمية متوسطة القدر كما تنتج النبيذ (العنب)[1].

ويمنح ملك البلاد و(شيخ موزع) الخيول والبغال للحمل والصحون الذهبية والآنية الفضية المنحوتة والملابس الثمينة وكذا الأشياء النحاسية، أما الأشياء التي تصدر من هذه البلاد فهي المر الجيد المختار بعناية (الابيريان والمعيني)[2] ثم المرمر وكذا سائر البضائع التي ذكرناها عندما أتى الحديث عن (عدولي)[3] الميناء في الساحل المقابل. والرحلة إلى هذه الأراضي يستحسن إتمامها في شهر سبتمبر (Thoth)[4]، ولكن ليس هناك مانعًا من إتمامها في وقت مبكر).

---

(1) المنطقة تنتج نبيذًا فاخرًا معمولًا من الأعناب والزبيب.

(2) المر المعيني: نسبة لمملكة معين، وكان يصدر لأماكن عديدة منها مصر القديمة. راجع، باوزير، محمد بن هاوي، كراسات في تاريخ حضرموت، ط 1،دار الوفاق، عدن، 2014م، ص 134،100-101.

(3) عدولي: ميناء تابع لمملكة أكسوم الحبشية.

(4) شهر توت: من أسماء الشهور القمرية المصرية القديمة التي احتفظ بها الأقباط، راجع، آنا رويز: روح مصر القديمة، ترجمة أكرم يوسف، القاهرة، 2006، ص295-299.

25 - (وبعدها إن أبحرت مسافة 300ستيد يتقارب كل من بر العرب والساحل المقابل لأرض بربرة عند الخليج (اوليس). وثمة قنال يجمع بين مياه البحرين ويقل اتساعه ليكون مضيقًا.

وفي المضيق الذي لا يزيد عرضه عن 60 ستيد تقع جزيرة Diodoros[1]، وتعترض قنال المرور. ولهذا يكون المرور صعبًا، ولهبوب الرياح من التلال المجاورة التي تهيج المياه، وعلى الساحل في هذا المضيق تقع جزيرة (عقيل) Okelis[2] ويحكمها حاكم موزع، وليست هي بأرض بقدر ما هي مرسى ومحل للتزويد بالمياه، كما أنها أول محطة للذين سيبحرون في الخليج). ويبدو أن هذا الموقف كان محل استراحة للتجار الهنود قبل أن يتوجهوا إلى ميناء موزع.

26 - (وبعد تلك القرية يتسع البحر شرقًا لرؤية البحر الواسع، وعلى بعد 1200ستيد تقع قرية (عدن) أيدموند بلاد العرب بجوار البحر، والتي يحكمها (كرب أيل) المذكور سابقًا وتتمتع بميناء ملائم ومصدر للتزويد بالمياه أكثر جودة من قرية (عقيل)، كما أنها تقع على مدخل خليج حيث تتقهقر اليابسة أمام تدفق المياه، وايديمون العربية سميت كذلك عندما كانت مدينة، عندما كان يتردد عليها المسافرون من الهند إلى مصر، وحيث كان يرسو المسافرون من مصر قبل المخاطرة بالإقلاع في مسار البحر شرقًا. وهنا كانت حمولات البضائع تفرغ كما هو الشأن في الإسكندرية التي تستقبل البضائع من وراء البحار ومن مصر نفسها. ولكن (عدن) وقبل وقت قصير من زماننا هذا كان قيصر الروم قد دمرها) - سيأتي الحديث عنه لاحقًا.

(1) (Diodoros) هي جزيرة ميون حاليًّا، ويشير صاحب الطواف إلى أنها تقع بين الساحلين (والملاحظ أن صاحب الطواف لم يذكر من جزر جنوب البحر الأحمر إلا جزيرتي جبل الطير وميون، ولم يذكر من الجزر الحبشية -الإرتيرية إلا جزر دهلك).

(2) عقيل، okelisأو oselis وهو (الشيخ سعيد)، وهو ليس بميناء وإنما هو مرسى أو موقف للسفن الصغيرة (وهذه كثيرة في سواحل البحر الأحمر)، بل يبدو أن هذا الموقف كان محل استراحة للتجار الهنود أو غيرهم قبل توجههم إلى موزع.

يصف صاحب الطواف موقعًا شرق باب المندب في خليج عدن صالحًا كميناء، ومرسى لسفن (انظر الخريطة في الملاحق)، توفر فيها المياه العذبة، وينعزل عن البر، فهو أمام جزيرة أو شبة جزيرة (وبعد أوكليس (الشيخ سعيد) ينفرج البحر للمتَّجه نحو الشرق، وعلى بعد1200 استياديا توجد العربية اليوديمونية (Eudaemon Arabia)[1]، أي العربية السعيدة[2].

وهذا وصف أقرب انطباعًا على عدن من عدة مواقع في الساحل اليمني لخليج عدن. وأطلق عليها ما أصبح يطلق على ممالك اليمن القديم جميعها (العربية السعيدة)، إذ لم يسبق قبل عهده أن عرف هذا الاسم، وتعليل صاحب الطواف لهذا الاسم أن السفن في مصر تلتقي بسفن الهند في هذا الموضع، فلم تكن تجرؤ على الإبحار أبعد منه، فيلتقي فيها تجار الشرق والغرب، وتنشط الحركة التجارية، فهو وصف بالازدهار والرخاء والخير: صفة للبلاد السعيدة (عدن)[3].

وهي التي ذكرت في إصحاحات العهد القديم (التوراة) مع التجار الذين يتاجرون بأنواع السلع كميناء أو مركز تجاري ومعها الميناء الرئيس لمملكة حضرموت (كنة) أي قنا – بئر علي حاليًّا. وورد في الإصحاح ما يلي: "تجار سبأ ورعمة هم تجارك، بأفخر كل أنواع الطيب وبكل حجر كريم والذهب، أقاموا أسواقك، حران وكنة وعدن، تجار سبأ وآشور وكلمد تجارك، هؤلاء تجارك بنفائس، بأردية اسما نجونية ومطرزة، وأصوفة مبرم معكومة بالحبال مصنوعة الأرز بين بضائعك»[4].

(1) The periplus..ch26,pp.31-32

(2) العربية السعيدة (Arabia Felix)، وهذه التسمية أطلقها المؤرخون الجغرافيون والكلاسيكيون (اليونان والرومان) على الممالك العربية الجنوبية (اليمن القديم)؛ نظرًا لثرائها التجاري الكبير (تجارة البخور)، أيضًا ينطبق هذا الاسم على حضرموت أرض اللبان أو البخور إنتاجًا وتصديرًا. انظر: باوزير، كراسات...، ص91وما بعدها.

(3) جواد علي، المرجع السابق، ج 7.ص273-274؛ محيرز، عبدالله أحمد: العقبة، مؤسسة 14أكتوبر للطباعة والنشر، ص22. ص22؛ الحبيشي: المرجع السابق ص58؛ مصطفى العبادي، المرجع السابق (تاريخ سواحل مصر الشمالية عبر العصور)، ص62-63.

(4) التوراة، سفر حزقيال، إصحاح 27، فقرة 22-24، العهد القديم، دار الكتاب المقدس، القاهرة، ط5، 2006، ص 612.

وإذا صحت نسبة عدن إلى عدن حزقيال (ويعتقد أنه كُتب منذ ستة قرون قبل الميلاد)، فإن هذا يضع عدن في مصاف حواجز العالم القديمة، كموقع وميناء تجاري بلغ أهمية معينة قبل أكثر من ألفين وخمسمائة عام على الأقل. إلا أن بعض المصادر تبدي شكوكًا حول نسبة عدن الحالية إلى عدن حزقيال، وأن ما قصد بها في الواقع هي (عدن)[1]، وزعموا أنها حوض الفرات، وأن (سبأ) مستوطنة سبأ في شمال الجزيرة العربية[2].

إذن فالأماكن الساحلية المجاورة لعدن كلها مزدحمة بأصحاب السفن والملاحين العرب وغيرهم، وفي شغل شاغل بشؤون التجارة، فهم يتاجرون مع الساحل البعيد إرتيريا والصومال ومع بريجازا ويبعثون بسفنهم إليها، أما المرسى التالي فهو أو كليس عمد مضيق باب المندب كمحطة لتزويد السفن بالماء الحقيقي الوحيد في شبة الجزيرة العربية، بل عدن في العصور القديمة هي السوق الذي تتبادل فيه السلع الهندية والمصرية[3].

---

(1) عدن: جاء في الأساطير العربية عن الفردوس (جنات عدن)، جاء في سفر التكوين ((وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقًا.. وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة)) (الإصحاح الثاني، فقرة10،8). ومثل ذلك في (الإصحاح الثاني فقرة15)، وفي سفر التكوين أيضًا: ((جنة عدن في هذه الأماكن الأسطورية تحدد دومًا مواقع أنهار وأشجار وأزهار أو أثمار عجيبة)). (سفر التكوين، إصحاح 8،فقرة2)، وظروف تلك الحقبة في هذه الأماكن كانت مواتية لنمو أشجار البخور كالمر واللبان والصبر وغيرها التي تقطع أحيانًا. وهذه الأماكن وصفت ونعتت في النصوص الإغريقية بالعربية السعيدة. انظر: العواضي والأدهم، المرجع السابق، ص 58-70 ؛ باوزير، محمد بن هاوي، عدن في المصادر النقشية والمدونات التاريخية القديمة ص34-36، في كتاب (دور عدن البحري عبر التاريخ)، ط1، مركز عدن للدراسات والبحوث التاريخية والنشر، عدن 2018م (ص 15-37).

(2) محيرز، المرجع السابق، ص21؛ راجع:

.Aden under the British Rule(1839-1967) London. 1975.p.355،R.J.Gavin

(3) حوراني، المرجع السابق، ص82.

وامتدادًا بل اعتمادًا على ذلك النص المعروف البالغ الأهمية (كتاب الطواف حول البحر الإرتيري) جاءت إشارات كلوديوس بطليموس باسم (Arabia Emporion) أي فرضة بلاد العرب، وقد كان مركزًا لتبادل السلع الإفريقية والهندية والمصرية، ومكانًا تبحر منه السفن إلى الهند، كما تلتجئ إليه السفن الواردة من تلك البلاد[1]. ونجد عند جواد علي تسمية أخرى للرومان، فهي فرضة الرومان، وذلك بعد استيلائهم على هذا الموقع المميز ليصبح مركزًا تجاريًّا رومانيًّا لتبادل السلع الإفريقية والهندية والمصرية[2].

وبالرغم من أن ما ورد في أعمال بطليموس ومن قبلة صاحب لم يذكر عدن بالاسم (عدن) بل تحدثوا عن هذا الموقع دون ذكر اسمه واكتفوا بالإشارة (العربية السعيدة) أو (فرضة بلاد العرب) أو (فرضة العرب). ويبدو أن الكثير من أجيال الجغرافيين والرحَّالة قد اعتمدوا على أعمال صاحب الطواف، وأعمال بطليموس وغيرهم من الكلاسيكيين لفترة زمنية طويلة، من القرن 3م(من العصر الرومان) حتى عصر النهضة الأوربية في القرن 15م حين غيرت الاستكشافات خارطة العالم الذي سيطرت عليه معطيات صاحب الطواف وبطليموس، ومنهم الجغرافيون والملاحون العرب وغير العرب، كابن بطوطة (1378-304م)، وهم من أعظم الرحالة المسلمين، وجاءت كل مشاهداته ورواياته بما فيها ذكره لعدن وأهمية موقعها، في كتابه (تحفة النظار في غرائب الأمطار وعجائب الأسفار)[3]. والمقدسي الذي تحدث عن أهم مرافئ وموانئ المسلمين الملاحية وملامحها الحضارية، فبينما كانت عدن تمثل المركز التجاري الكبير بين إفريقيا وبلاد العرب، علاوة

(1) جواد علي، المرجع السابق، ج7، ص273-274.

(2) جواد علي، المرجع نفسه، ج 2، ص62.

(3) فهيم، حسين محمد، أدب الرحلات، كتاب عالم المعرفة، العدد (138)، الكويت يونيو 1989م، ص27-29.

على كونها نقطة ارتكاز للتجارة بين مصر وجنوب شرق آسيا، لذلك أطلق المقدسي على ميناء عدن عبارة (دهليز الصين)[1].

أما البندقي ماركو بولو (1254-1324م)[2] فقد أطلق اسم عدن على هذا الثغر وعلى القطر كله (اليمن) بمملكة عدن وسلطانها سلطان عدن[3]. وهكذا يبدو أن الكثير من المؤرخين والجغرافيين والرحالة القدامى والمحدثين قد استشهدوا واستمدوا الكثير من مادتهم وبعض المعلومات النافعة عن التجارة البحرية بين الشرق والغرب، والإشارات المفيدة عن البحر الأحمر والبحر العربي وسواحله ومرافئه وموانيه العربية وخاصة عدن، وكذا السواحل الإفريقية والهندية والمصرية، أي استمدوا معلوماتهم النافعة من بعض الكتابات الكلاسيكية ومنها كتاب صاحب (الطواف حول البحر الإرتيري)، وكتابات اجاثارخيدس واسترابون وبليني وكلوديوس بطليموس وغيرهم[4].

27 - (وتمتد السواحل المتعاقبة وأحد الخلجان بعد عدن لمسافة 2000ستيد أو أكثر، ويعيش في تلك الشطآن أناس رُحَّل و(اخثوفاجوا)، يعيشون في قرى على امتداد الساحل، وبعدها توجد أرض تدعى (قنا) Kane [5] تنتمي لمملكة (اليزوس) Eleazos، بلاد البخور[6]، وليس بالبعيد عنها تقع جزيرتان: إحداهما تدعى (جزيرة

---

(1) فهيم، حسين، المرجع نفسه، ص 225-228.

(2) للاطلاع على رحلات البندقي ماركو بولو ينظر: حسين فهيم، المرجع السابق، ص24-26.

(3) محيرز، المرجع السابق، ص23، نقله عن:
Marco BOLO ،The Travels Penguin Book London ،.P. 308.1978

(4) حوراني، المرجع السابق، ص55.

(5) قنا: الميناء الرئيس لمملكة حضرموت - حصن الغراب (بئر علي) حاليًّا، ورد ذكر قنا في سفر حزقيال إصحاح 27، فقرة 24، وفي المصادر الكلاسيكية، كما ورد ذكرها في العديد من نقوش المسند.

(6) أليزوس وبلاد البخور: أليزوس هو (إل عزيلط) ملك حضرموت، أما عن بلاد البخور فتعتبر مملكة حضرموت القديمة وخاصة إقليم ظفار التابع أنداك لها من أغنى وأهم المناطق المنتجة

الطيور)، والأخرى تدعى (تراولاس)Troullas [1]، وتبعد حوالي 120ستيد من قنا. وشمال تلك الأراضي تقع عاصمة (سوباتا)Soubatha[2]، حيث يقيم ملك البلاد. وجميع البخور من أراضي المملكة يجمع هنا ويؤتى به على ظهور الجمال أو عن طريق القرب الجلدية المنفوخة وبالقوارب. ويتم تبادل البضائع مع بلدان بار وجازا وسكرتيا وعمان في الطرف الآخر للأراضي، وكذا مع أقاليم أرض فارس المجاورة). وهذا يؤكد العلاقات الحضارية والتجارية بين مملكة حضرموت القديمة والهند وفارس وغيرها من بلدان العالم القديم[3].

نكتفي بما تقدم من فقرات، أما الفقرات من (30-28) فتتناول الحديث عن سواحل العربية الجنوبية الأخرى المتعاقبة بعد عدن، ولا مجال للحديث عنها رغم ارتباطها بعدن من حيث النشاط الملاحي والتجاري، لأنها خارج نطاق محاور بحثنا هذا[4].

وقبيل الختام نعود إلى كلام (بريبلوس) صاحب الطواف أن العربية السعيدة (يقصد بها ميناء وسوق عدن) كانت فيما مضى مدينة مزدهرة، حينها لم تكن السفن من الهند تذهب إلى مصر، ولا كانت سفن مصر تجرؤ على الإبحار إلى بلاد ما وراءها، ولكن

والمصدرة للبخور لجميع أنحاء العالم القديم، ينظر: (شبوة عاصمة حضرموت القديمة - نتائج أعمال البعثة الأثرية الفرنسية اليمنية) إعداد: عزة علي عقيل وجان بريتون، المركز الفرنسي، ط1، 1996م، ص173-174.

(1) جزيرة الطيور (Orneon) والأخرى جزيرة القبة (تراولاس) انظر: الشيبة، المرجع السابق، ص79.

(2) سوباتا: شبوة العاصمة الملكية لمملكة حضرموت القديمة، ورد ذكرها في المصادر الكلاسيكية في العديد من النقوش المسندية الجنوبية، وفي شبوة يقيم الملك وهنا يخزن كل منتوج البخور ومن ثم ينقل إلى ميناء قنا، وفيها التبادل التجاري مع أسواق الشط البعيد.

(3) حول علاقات مملكة حضرموت القديمة بحضارات العالم القديم، ينظر: باوزير: كراسات مرجع سابق، ص125-135.

(4) للاطلاع على معلومات تلك الفقرات (28-30) ينظر: الشيبة، المرجع السابق، ص80-81؛ وحسن الحبشي، المرجع السابق، ص60-61؛ قارن مع كتاب الطواف، فقرات 28-30، ص33-34.

تصل إلى هذا الميناء فقط، أو أي محاولة تقوم بها سفن الإسكندرية أو غيرها للإبحار وراء ميناء العربية السعيدة كانت تواجه بمقاومة شديدة[1].

ويبدو من كلام (بربيلوس) أن عدن تعرضت لانتكاسة في عهد الملك الحميري (كرب إل) وجعل من (موزا) أو موزع الميناء الرئيس للدولة الحميرية، أما سبب إهمال ميناء عدن فيبدو أنه نتيجة للقلاقل والصراعات الداخلية، مما جعل من الصعب – كما يبدو – على الحاكم الحميري في ظفار أن يفرض سيطرته على القبائل المتمردة في الجنوب، وتأمين طرق القوافل إلى عدن، لذلك عمدت حكومة ظفار على تشجيع ميناء موزا وإهمال ميناء عدن وازدهار ميناء موزا، وتحوَّلت عدن – كما ذكر البريبلوس – إلى مجرد قرية على الساحل[2].

ويقال أيضًا إن المصالح الاقتصادية الرومانية التي ساندت وأعانت التجارة البطلمية الشرقية تقيم اتصالًا مباشرًا مع الهند عن طريق تجنب العربية السعيدة وتجاوز موانئها وخاصة عدن، واستمر توجه سياسة القيصر الروماني أغسطس (اكتافيوس) الخارجية من ذلك الإقليم، فلم يمضِ على ضم مصر إلى روما (30 ق.م) أربع سنوات، وحتى وجدنا أغسطس في عام 25–24 ق.م يكلف واليه على مصر ايليوس جالوس بغزو جنوب الجزيرة العربية، ولكن هذه الحملة التي وصلت حتى أسوار الحاضرة السبئية مأرب لم يتحقق هدفها، ولم تقض تمامًا على نشاط التجاري للموانئ العربية المطلة على المحيط[3].

(1) العبادي، المرجع السابق، ص56–57.

(2) شهاب، حسن صالح، من الملاحة عند العرب، ط1، دار العودة، بيروت، 1982م، ص42–43؛ قارن مع البريبلوس:
The Perip lus..، p12

(3) لمزيد من المعلومات عن الحملة الرومانية، راجع محمد بن هاوي باوزير، الحملة الرومانية العربية الجنوبية بين المصادر الكلاسيكية والجدل التاريخي، ص243–244.

لذلك لم يقتنع أغسطس بل قرر بعد ذلك في العام الأول الميلادي شن هجوم مدمر عن طريق البحر، أدى إلى تدمير الميناء الرئيس للعربية السعيدة (عدن)، وشل نشاطها التجاري، حتى أصبحت (مجرد قرية بعد أن كانت مدينة كبرى) حسب تعبير البريبلوس - كتاب الطواف[1].

وبعد أن قُضي نهائيًّا على أي دور فعال لميناء العربية السعيدة استأثر ملاحو الإسكندرية في العصر الروماني بتحكم مطلق في طريق التجارة البحري إلى الهند، مما عاد على الإسكندرية ورجال المال بها بالثراء الكبير[2].

وعلى هذا الأساس يبدو أن الملاحة الرومانية المباشرة بين مصر والهند ظلت مزدهرة منذ عهد أغسطس حتى مطلع القرن الثالث الميلادي، ثم أخذت بعد ذلك تتقلص نتيجة للعنف والتفكك الذي اعترى كيان الإمبراطورية الرومانية. ويبدو أن هذا العنف أعاد لموانئ العرب الجنوبية نشاطها وازدهارها تدريجيًّا وخاصة عدن، وقد عاود هذا الميناء نشاطه التجاري في القرن الرابع الميلادي، وزاد ازدهارًا، فمنذ بزوغ فجر الإسلام أصبحت الملاحة في البحر الأحمر بيد العرب وحدهم، فازدهرت عدن وأصبحت الميناء الرئيس لبلاد العرب الجنوبية (فرضة اليمن ومقر كل فضل مستحسن)[3]، بل استمر مزدهرًا حتى العصور الحديثة. ويرتبط هذا الميناء بعدد من الطرق البرية التي تصل بينه وبين عدد من المراكز التجارية الداخلية والصناعية إلى موقعها المتميز كموقع ملائم لرسو السفن[4]. وملتقى كافة السفن التجارية القادمة من الهند وعالم البحر المتوسط ومن شرق إفريقيا، ولازالت عدن تحتفظ بأهميتها إلى اليوم.

---

(1) حوراني، المرجع السابق، ص82؛ وراجع: The Periplus، ch 26،p.

(2) مصطفى العبادي، المرجع السابق، ص 62-63؛ وجواد علي، المرجع السابق، ج 7، ص276-277.

(3) شهاب، المرجع السابق، ص34؛ ونورا النعيم، المرجع السابق، ص255.

(4) نورا النعيم، مرجع سابق، ص53؛ راجع: Doe، op.cit، p.53.

وتجدر الإشارة إلى أن عدن تتعرض بين الحين والآخر لكبوات وانتكاسات، فإلى جانب ما حدث لها من انتكاسة في العصر الروماني - كما سبقت الإشارة - فقد تعرضت لانتكاسة أيام الاحتلال العثماني الأول لليمن، فقد كان الأتراك لا يسيطرون إلا على المدن والطرق الرئيسة التي تشرف عليها قلاعهم وحصونهم، أما بقية المناطق فلم يكن لهم عليها سلطان فعلي، فشجعوا ميناء المخا لقربه من صنعاء وأهملوا عدن لبعدها عن العاصمة[1].

وفي الحقبة الحديثة والمعاصرة لاسيما بعد خروج الاستعمار البريطاني من عدن في عام 1967م تعرضت عدن وميناؤها لانتكاسة وركود في نشاطها التجاري الخارجي، بل ازداد ذلك الركود- وربما بقصد أو بغير قصد - في فترة الوحدة اليمنية بين جنوب اليمن وشماله وخاصة بعد اندلاع حرب صيف 1994م وكذا حرب 2015م على الجنوب وإلى اليوم وميناء عدن في ظل نشاط تجاري محدود، أي يكاد يعاني من شلل شبة كامل.

(1) شهاب، المرجع السابق، ص42.

عدن في كتابات الرحالة والبلدانيين في العصر الإسلامي

م. نادر حسن محمد الشاوش

مدخل:

تحتل مدينة عدن موقعًا فريدًا بين مدن العالم الإسلامي، فهي تقع على ساحل البحر العربي، والقريبة من باب المندب، أي أنها حلقة الوصل بين الشرق والغرب، فأصبحت مركزًا مهمًا للتجارة والتجار عبر العصور المختلفة، فتوافد إليها التجار، وأصبحت مركز انطلاق لهم نحو الشرق والغرب، وجنى القائمون عليها أموالًا كثيرة من الضرائب المفروضة على السلع التجارية.

لذلك أصبحت محور اهتمام الرحالة والكتاب البلدانيين في العصر الإسلامي، فقاموا بوصفها، وتحديد موقعها، ووصف الساكنين بها ونشاطهم التجاري والاقتصادي، والدور الكبير الذي أدَّته عدن في عملية التبادل التجاري بين الشرق والغرب.

ويلخص دورنا هنا في جمع تلك المعلومات المهمة وترتيبها، وتوضيح الدور الذي أدَّته عدن في العصر الإسلامي من خلال كتابات الرحالة والبلدانيين، وسيكون حديثنا في ثلاثة محاور هي: التسمية والموقع، والجانب الاجتماعي، والجانب الاقتصادي.

1 - التسمية والموقع:

تباينت كتابات الرحالة والبلدانيين في تحديد التسمية والموقع لمدينة عدن وسواحلها، فتارة تطلق عليها مرسى بلاد اليمن وأخرى مدينة عدن أبين، وكلها تصب في تحديد موقع مدينة عدن وتسميتها، وهناك أسباب تبين أوجه ذلك الاختلاف من خلال الكتابات التي وردت في مؤلفاتهم، فقد وصفها الهمداني[1]، بأنها جنوبية تهامية، وهي أقدم أسواق العرب.

---

(1) أبو محمد الحسن بن أحمد: صفة جزيرة العرب، مطبعة برلين، ليدن، 1884م، ص190.

وذكرها المنجم[1] بأنها من ضمن مناطق الإقليم الأول[2]. وتقع على ساحل البحر الأعظم، وأن لها صيفين وشتاءين، وهي شديدة الحر.

بينما يذكر الرحالة ابن بطوطة [3] «أن عدن مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الأعظم، والجبال تحف بها، ولا مدخل إليها إلا من جانب واحد، وهي مدينة كبيرة». ويخالفه الإدريسي[4] بقوله: «إنها مدينة صغيرة».

ويوضح ذلك الهمداني[5] في قوله: «باب عدن من عجائب الدنيا، وهو شصر مقطوع في جبل كان محيطًا بموضع عدن من الساحل فلم يكن لها طريق إلى البر إلا للرجل لمن ركب ظهر الجبل فقطع في الجبل، باب مبلغ عرض الجبل حتى سلكه الدواب والجمال والمحامل».

ويصفها أحد كتب البلدانيين لمؤلف مجهول[6] بأنها مدينة على ساحل البحر، متصلة بحدود الحبشة، يرتفع منها اللؤلؤ بكثرة.

---

(1) إسحاق بن الحسين المنجم: آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، ط1، عالم الكتاب، بيروت، 1408هـ، ص47-48.

(2) كانت الجزيرة العربية مقسمة على أربعة أقاليم هي: اليمن، والحجاز، ونجد، والغور (تهامة). الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد: المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، 2004 م، ص30. إذ يذكر السمهودي في تحديد جزيرة العرب: بأنها من العذيب إلى عدن أبين في الطول، والعرض من الأيلة إلى جدة. أبو الحسن علي بن عبدالله بن أحمد الحسني الشافعي: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ط1، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ، ص49.

(3) محمد بن عبد الله بن محمد: رحلة ابن بطوطة، ط1، ج2، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1417هـ،110-113.

(4) محمد بن محمد بن عبدالله: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط1، ج1، عالم الكتاب، بيروت، 1409هـ، ص54.

(5) صفة جزيرة العرب، ص190.

(6) حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تر: يوسف الهادي، دار الثقافة، القاهرة، 1423هـ، ص172.

بينما يذكر الإدريسي [1] «...أن مدينة عدن يحيط بها البحر من جهة شمالها، وعلى بعد منها جبل دائر من البحر إلى البحر، وقد نقب من طرفيه نقبان كالبابين يدخل منهما ويخرج عليهما...وليس لأهل عدن دخول ولا خروج إلا على هذين النقبين أو من البحر...».

وقد ورد ذكر اسم عدن أيضًا عند الحميري[2] بأنها ساحل صنعاء. ويصفها ابن الفقي[3] بعدن أبين أو أبين عدن. ويبين المقدسي[4] أحد أسباب هذا الاختلاف بأن أبين أقدم من عدن، وإليها تنسب عدن؛ لأن بُرّهم وفواكههم وخضرهم منها؛ لكثرة القرى والمزارع بها. بينما يذكر الحموي[5] أن سبب ذلك أن أبين وعدن مخلاف واحد؛ لذلك أضيفت إليها، أو أن عدن كانت من مخلاف أبين. بينما يذكر الزمخشري[6] بأن عدن أبين تنسب إلى رجل اسمه أبين [7] من حمير أقام بها ويقال عدن يَبين.

---

(1) نزهة المشتاق، ج1، ص54.

(2) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، ط2، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، 1980م، ص408.

(3) أبو عبد الله أحمد بن محمد: البلدان، تح: يوسف الهادي، ط1، عالم الكتاب، بيروت، 1996م، ص176.

(4) أبو عبد الله محمد بن أحمد: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تح: غازي ظليمات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1980م، ص85.

(5) أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي: معجم البلدان، ط2، ج4، دار صادر، بيروت، 1995م، ص89.

(6) أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد: الجبال والأمكنه والمياه، تح: أحمد عبد التواب، دار الفضيلة، القاهرة، 1999م، ص237.

(7) هو أبين بن زهير بن أيمن بن الهيسع بن حمير بن سبإ. ابن السائب، أبو المنذر هشام بن محمد الكلبي: نسب معد واليمن الكبير، تح: ناجي حسين، ط1، ج2، مكتبة النهضة العربية، 1998م، ص535؛ الحازمي، أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان: الأماكن أو ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنه، تح: حمد بن محمد الجاسر، دار اليمامة، السعودية، 1415هـ، ص36. وهناك قول آخر إذ يذكر أنها سميت بعدن بن سنان بن إبراهيم عليه السلام. القزويني، زكريا بن محمد بن محمود: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، 1990م، ص101.

وفي إطار التسمية ذكر ابن خرداذبه[1]،مخلاف عدن أبين مغاض اللؤلؤ.

خلاصة القول: نستطيع القول إنه على الرغم من تباين التعريفات والتسميات، فإن وصف الرحالة والبلدانيين لمدينة عدن وموقعها، كان في إطار اهتمامهم بالمدن الإسلامية المشهورة، ومن ضمنها مدينة عدن، التي كان لها النصيب الأوفر من ذلك الاهتمام، في تحديد مكانها، وإبراز أهميتها على غيرها من المدن الأخرى، بالإضافة إلى معرفة الاسم الحقيقي التي نسبت إليه هذه المدينة.

2 - الجانب الاجتماعي:

لم يحظَ الجانب الاجتماعي في مدينة عدن إلا باليسير من الاهتمام من كتابات الرحالة والبلدانيين في العصر الإسلامي، لا نعرف السبب في ذلك، وإنما نرجع ذلك إلى توجه الكتابات آنذاك بشكل عام، إلى الجانب السياسي، وترك الجانب الحضاري بشكل خاص.

وعلى الرغم من ذلك فقد وجدت بعض الإشارات في تلك الكتابات عن الحياة الاجتماعية في عدن في العصر الإسلامي، منها كتابات بعض البلدانيين[2] تبين أنَّ «عدن قبيل ظهور الإسلام كان يسكنها قوم من الشُّراة، وظهرت فيها دعوة الإسلام، ثم كثر بها الشُّراة، فعدوا على من بها من المسلمين وقتلوهم غير عشرة أناس، وبها مسجد بموضع يقال له (السوق)».

ويذكر المقدسي[3] خلاف ما ذكر سابقًا «بأن عدن بلد جليل عامر وآهل... وأن أكثر أهلها فرس إلا أن اللغة عربية، وأهل عدن يقولون لرجليه رجلينه، وليديه يدينه، ويجعلون الجيم كافًا، فيقولون لرجب ركب، ولرجل ركل». بينما يصف المنجم[4]

(1) أبو القاسم عبيد الله بن عبيد الله: المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، 1889م، ص192.
(2) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص53؛ الحموى: معجم البلدان، ج4، ص227.
(3) أحسن التقاسيم، ص96.
(4) آكام المرجان، ص47.

أهل عدن بأنهم يشبهون العرب. وربما قصد المقدسي والمنجم بوصفهما لسكان عدن بأنهم أشبه بفرس أو أشبه بالعرب، نتيجة لوجود كثير من الأجناس من مختلف العالم المعمور آنذاك، المشتغلين بالتجارة، لاسيما وأن سوق التجارة في عدن، كانت مزدهرة في القرن الرابع الهجري، يأتي إليها التجار من المشرق والمغرب.

ويضيف المقدسي[1] في وصفه لبعض عادات أهل عدن بأنهم يزينون السطوح قبل رمضان بيومين، ويضربون عليها الدبادب، فإذا دخل رمضان اجتمعوا فرقًا، يدورون يقرؤون القصائد إلى آخر الليل، فإذا قرب العيد جبوا الناس ويتخذون من النيروز[2] قبابًا يدورون بها على المباشرين، ومعهم الطبول فيجمعون مالًا كثيرًا.

وفي وصف أهل عدن أيضًا ما ذكره ابن حوقل[3] «بأن أهل عدن أهل سلم وليست دارهم بدار حرب». وهي حقيقة واضحة؛ لأن القادمين إلى مدينة عدن أو الساكنين بها، سواءً من الداخل أم الخارج كان هدفهم الرئيس هو العمل في التجارة، وزيادة الأرباح.

بينما يذكر الرحالة ابن بطوطة [4] الذي زار عدن سنة 740هـ، «أن عدن مدينة كبيرة ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء، وبها صهريج يجتمع فيها الماء أيام المطر، والماء على بعد منها، وهي شديدة الحرارة... وتجار الهند ومصر ساكنون بها... وأن أهل عدن

(1) أحسن التقاسيم، ص100.

(2) النيروز الشهر الثالث من شهور الربيع. البعلي، أبو عبد الله محمد بن أبي الفتح بن أبي الفضل: المطلع على الألفاظ المقنع، تح: محمود الأرناؤوط، وياسين محمود الخطيب، ط1، مكتبة السوادي، 2003م، ص192، والنيروز هو أول السنة عند الفرس عند نزول الشمس أو الحمل. الأحمد نكرى، عبد النبي عبد الرسول: دستور العلماء، تر: حسن هاني، ط1، ج3، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ص295.

(3) أبو القاسم، محمد بن حوقل الموصلي: صورة الأرض، ج1، دار صادر، بيروت، 1938م، ص56.

(4) رحلة ابن بطوطة، ص110-113، 193.

ما بين تجّار[1] وحمالين وصيادين للسمك، وللتجار منهم أموال عريضة، لهم في ذلك تفاخر ومباهاه[2]... وأن أهل عدن أهل دين وتواضع وصلاح ومكارم وأخلاق، يحسنون إلى الغريب، ويؤثرون على الفقير، ويعطون حق الله من الزكاة على ما يجب».

وهذا يتناسق مع وصف الحموي وابن شمائل [3] لمدينة عدن بقولهم «...بأنها ردئة لا ماء بها ولا مرعى وشربهم من عين بينها وبين عدن مسيرة نحو اليوم، وهو مع ذلك رديء...».

وخلاصة القول: من خلال الجمع والاقتباس في أثناء عملية البحث في كتب الرحالة والبلدانيين عن الجانب الاجتماعي في مدينة عدن في العصر الإسلامي، تبين لنا أن كتاباتهم أجمعت بأن أهل مدينة عدن أو المقيمين بها، أهل تجارة وسلم، ليس لهم في الحروب أو النزعات الطائفية، كل همهم هو العمل والتجارة.

أما بالنسبة عن وصف سكانها بأنهم فرس أو عناصر غير عربية عند بعض الرحالة، فهذا دليل على أن عدن كانت تجمع كل الفئات والأجناس، كونها حلقة الوصل بين الشرق والغرب، وإليها يتوافد التجار والبضائع المختلفة، ومنها يكون الانطلاق.

---

(1) وهذا يتوافق مع ما ذكره المؤرخ الأندلسي ابن عذاري بقوله: إنه قدم إلى الأندلس في عهد المنصور بن أبي عامر (366-392هـ) تاجرًا جوهريًا، من مدينة عدن اليمنية، ولديه جوهر كثير، وأحجار نفيسة، فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنه، ودفع إلى الجوهري التاجر صرته، وكانت قطعة يمانية. أبو عبد الله محمد المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج. س. كولان، وليفي بروفنسال، ط3، ج2، دار الثقافة، بيروت، 1983م، ص291.

(2) ومن هذا التفاخر والمباهاه، ما ذكره ابن بطوطة في أثناء وجوده في عدن بقوله: ذكر لي أن بعضهم بعث غلامًا ليبتاع له كبشًا، وبعث آخر غلامًا لرسم ذلك أيضًا، فاتفق أنه لم يكن في السوق ذلك اليوم إلا كبش واحد، فوقعت المزايدة بين الغلامين، فأنهيا ثمنه إلى أربعمائة دينار. فأخذه أحدهم وقال: إن رأس مالي أربعمائة دينار؛ فإن أعطاني مولاي ثمنه فحسن؛ وإلا دفعت رأس مالي ونصرت نفسي وغلبت صاحبي، وذهب بالكبش إلى سيده، فلما علم بالقضية؛ أعطاه ألف دينار، وعاد الآخر خائبًا؛ فضربه وأخذ ماله ونفاه. رحلة ابن بطوطة، ج1، ص190.

(3) معجم البلدان، ج4، ص89؛ عبد المؤمن بن عبد الحق القطيعي: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط1، ج2، دار الجيل، بيروت، 1412هـ، ص923.

3 - **الجانب الاقتصادي:**

تُعد مدينة عدن من أهم أسواق العرب القديمة[1]، وزادت شهرتها بعد ظهور الإسلام كونها أهم المراكز التجارية في اليمن؛ وذلك لما تحتله من موقع استراتيجي مهم، فهي تمثل حلقة الوصل بين الشرق والغرب، وللدور الذي قامت به خلال العصور السابقة في عملية التجارة، حيث كانت ترسو في مينائها السفن المحملة بالبضائع الآسيوية والأوربية، فهي نقطة ارتكاز للتجارة بين كل من الصين والهند ومصر. ووصفها ابن بطوطة[2] بأنها مرسى الهند. ويقول المقدسي[3] فيها: « إذا دخلت عدن فسمعت أن رجلًا دخل بألف درهم رجع بألف دينار، وآخر بمائة فرجع بخمسمائة». ويؤكد الإدريسي[4] ذلك بأنها بلد تجارية.

فقد كانت مدينة عدن من أهم المرافئ الإسلامية في القرن الأول والثاني الهجريين، ووجد فيها العديد من السلع والبضائع القادمة من المشرق والمغرب؛ إذ يذكر ابن خرداذبه[5] بأن بها العنبر والمسك، ومتاع السند والهند، والصين، والزنج، والحبشة، وفارس، والبصرة، وجدة.

أما فيما يخص أوقات الأسواق التجارية في عدن، فنجد البغدادي[6] يتطرق في كتاباته عن عدن إلى تحديد موعد تسويق البضائع بقوله: «بأن أسواق عدن كانت تقام أول يوم من شهر رمضان إلى عشر يمضين منه، وكانوا لا يتحفرون هناك بأحد،

---

(1) أسواق العرب القديمة هي: عدن، ومكة، والجند، ونجران، وذو المجاز، وعكاظ، وبدر، ومجنة، وحجر اليمامة، وهجر البحرين. الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص179-180.

(2) رحلة ابن بطوطة، ج2، ص188.

(3) أحسن التقاسيم، ص109.

(4) نزهة المشتاق، ج1، ص54.

(5) المسالك والممالك، ص61.

(6) محمد بن حبيب بن أمية: المحبر، تح: إيلزة ليختن شينتر، دار الآفاق الجديد، بيروت، 1990م، ص266.

لأنها أرض مملكة وأمر حكم. وكان الأبناء[1] تعشّرهم بها (أي تأخذ العشر منهم)، ولا تشتري من أسواقهم ولا تبيع».

ونتيجة لما اشتهرت به سواحل عدن من استخراج العنبر، وذاع صيتها في الأمصار الإسلامية، وجهت الخلافة العباسية بشخص الخليفة هارون الرشيد[2](170-190هـ)، عنايته بهذا الأمر، وأرسل إلى حماد البربري[3] يأمره بالبحث عن ذلك، فكتب له بأن جماعة من عدن أبين أعلموه أن العنبر يخرج من عيون في أرض البحر ثم تقلعه الرياح بالأمواج، فيطفو على الماء، وترميه الريح على البر[4].

أما فيما يخص أنواع السلع التي يجلبها التجار، فكانت توجد في مدينة عدن، يتبين ذلك فيما ذكر في كتب البلدانيين[5] بقولهم: «مدينة عدن مدينة صغيرة، وإنما شهر ذكرها؛ لأنها

(1) هم أبناء الفرس الذين فتحوا اليمن بقيادة وهرز، وطردوا الأحباش منها. البغدادي: المحبر، ص266.

(2) هو هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، أبو جعفر خامس خلفاء بني العباس. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، ط1، ج5، دار صادر بيروت، 1990م، ص210؛ صلاح الدين، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر: فوات الوفيات، تح: إحسان عباس، ط4، ج4، دار صادر، بيروت، 1973م، ص74.

(3) إذ يذكر بأنه كان نائب الخليفة الرشيد في اليمن، تولى سنة 184هـ، واستمر خلال عهد الرشيد حتى سنة 193هـ. الجندي، أبو عبدالله محمد بن يوسف بن يعقوب: السلوك في طبقات العلماء والملوك، ط2، ج1، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1995م، ص152؛ يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تح: سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب العربية، القاهرة، 1388هـ / 1968م،ص26؛ الذهبي، أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: بشار عواد معروف، ط1، ج4، دار الغرب الإسلامي، 2003م، ص781.

(4) السيرافي، أبو زيد حسن بن يزيد: رحلة السيرافي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1999م، ص111؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص66؛ البكري: المسالك والممالك، ص214.

(5) اليعقوبي، أبو يعقوب أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب: البلدان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ، ص211؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص54؛ الحموي: الروض المعطار، ج1، ص408.

مرسى البحرين، ومنها تسافر مراكب السند، والهند، والصين، وإليها يجلب متاع الصين مثل: الحديد، والمسك، والعود، والسروج[1]، والفلفل، والقاقلي[2]، والزمرد المكي[3]، والثياب بمختلف أنواعها المتخذة من الحشيش الذي يفخر على الحرير والديباج والقصدير، والرصاص واللؤلؤ والحجار المثمنة والزباد والعنبر الزنجي[4] والقاقلي، وأكثر السلع التي تبحر بها إلى سائر البلاد. وكذلك الزعفران، والعاج، واليواقيت، والآبنوس[5]، والخيزران[6]، والصبر، الأدم[7]، والعقيق، والغضار[8]، والصندل[9]،

(١) السروج: تستخدم في شد الأبل في أثناء الرحال، والخيل في أثناء الغزو، وتتأخر عن ظهورها فيجعل لها ذلك السناف لتثبت به السروج. ابن منظور: لسان العرب، ج7،ص273؛ ج9، ص162. ويسمى صانع السروج: سروجي. آن دوزي، رينهارت بيتر: تكملة المعاجم العربية، تر: جمال الخياط، ط1، ج6، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، 2000م، ص58.

(2) نبات هندي عطري الرائحة يعرف بالهال. ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ج2، ص460، ح1.

(3) سمي بالمكي، لأنه كان يُجلب من الهند إلى عدن، فيؤتى به إلى مكة فعرف بهذا الاسم. الحميري: الروض المعطار، ص485.

(4) إذ يذكر أنه عنبر أبيض. اليعقوبي: البلدان، ص211.

(5) الآبنوس: شجر ينبت، خشبه أسود صلب، ويصنع منه بعض الأواني والأثاث. الزبيدي، أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني: تاج العروس من جواهر القاموس، تح: مجموعة من المحققين، ج17، دار الهداية، د.ن، ص398.

(6) الخيزارن: هي كل عود لين وجنس نباتات من الفصيلة النجيلية لين القضبان أملس العيدان. ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي: لسان العرب، ط3، ج5، دار صادر، بيروت، 1414هـ، ج4، ص237.

(7) الأدم من الجلود، وهو جمع أديم، وأديم كل شيء ظاهر جلده. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص126.

(8) الغضار: خزف أخضر يعلق على الإنسان يقيه العين. الهروي، أبو منصور محمد بن أحمد: تهذيب اللغة، تح: محمد عوض مرعب، ط1، ج8، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2001م، ص51؛ ابن منظور: لسان العرب،ج5، ص23.

(9) الصندل: شجر طيبُ الرائحة. الحنفي، أبو عبد الله زين الدين محمد بن أبي بكر الرازي: مختار الصحاح، تح: يوسف الشيخ محمد، ط5، المكتبة العصرية، بيروت، 1999م، ص179.

والبلّور[1]، والدرق[2]، وجلود النمور وغيرها[3]. كل هذه المنتجات موجودة في مدينة عدن التجارية، تجلب إليها من مختلف مناطق العالم المعمور آنذاك.

وهذا يتوافق مع وصف المقدسي[4] لمدينة عدن بقوله: «عدن دهليز الصين وفرضة اليمن، وخزانة المغرب، ومعدن التجارات، كثيرة القصور، مبارك على من دخله، مُثرٍ لمن سكنه، مساجد حِسان، ومعايش واسعة، وأخلاق طاهرة، ونعم ظاهرة وبارك النبي ﷺ في سوق منى وعدن».

وبالمقابل كانت هناك كثير من المنتجات التي تأتي إلى عدن من الداخل اليمني، من صنعاء وزبيد، وصعدة، وأبين وغيرها من المناطق من أجل تسويقها، واستبدالها بأخرى؛ إذ يذكر أن زبيدًا وغيرها من مدن الساحل التي كانت تمتلأ بخزائن الذرة، كانت تحمل منها الذرة إلى عدن من أجل بيعها[5]، وكذلك العنبر الذي اختصت به مدينة عدن، والورس[6] الذي اشتهرت به اليمن، والعقيق الذي اختصت به مدينة صنعاء كان يجلب إلى عدن[7].

أما فيما يخصّ الضرائب والهبات التي كانت تجنيها الجهة المسؤولة من التجار في عدن، فكانت تعود بكثير من الأموال عليهم، وإن كانت المعلومات قليلة لدى الرحالة

---

(1) البلور: حجر أبيض وشفاف، ونوع من الزجاج، وهو من الحجار المعادن. الرازي، أبو الحسين أحمد بن زكريا القزويني: مجمل اللغة لابن فارس، تح: زهير عبد المحسن، ط2، ج1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986م، ص819.

(2) الدرق: ضرب من التّراس، يُتخذ من الجلود. الأزدي، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد: جمهرة اللغة، تح: رمزي منير، ط1، ج2، دار العلم للملايين، بيروت، 1987م،ص635.

(3) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص97.

(4) المصدر السابق، ص85.

(5) المصدر نفسه، ص86.

(6) الورس: نبت أصفر يتخذ منه الغمرة للوجه. الفارابي، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، ط4، ج3، دار العلم للملايين، بيروت، 1987م، ص988.

(7) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص86، 102.

والبلدانيين عن ذلك؛ إذ يذكر ابن حوقل[1] «أنها كانت تدر الكثير من الأموال في أيام أبي الجيش إسحاق بن إبراهيم بن زياد[2]، حيث كان يصل إليه من الأموال الخاصة بجباية عدن في السنة مائتا ألف عثري، ويوجد بسواحلها العنبر، وله ضريبة فيها تصل إليه... وبسيطرته على عدن كان يحصل على موافقة صاحب جزائر دهلك[3] من الهدايا التي ترد إليه، فيها العبيد والعنبر، وجلود النمور وغيرها. وكذلك الهدايا التي تقدم عليه من ملك الحبشة».

ويذكر العمري[4] عما رواه ابن البرهان[5]، في وصف ما رآه في أثناء نزوله عدن، فقال:»...بأنها خزانة ملوك هذا الإقليم...وأن ميناء عدن مجمع الرفاق وموضع سفر الآفاق يحيط بها من الصين والهند، والسند، والعراق، وعمان، والبحرين، ومصر، والحبشة، ولا يخلو أسبوع بها من عدة تجار وسفن واردين، وبضائع شتى ومتاجر متنوعة، والمقيم بها في مكاسب وافرة وتجارة مربحة لا يبالي بالخسارة بالنسبة إلى الفائدة ولا يفكر بسوء المقام نتيجة لكثرة الأموال النامية».

ويضيف بقوله أيضًا: «بأنها أعظم مراسي اليمن، وتكاد تكون ثالثة تعز، وزبيد في الذكر. وأن أسواقها كانت تقام يوم الجمعة، وتجلب فيه الأجلاب، وترج أرباب الصناعات على اختلافها، وتقام في ذلك اليوم الأسواق ويباع ويشترى، ممن أعوزه

(1) صورة الأرض، ج1، ص24.

(2) تولى الحكم بعد وفاة أخيه زياد بن إبراهيم سنة 245هـ، وتوفى سنة 391هـ. يحيى بن الحسين: بهجة الزمن،ص32.

(3) جزيرة بين بلاد اليمن والحبشة، كان بنو أمية إذا سخطوا على أحد؛ نفوه إليها. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص208.

(4) أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ط1، ج4، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1422هـ، ص53.

(5) هو الحكيم صلاح الدين أبو عبد الله محمد بن البرهان، قدم من مصر إلى اليمن بناءً على طلب السلطان المؤيد داود(669-721هـ) أحد حكام الدولة الرسولية. العمري: مسالك الأبصار،ج4، ص53-55.

شيء في وسط الجمعة لا يكاد يجده، إلا المآكل فأنها دائمة فيها»(1).

بينما نجد الحموي (2) في تعريفه لعدن يصف الحالة الاقتصادية التي كانت تمثلها، وإلى أي حد بلغ ذلك الازدهار بقوله: «بأنها مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن...وهي مرفأ مراكب الهند، والتجار يجتمعون إليه؛ لأجل ذلك؛ لأنها بلد تجارة...».

ونظرًا للموقع الذي تحتله مدينة عدن أصبحت في القرن الثامن الهجري من أعظم المرافئ الإسلامية، لاسيما عندما تلاشى أمرقوص(3) سنة 760هـ بسبب انعدام الماء على الطريق بينها وبين عيذاب(4)، وتراجع ورود مراكب الهند واليمن إليها(5)، الأمر الذي جعلها تفد إلى عدن، ومنها تنطلق إلى المناطق الإسلامية الأخرى.

وفي المقابل وجدت في مدينة عدن بعض الصناعات المحلية، منها صناعة الجلود، التي كانت تعتمد في صناعتها على جلود البقر الملمعة، وجلود النمور، والأدم الثقيل، والتي كانت تستخدم في صناعة النعال وغيرها(6)، ومن الصناعات التي اشتهرت بها مدينة عدن في العصر الإسلامي أيضًا، صناعة الأثواب(7).

---

(1) العمري: مسالك الأبصار، ج4، ص41-42.

(2) معجم البلدان، ج4، ص89.

(3) هي قبطية، وهي مدينة كبيرة وواسعة قصبة صعيد مصر، بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يومًا، وهي محط التجار القادمين من عدن. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص413.

(4) هي مدينة على ساحل بحر جدة، وهي في صحراء لا ثبات فيها، ولا يؤكل فيها شيء إلا مجلوب. لمزيد من المعلومات ينظر ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي: رحلة ابن جبير، ط1، دار صادر، بيروت، 1998م، ص45.

(5) المقريزي، أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط1، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ، ص374.

(6) ابن حوقل: صورة الأرض، ص43، 56.

(7) ابن الفقيه: البلدان، ص484.

أما فيما يخص مواسم التجارة في مدينة عدن فقد ذكرها العمري[1] عما رواه ابن البرهان» بأن التجارة في الثغر تسير وفق مواسم[2]خاصة لكل جهة، وإذا أراد ناخوذة[3] السفر يقوم برفع علم فوق السفينة الجاهزة للخروج ليشعر التجار الموجودين في الثغر بسفره إلى جهه أقام علمه برنك[4] خاص له، فعلم التجار، وتسامع الناس...ويسرع التجار في نقل أمتعتهم... وتنصب على شاطئ البحر الأسواق».

ومن الخصائص التي تميزت به مدينة عدن التجارية في العصر الإسلامي، وجود مكاييل خاصة بالعملية التجارية، فقد أورد لنا المقدسي[5] مجموعة من المكاييل المستخدمة في عملية التجارة في عدن بقوله: «ومكاييل هذا الإقليم: الصاع[6]،

(1) مسالك الأبصار، ج4، ص43.

(2) وتشمل هذه المواسم لكل جهة، فكان التجار المصريون يتم سفرهم من عدن إلى مصر في الخامس والعشرين من تشرين الأول (يقابله الخامس والعشرون من شهر أكتوبر)، أما المتأخرين من التجّار فكان يتم خروجهم من عدن إلى مصر في السابع عشر من نيسان (أبريل)؛ أما التجّار الهنود فكان خروجهم من الهند في تشرين الأول (أكتوبر)، وآخر سفر لهم إلى عدن في الثامن من آذار(مارس)؛ أما التجّار الفرس فكان خروجهم من عدن في كانون الثاني (يناير)، والتاجر المقدشي كان خروجه من عدن في الرابع من حزيران (يونيو)؛ أما فيما يخص التجار المحليين القادمين من صنعاء وزبيد وحصي، وغيرها من المناطق التهامية والجبلية فكان دخولهم إلى عدن يتم في أول يوم من آب (أغسطس). مجهول: ارتفاع الدولة المؤيدية: جباية بلاد اليمن في عهد السلطان المؤيد داود بن يوسف الرسولي المتوفى سنة 721هـ، تح: محمد عبد الرحيم جازم، ط1، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية، صنعاء، المعهد الألماني للآثار، صنعاء، 2008م، ص122.

(3) هو قبطان المركب. آن دوزي: تكملة المعاجم العربية، ج10، ص183.

(4) الرنك: تعني الراية. آن دوزي: المرجع نفسه، ج5، ص225.

(5) أحسن التقاسيم، ص98.

(6) الصاع: مكيال تكال به المواد الجافه كالحب وغيره، وهو يساوي نصف ثمن قدح، وذلك أربعة أنفار، ويزن 301875أرطال يمنية، أي ثلاثة أرطال وثلاث أواق ويعادل نحو: 20312كم. شجاب، محمد سالم: معجم المكاييل والمقاييس العالمية، ط1، مكتبة خالد بن الوليد، صنعاء، 2010م، ص165.

والمد[1]، والمكوك[2]... والمن[3]، والرطل البغدادي[4]».

خلاصة القول: إنّ في كتابات الرحالة والبلدانيين عن الجانب الاقتصادي والتجاري لمدينة عدن، ما يمثل الدور الذي أدَّته هذه المدينة في العصر الإسلامي، وإلى أي حد بلغت شهرتها، وزادت مكانتها لدى الوافدين عليها من التجار، أو القائمين عليها من الحكام اليمنيين، وذلك لكثرة العائدات التي تعود عليهم، سواءً من أرباح التجارة التي يحصل عليها التجّار، أو من الضرائب والمكوس المفروضة من قبل السلطة على التجار في عدن.

كل هذه الإشارات أسهمت في دفع الكتّاب الرحَّالة لزيارة مدينة عدن، وكذلك دفعت البلدانيين في البحث عن تاريخها وتدوينه، فوصفها البعض بأنها دهليز الصين، والآخر ذكرها بأنها تستقبل الكثير من التجارات من المشرق والمغرب، مع ذكر تلك المنتجات واحدةً بعد أخرى، وتحديد المكاييل المستخدمة في عملية التجارة، مع الإشارة إلى مقدار الأموال المتحصلة من الضرائب والعشور المفروضة على التجار. وهذا يدخل في إطار أهمية هذه المدينة، وتميزها بخصائص كثيرة، الأمر الذي جعل الرحالة والبلدانيين يفردونها في مؤلفاتهم، كغيرها من المدن المشهورة.

---

(1) المد ربع الصاع والصاع ثلث المكوك. المقدسي: أحسن التقاسيم، ص98. والمد مكيال للمواد الجافة والسائلة كاللبن ونحوه، وهو حفنة بكفين معتدلين، وسمي مداً لأنه يمد باليدين. شجاب: معجم المكاييل، ص272.

(2) مكوك: جمعه مكاكيك: كلمة أرمنية، تطلق على آلة الخياطة، كما كانت تطلق على طاس يشرب فيه، ثم أطلقت على مكيال من مكاييل العرب يسع صاعًا ونصف صاع أو نحوه، وهو يختلف باختلاف المناطق. شجاب: معجم المكاييل، ص287.

(3) المن تساوي 248 درهمًا يمنيًا كبيرًا. شجاب: معجم الموازيين والمكاييل، ص293. ويستخدم لوزن اللحم والحرير والمياه. ابن المجاور، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، المسمى تاريخ المستبصر، اعتنى بتصحيحه: اوسكر لوفجرين،ط2، دار التنوير، بيروت، 1407هـ/ 1986م، ص89.

(4) الرطل البغدادي وزنه مائة وثلاثون درهمـًا. العمري: مسالك الأبصار، ج3، ص204.

ينصبّ اهتمام كثيرًا من الرحالة بعدن أمثال ابن بطوطة، والسيرافي، والبلدانيين أمثال الهمداني، وابن حوقل وغيرهم في قضايا تتعلق بالجانب الجغرافي وتسمياتها، وتحديد موقعها، وأهميتها، وأهمية سواحلها، وقضية الجانب الاجتماعي من حيث سكانها واختلاط الأجناس المختلفة بهم، ولهجتهم الخاصة، وعاداتهم في مواسمهم، وتعايشهم مع الآخرين، وعدم عدائيتهم، وهم أهل كرم على الرغم من شحة إمكانيتهم المعيشية.

أما الجانب الاقتصادي فقد كان مزدهرًا؛ لكونها سوقًا تجاريًا يتوافد عليها التجار فتزيد أموالهم في تجارة رائجة؛ إذ تنتشر فيها البضائع التي ترفدها بها بحارها كالعنبر، أو تأتيها من أصقاع العالم المعمور، كل ذلك كان الدافع الأساس الذي جعل الرحالة والبلدانيين يهتمون بها.

المصادر والمراجع

أولًا- المصادر:

♦ **الإدريسي، محمد بن محمد بن عبدالله(ت560هـ):**

1. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط1، عالم الكتاب، بيروت، 1409هـ.

♦ **الأزدي، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد(ت321هـ):**

2. جمهرة اللغة، تح: رمزي منير، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1987م.

♦ **الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد(ت346هـ):**

3. المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، 2004 م.

♦ **ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد(ت779هـ):**

4. رحلة ابن بطوطة، ط1، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1417هـ.

♦ **البعلي، أبو عبد الله محمد بن أبي الفتح (ت709هـ):**

5. المطلع على الألفاظ المقنع، تح: محمود الأرناؤوط، وياسين محمود الخطيب، ط1، مكتبة السوادي، 2003م.

♦ **البغدادي، محمد بن حبيب بن أمية(ت245هـ):**

6. المحبر، تح: إيلزة ليختن شينتر، دار الآفاق الجديد، بيروت، 1990م.

♦ **ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني الأندلسي(ت614هـ):**

7. رحلة ابن جبير، ط1، دار صادر، بيروت، 1998م.

♦ **الجندي، أبو عبدالله محمد بن يوسف بن يعقوب(ت732هـ):**

8. السلوك في طبقات العلماء والملوك، ط2، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1995م.

♦ **الحازمي، أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان(ت584هـ):**
9. الأماكن أو ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة، تح: حمد بن محمد الجاسر، دار اليمامة، السعودية، 1415هـ.

♦ **الحموي، أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت الرومي(626هـ):**
10. معجم البلدان، ط2، دار صادر، بيروت، 1995م.

♦ **الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت900هـ):**
11. الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، ط2، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، 1980م.

♦ **الحنفي، أبو عبد الله زين الدين محمد الرازي(ت666هـ):**
12. مختار الصحاح، تح: يوسف الشيخ محمد، ط5، المكتبة العصرية، بيروت، 1999م.

♦ **ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل الموصلي(ت376هـ):**
13. صورة الأرض، دار صادر، بيروت، 1938م.

♦ **ابن خرداذبه، أبو القاسم عبيد الله بن عبيد الله(ت280هـ):**
14. المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، 1889م.

♦ **ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد(ت681هـ):**
15. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، ط1، دار صادر بيروت، 1990م.

♦ **الذهبي، أبو عبدالله شمس الدين محمد بن عثمان(ت748هـ):**
16. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: بشار عواد معروف، ط1، دار الغرب الإسلامي، 2003م.

♦ **الرازي، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني(ت395هـ):**
17. مجمل اللغة، تح: زهير عبد المحسن، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986م.

♦ **الزبيدي، أبو الفيض محمد بن محمد الحسيني(ت1205هـ):**

18. تاج العروس من جواهر القاموس، تح: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د.ن.

♦ **الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو(ت538هـ):**

19. الجبال والأمكنه والمياه، تح: أحمد عبد التواب، دار الفضيلة، القاهرة، 1999م.

♦ **ابن السائب، أبو المنذر هشام بن محمد الكلبي(ت204هـ):**

20. نسب معد واليمن الكبير، تح: ناجي حسين، ط1، مكتبة النهضة العربية، 1998م.

♦ **السمهودي، أبو الحسن علي بن عبدالله الشافعي(ت911هـ):**

21. وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ.

♦ **السيرافي، أبو زيد حسن بن يزيد(ت330هـ):**

22. رحلة السيرافي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1999م.

♦ **ابن شمائل، عبد المؤمن بن عبد الحق القطيعي(ت739هـ):**

23. مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط1، دار الجيل، بيروت، 1412هـ.

♦ **صلاح الدين الصفدي، محمد بن شاكر بن أحمد(ت764هـ):**

24. فوات الوفيات، تح: إحسان عباس، ط4، دار صادر، بيروت، 1973م.

♦ **ابن عذاري، أبو عبد الله محمد المراكشي(ت695هـ):**

25. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج. س. كولان، وليفي بروفنسال، ط3، دار الثقافة، بيروت، 1983م.

♦ **العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي(ت749هـ):**

26. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ط1، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1422هـ.

♦ **الفارابي، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري(ت393هـ):**

27. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، ط4، دار العلم للملايين، بيروت، 1987م.

♦ **ابن الفقيه، أبو عبد الله أحمد بن محمد(ت365هـ):**

28. البلدان، تح: يوسف الهادي، ط1، عالم الكتاب، بيروت، 1996م.

♦ **القزويني، زكريا بن محمد بن محمود(ت682هـ):**

29. آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، 1990م.

♦ **ابن المجاور، جمال الدين يوسف بن يعقوب(ت690هـ):**

30. صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، المسمى تاريخ المستبصر، اعتنى بتصحيحه: اوسكر لوفجرين،ط2، دار التنوير، بيروت، 1407هـ/ 1986م.

♦ **المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد(ت380هـ):**

31. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تح: غازي ظليمات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1980م.

♦ **المقريزي، أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر(ت845هـ):**

32. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ.

♦ **المنجم، إسحاق بن الحسين المنجم(ق4هـ):**

33. آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، ط1، عالم الكتاب، بيروت، 1408هـ.

♦ **ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي(ت711هـ):**

34. لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، 1414هـ.

♦ **مؤلف مجهول:**

35. ارتفاع الدولة المؤيدية: جباية بلاد اليمن في عهد السلطان المؤيد داود بن يوسف الرسولي المتوفى سنة 721هـ، تح: محمد عبد الرحيم جازم، ط1، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية، صنعاء، المعهد الألماني للآثار، صنعاء، 2008م.

36. حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تر: يوسف الهادي، دار الثقافة، القاهرة، 1423هـ.

♦ **الهروى، أبو منصور محمد بن أحمد(ت370هـ):**

37. تهذيب اللغة، تح: محمد عوض مرعب، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2001م.

♦ **الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد(ت334هـ):**

38. صفة جزيرة العرب، مطبعة برلين، ليدن، 1884م.

♦ **يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي(ت1100هـ):**

39. غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تح: سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب العربية، القاهرة، 1388هـ/ 1968م.

♦ **اليعقوبي، أبو يعقوب أحمد بن إسحاق(ت292هـ):**

40. البلدان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ.

ثانيًا- المراجع:

♦ **الأحمد نكرى، عبد النبي عبد الرسول:**

41. دستور العلماء، تر: حسن هاني، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.

♦ **آن دوزي، رينهارت بيتر:**

42. تكملة المعاجم العربية، تر: جمال الخياط، ط1، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، 2000م.

♦ **شجاب، محمد سالم:**

43. معجم المكاييل والمقاييس العالمية، ط1، مكتبة خالد بن الوليد، صنعاء، 2010م.

بسم الله الرحمن الرجيم

بحث مقدم إلى ندوة عدن في أدبيات الرحالة وكتابات المستشرقين موسوم بعنوان:

عدن في كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم
اثنوجرافية المكان

د. أمل صالح سعد راجح
أستاذ مساعد في قسم علم الاجتماع / كلية الآداب/ جامعة عدن

الملخص:

لمدينة عدن حضور في كتابات الرحالة العرب، إن كان وصفًا أو انبهارًا أو تدقيقًا ودراسة، فلم تغب عدن عن كثير من الرحالة العرب ومن ضمنهم المقدسي، ففي كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) نجد دراسة اثنوجرافية وافية عن المدينة تشمل: موقعها، مناخها، مساجدها، أخلاق أهلها، وذكر أسوارها وأبوابها، دراسة تحاذي بالمفهوم الحديث الدراسات الاثنوجرافية التي هي فرع من الدراسات الأنثروبولوجية التي تهدف إلى وصف عادات المجتمعات وثقافاتها، وهذا ما أنجزه المقدسي من خلال وصفه للمدينة.

المقدمة:

بعد أن استقر الإسلام في رقاع إمبراطوريته وتوقفت القوافل العسكرية عند الحدود التي انتهت إليها الفتوح، نشأت مراكز للعلم في الأجزاء العربية وغير العربية، ورحل الناس في طلب العلم من مكان إلى آخر... ونهض إلى جانب أصحاب التجارات وطالبي العلم وقاصدي بيت الله الحرام فريق آخر من الناس يطلبون الرحلة من أجل الاستزادة من معرفة حقائق الأمصار والأقطار والبلدان، ومن هؤلاء ظهر الرحالة المحترفون، الذين كانوا يرحلون من أجل الرحلة، قبل أي شيء آخر[1]. والمطَّلع

على تراجم علماء المسلمين العرب يقف على العديد من الأسماء الإسلامية التي بلغ أصحابها القمة في شق الأقطار والتجوال في الفيافي والقفار؛ بغية طلب العلم ونشره ومجالسة أعلامه، من ناحية، ودراسة الأقاليم وعادات الأمم وقيمها وثقافاتها من ناحية أخرى... فمن ضمن أهداف الرحلة في الإسلام دراسة أحوال الأمم الحاضرة لقياس الحاضر بالغائب واللاحق بالسابق، وبهذا يشمل هدف الرحلة الدراستين الاثنوجرافية والتاريخية، أي الجمع بين الدراسات الوصفية والتاريخية[2].

وتعد مدينة عدن محطة من المحطات التي حط فيها الرحالة العرب رحالهم، وتفننوا في وصفها والحديث عن مساكنها وقصورها وتحصيناتها، ووصف موقعها وأهميتها التاريخية والتجارية إذ نجد الرحالة المقدسي من ضمن الرحَّالة الذين أعطوا وصفًا رائعًا وكاملًا لمدينة عدن، وأشاروا إلى مكانتها التاريخية والحضارية. وتتقارب رحلة المقدسي، ووصفه لعدن وبقية الأقاليم التي زارها والدراسات الاثنوجرافية الحديثة، التي تنزع إلى الوصف والتعريف بالقيم والعادات الحضارية للشعوب والثقافات المختلفة، وهو الذي سنتطرق إليه في هذه الدراسة.

أهمية البحث:

تأتي أهمية البحث في كونه يسلِّط الضوء على أحد الرحالة العرب وهو الرحالة المقدسي الذي عُني بوصف الأقاليم المختلفة للعالم الإسلامي وغيره من الأقاليم ودراستها، إذ تعد هذه الرحلات التي دونها المقدسي وغيره من الرحالة بمثابة دراسات علمية قيمة تمدنا بصورة حية عن المدن والأقاليم المختلفة، وعن الحياة الاجتماعية في هذه الأقاليم، ومقدار ما تتمتع به هذه المدن من أهمية عالمية واسعة منذ مراحل زمنية كبيرة ومنها مدينة عدن.

لقد شكل الرحالة العرب برحلاتهم هذه نواة الدراسات الأنثروبولوجية والاثنوجرافية الحديثة قبل علماء الأنثروبولوجيا المحدثين، والذي ينسب إليهم الفضل في العصر الحديث، ولكن في الأصل هو أحقية الرحالة العرب في امتلاك

ناصية هذا العلم وتحقيقه على أسس علمية صحيحة، إذ يرجع إليهم الفضل في إظهاره وإرساء أركانه. ويعد الرحالة المقدسي من ضمن الرحالة السباقين في تدوين الدراسات الاثنوجرافية عن أقاليم العالم، ووصف أحوالها وموقعها، وتعد بحق مرجعًا مهمًّا لكافة الدراسات الاثنوجرافية والأنثروبولوجية الحديثة، ومن ضمن الأقاليم التي حظيت بوصف المقدسي مدينة عدن اذ تأتي أهمية البحث في كونه يسلط الضوء على دور مدينة عدن وأهميتها ويشكل في ذات الوقت مرجعا مهما للدارسين للتعريف بدور مدينة عدن التاريخي والتجاري المهم كونها مدينة تتمتع بتاريخ عريق لا زال حاضرًا إلى الآن.

أهداف البحث:

1. إعطاء عرضًا وافيًا لما دوَّنه المقدسي في وصف مدينة عدن وذلك في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)، وذلك من حيث: الوصف المكاني، وأهمية مدينة عدن، ووصف مساجدها ودورها، وطباع أهلها إلى وصف أسوارها وأبوابها.
2. الكشف عن التشابه بين وصف المقدسي للمدينة والدراسات الاثنوجرافية الحديثة التي تصف المجتمعات التي تقوم بدراستها، وذلك من حيث التركيز على وصف الثقافات والعادات للمجتمعات الإنسانية وما ينتجونه سواء كان مادة أو فكرة، فالوصف المكاني للمدينة وما يتبعه من وصف للحياة الاجتماعية يعد من الأساليب والطرق الحديثة التي تتبعه الدراسات الاثنوجرافية والأنثروبولوجية عامة.
3. التعرف على الطريقة التي اعتمدها المقدسي في دراسته للمدينة، وهي طريقة الملاحظة بالمشاركة والتي تعد من الطرق الحديثة في الدراسات الأنثروبولوجية. فالمقدسي كان حاضرًا في المدينة ونقل عن كثب صورة حية عن مدينة عدن وتجارتها وأهلها، مما يدل على مشاركته إياهم ومعرفة عاداتهم وتقاليدهم.

منهجية البحث:

- يعتمد البحث على المنهج التاريخي، إذ تم الاستفادة من المادة التاريخية عن

مدينة عدن في كتاب الرحالة المقدسي (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)، كما عني بربط هذه المادة التاريخية بالدراسات الاثنوجرافية الحديثة.

مفاهيم البحث

♦ **الرحلة**: جنس تتداخل فيه كثير من المجالات المعرفية والتعبيرية: الجغرافيا والتاريخ وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والدين والسياسة والأدب. لهذا تحظى نصوص الرحلات باهتمام عدد كبير من الدارسين والباحثين من تخصصات مختلفة[3].

♦ **الرحالة المقدسي**: هو (أبو عبدالله محمد بن أبي بكر، ت 387هـ) في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم». يعد المقدسي من كبار الجغرافيين العرب في القرن الرابع للهجرة، وكتابه المذكور هو خلاصة ما شاهده وعاينه في رحلاته وأسفاره الطويلة في ديار الإسلام، وخدماته للملوك ومجالسته للقضاة، وتحصيله العلم على يد الفقهاء والعلماء. وقد اعتمد فيه أيضًا على الجغرافيين العرب السابقين عليه أمثال: ابن خردابه والجيهاني والبلخي والهمداني والجاحظ وابن رسته[4].

♦ **الاثنوجرافيا (Ethnography)** تعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات والقيم والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين خلال مرحلة زمنية معينة محددة[5].

فالاثنوجرافيون يقدمون صورًا تفصيلية لما في ثقافة ما أو ثقافة فرعية ما أو جماعة ما، من ممارسات وعادات الحياة اليومية. وكثيرًا ما يقومون - في أثناء ذلك - بجمع المنتجات والمصنوعات اليدوية وغيرها من المواد الثقافية. وهم يسجلون ويحللون تلك التشكيلة المتنوعة من الأبنية الاجتماعية داخل مجتمعها باذلين اهتمامًا بالحياة الدينية، والعائلية، والسياسية، والاقتصادية. وتعد هذه الطريقة «صريحة وشخصية»، كما أنها تتم عادة في مجتمعاتها الطبيعية، أي في تلك الأماكن التي يباشر فيها الأفراد حياتهم اليومية وليس في مكان سابق الإعداد، يقوم الباحث بترتيبه أو إعداده في موقع

محدد. وتتطلب الملاحظة بالمشاركة، والتي هي أداة بحث أساسية لعلم الاثنوجرافيا ولتطبيقه، تتطلب من الباحث أن يعيش في المجتمع الذي يقوم بدراسته، أو يقوم بزيارات مكثفة وشاملة له، حيث يقوم بملاحظة الأنشطة التي يباشرها هؤلاء الأفراد الذين يدرس أحوالهم كما يقوم بالمشاركة فيها[6].

المنهج الاثنوجرافي لدى المقدسي:

في معرض حديث المقدسي عن طريقة جمعه لمادته العلمية وعمَّا شاهده في البلدان التي زارها، يضع أساسيات المنهج الاثنوجرافي الحديث، فلم تكن مشاهدات وتدوينات عابرة، ولكنها خلاصة ما قام به من جولات في هذه الأقاليم ولقائه بالعلماء والقراء، فهو يوضح طبيعة المواد الاثنوجرافية التي تضمنها كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) بقوله: «وما تم لي جمعه إلا بعد جولاني في البلدان، ودخولي أقاليم الإسلام، ولقائي العلماء وخدمتي الملوك، ومجالستي القضاء، ودرسي على الفقهاء، واختلافي إلى الأدباء والقراء، وكتبة الحديث ومخالطة الزهاد والمتصوفين، وحضور مجالس القصاص والمذكِّرين، مع لزوم التجارة في كل بلد، والمعاشرة مع كل أحد، والتفطُّن في هذه الأسباب بفهم قوي حتى عرفتها، ومساحة الأقاليم بالفراسخ حتى أتقنتها، ودوراني على التخوم حتى حررتها، وتنقلي إلى الأجناد حتى عرفتها، وتفتيشي عن المذاهب حتى علمتها، وتفطني في الألسن والألوان حتى رتبتها، وتدبري في الكور حتى فصّلتها، وبحثي عن الأخرجة حتى أحصيتها»[7].

وبهذا يعرِّف المقدسي القارئ بمنهجه الاثنوجرافي تعريفًا جامعًا مانعًا، فهو لا يجمع مادة كتابه عن طريق النقل أو القراءة أو الحكاية أو الرواية أو السماع كما كان يفعل النظريون من أنثروبولوجي القرن التاسع عشر، وإنما اعتمد على الدراسة الحقلية الجادة، فهو يخالط العلماء ويجالس الفقهاء ويختلف إلى الأدباء يناقشهم ويتعلم منهم ويأخذ عنهم. وفي الوقت نفسه يشتغل بالتجارة ويمسح الأرض ويتعلم لغة القوم ويفطن إلى الأجناس فيعرفها. وفي إطار هذا المنهج العربي الأصيل ينصح

الأنثروبولوجيون المعاصرون الباحث الميداني بألَّا يكون مجرد مسجل لما يسمع أو ملاحظ لما يرى. وإنما عليه أن يأخذ دورًا ما - ما أمكنه ذلك - في البناء الاجتماعي الذي يدرسه. فيشارك أفراده طقوسهم وشعائرهم وطعامهم وخيامهم، وأن يتعلم لغتهم ليفهم بعمق وعن كثب أفكارهم من خلال تعبيرهم عن تلك الأفكار. ثم يقول المقدسي في مقدمة كتابه: «اعلم أني أسست هذا الكتاب على قواعد محكمة، وأسندته بدعائم قوية، وتحريت جهدي الصواب، واستعنت بفهم أولي الألباب، وسألت الله عز اسمه أن يجنبني الخطأ والزلل، ويبلغني الرجاء والأمل، فأعلي قواعده وأرصف بنيانه، وما شاهدته وعقلته، وعرفته وعلقته، وعليه رفعت البنيان وعملت الدعائم والأركان»[8].

ويمتاز المقدسي بالدقة في كتابه، والعناية بتسجيل الأخبار الغريبة، وقد سجل منهجه في مقدمة كتابه، فقال: «فرأيت أن أقصد كلما قد أغفلوه، وأنفرد بفن لم يذكروه إلا على الإخلال، وهو ذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة ومدنها المذكورة، ومنازلها المسلوكة وطرقها المستعملة، وعناصر العقاقير والآلات، ومعادن الحمل والتجارات، واختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم ونقودهم وصروفهم، وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم، ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم، وما يحمل من عندهم وإليهم، وذكر مواضع الأخطار في المفازات، وعدد المنازل في المسافات»[9].

وبهذا يتحرى العالم المسلم الدقة المنهجية، فيؤكد أنه تحرّى الصواب في كتابة ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وأنه وصل إلى ما وصل إليه عن طريق المشاهدة والمعاينة. ورغم هذا يقرر بمنطق العالم الحصيف المتواضع أنه قد يكون وقع في خطأ غير مقصود لزم التنويه عليه والإشارة إليه، فيقول: «ثم لا أبرئ نفسي من الزلل، ولا كتابي من الخلل، ولا أسلِّمه من الزيادة والنقصان، ولا أفلته من الطعن على كل حال»[10].

وصف المقدسي لمدينة عدن.. اثنوجرافية المكان:

وهنا سنقف قليلًا لنرى عدن فيما كتبه المقدسي إذ قال: «وعدن بلد جليل عامر آهل حصين خفيف، دهليز الصين، وفرضة اليمن، وخزانة المغرب، ومعدن التجارات، كثير القصور، مبارك على من دخله، مثير لمن سكنه، مساجده حسان، ومعايش واسعة، وأخلاق طاهرة، ونعم ظاهرة، وبارك النبي [ﷺ] في سوق منى وعدن، وهو في شبه صيرة الغنم، قد أحاط به جبل بما يدور إلى البحر، ودار خلف الجبل لسان من البحر، فلا يدخل إليه إلا أن يخاض ذلك اللسان فيصل إلى الجبل، وقد شق فيه طريق في الصخر عجيب، وجعل عليه باب حديد، ومدوا من نحو البحر حائطًا من الجبل إلى الجبل فيه خمسه أبواب، والجامع ناء عن الأسواق، ولهم آبار مالحة وحياض عدة، ويقال إنها كانت في القديم حبس عاد شداد بن عاد إلا أنها يابسة عابسة، لا زرع ولا ضرع، ولا شجر ولا ثمر، ولا ماء ولا كلا، كثيرة الحريق والوكف، جامع شعث، وهرج وحش، وحمامات ردية، يحمل إليهم الماء من مرحلة»[11].

يمكن لنا من خلال هذا الوصف (الاثنوجرافي) لمدينة عدن أن نركز على نواحي عدة منها:

الوصف العام لمدينة عدن:

يبدأ المقدسي وصفه لمدينة عدن بأنها بلد جليل أي رفيع المقام، له مكانة مرموقة وعظيمة بين مدن العالم الإسلامي ومدن العالم ككل، هذه الأهمية نابعة من كون هذا البلد عامرًا أي معمور بالسكان يأتيه الناس من كافة أنحاء العالم، الهنود والأفارقة والفرس وغيرهم. ويتابع المقدسي وصفه للمدينة بقوله: «إنه بلد حصين»، أي أنه محكم ومنيع ضد غزوات المغيرين والطامعين في غزو المدينة والاستيلاء عليها.

موقع المدينة على خطوط التجارة العالمية:

ينتقل المقدسي إلى وصفٍ آخر لا يقل ميزة عن الوصف السابق، وذلك بقوله: «إن عدن تعد دهليز الصين، وفرضة اليمن وخزانة المغرب ومعدن التجارات»،

فيبين المقدسي بهذا الوصف ما تحتله المدينة من مكانة عظيمة على خطوط التجارة العالمية، «فقد تمتعت بموقع استراتيجي هام كان له الفضل في تميزها وشهرتها دون مدن أخرى في اليمن، فكانت محطة للتجار، والوسيط التجاري للبضائع القادمة من مصر، والهند، والصين، وإفريقيا، كما سكن بها تجار من كل حدب وصوب، فكانت متاع السند والهند، والصين، والزنج، والحبشة، وفارس، والبصرة، وجدة، والقلزم، ويعد سوقها من أشهر الأسواق، فكانت فرضة كل اليمن، وخزانة مال ملوكها[12].

إضافة إلى أنها مدخل الصين لتمتعها بموقع تجاري مهم وموقعها الفريد لتصريف لبضائع ذات الأنواع المختلفة والمتعددة.

وصف أهل عدن وقصورها ومساجدها:

يتابع رحَّالتنا المقدسي وصفه لمدينة عدن، ولكن هذا الوصف يبدأ من داخل المدينة عكس الوصف السابق الذي تعرض فيه لموقعها ودورها، إذ يبدأ في وصف المدينة من حيث مبانيها وصفات أهلها، إذ يشير إلى أن عدن بلد كثير القصور، وقد جاء في كتاب (تاريخ ثغر عدن) في فصل الدور المشهورة في عدن أن هناك دار السعادة بناها سيف الإسلام طغتكين بن أيوب مقابل الفرضة، أي من جهة حُقَّات، كذا ذكره المستبصر في تأريخه... وبناؤها عجيب، مثلثة الشكل، يقال: إنه لما فرغ الباني من بنائها خاف السلطان أن يبني لغيره مثلها فأمر بقطع يده، فقال الباني: إن ذهبت يدي فأنا أشير لهم بصفه البناء فأمر السلطان بسمل عينيه...

ودار الطويلة قال المستبصر في «تأريخة»: دار بناها ابن الخائن على محاذاة الفرضة، أي: من جهة المغرب، فصل بينها وبين الفرضة فضاء، وعلى بابها دكَّتان مسقوفتان، يجلس عليهما كتاب الفرضة، وكانت متجرًا للملوك فيما تقدم وصار الآن المتجر دار صلاح الآتي ذكره - إن شاء الله -.

دار المنظر: قال المستبصر: بناها الملك المعز إسماعيل بن طغتكين على جبل حقات انتهى. وكان المعز جدد عمارتها، وإلا فهي قديمة كانت سلاطين بني زريع

يسكنون بها كما ذكره الجندي وغيره، وذكرها الأديب العندي في أشعاره، وهو متقدم على المعز، والله سبحانه أعلم.

دار صلاح: هو صلاح بن علي الطائي كان تاجرًا بعدن، فلما حصل الجور في أيام الناصر الغساني، هرب التجار من عدن إلى جدة، وإلى الهند وإلى منيبار، فخرج صلاح بن علي المذكور إلى منيبار، فاستصفت الدولة أملاكه، ولما تولى بنو طاهر، وتعلقوا بالتجارة، جعلوها متجرًا وزيد فيها في أيام الشيخ علي بن طاهر زيادة طويلة مشتملة على مخازن كبار من جهة حقات، الدار المذكورة، ثم زيد فيها أيضًا في أيام الشيخ صلاح الدين عامر بن عبد الوهاب زيادة أخرى من جهة شرقي الدار. دار البندر: لم يكن بالبندر دار تعرف في قديم الزمان، وإنما كان من فوق البندر فضاء يجلس الناس عليه عند سفر المراكب ومجيئها، يتفرجون على دخولها البندر وخروجها منه، فاتفق أن الشيخ عبد الوهاب بن داود - رحمه الله - طلع إلى البندر في آخر الموسم ينظر صراية المراكب، فرأى تلك السرحة والفضاء، فأمر أن يبني بها دارًا للتنزه والتفرج، فبنيت بها دار ذات طبقتين(13).

أما من حيث المساجد فيصفها بأنها حسان أي كثيرة الجمال والروعة، ويصف الجامع في موضع آخر بأنه «ناء عن الأسواق»، أي بعيد عنها ليحسن فيها الصلاة وذكر الله.

كما تتعدد في المدينة المعايش الواسعة؛ نتيجة لتعدد الأعمال فيها، فتعد عدن بلدًا مباركًا لما حباه الله به من البركة والرزق، فهو مبارك على من يدخله، إذ يبارك الله في رزقه وماله، وهو في الوقت نفسه مثير أي يعد مثار إعجاب من يسكن في هذا البلد الجميل.

ويتطرق المقدسي عند وصف مدينة عدن إلى أخلاق أهلها وذلك بقوله: «وأخلاق طاهرة، ونعم ظاهرة»، مما يدل على الاتصال بأهلها عن قرب ومعرفة أخلاقهم وصفاتهم، فيصف أخلاقهم بأنها طاهرة أي نقية وعفيفة، وأن النعم تبدو ظاهرة عليهم؛

نتيجة لتعدد معايش المدينة وأرزاقها، ويؤكد ذلك بقوله: «وبارك النبي ﷺ في سوق منى وعدن»، فسوق عدن من أشهر الأسواق ويؤمه كثير من الناس من مختلف أنحاء العالم، وهو إضافة إلى ذلك حضي ببركة النبي عليه الصلاة والسلام.

وصف أبواب مدينة عدن وأسوارها:

«وهو في شبه صيرة الغنم قد أحاط به جبل بما يدور إلى البحر، ودار خلف الجبل لسان من البحر فلا يدخل إليه إلا أن يخاض ذلك اللسان فيصل إلى الجبل وقد شق فيه طريق في الصخر عجيب، وجعلوا عليه باب حديد، ومدوا من نحو البحر حائطًا من الجبل إلى الجبل فيه خمسه أبواب».

يتحدث المقدسي في هذه الفقرة في وصف مدينة عدن وخاصة في وصف سوقها بأنه يحيط به الجبل الذي بدوره يحيط به لسان من البحر، فمن أراد أن يصل إلى الجبل عليه أن يخوض هذا اللسان البحري. ولعظمة سكان مدينة عدن فقد شق فيه طريق في الصخر كان مثار إعجاب المقدسي إذ يقول: «وجعلوا عليه باب حديد»، ويسمى (باب البر)، ويعد البوابة الرئيسة لمدينة عدن من البر، فلم يكن من دخول عدن قبل إنشاء هذه البوابة إلا من الجانب البحري، أما بالنسبة لمن أراد الدخول إليها برًّا فكان عليه أن يصعد الجبال. وكان هذا هو الحال حتى تم شق الباب في هذا الموقع من الجبل. ونستدل على ذلك بما ذكره الهمداني في سياق حديثة عن عدن بالقول: «ساحل يحيط به جبل لم يكن فيه طريق، فقطع في الجبل باب بزبر، وصار لها طريق إلى البر ودربا»، إذ شقوا في الجبل مدخلًا للمدينة، وجعلوا له بابًا من الحديد. ويذكره الهمداني ضمن عجائب اليمن التي ليس في بلد مثلها، ووصفه بالقول: «هو شصر مقطوع في جبل كان محيطًا بموضع عدن من الساحل، فلم يكن لها طريق إلى البر إلا للرجل لمن ركب ظهر الجبل، فقطع في الجبل باب بلغ عرض الجبل حتى سلكته الدواب والجمال والمحامل والمحفات، وهذا ما يؤكده المقدسي: «وقد شق في هذا الجبل طريقًا عجيبًا، وجعل عليه بابًا حديدًا»(14).

ويتابع المقدسي في وصف أسوار مدينة عدن بقوله: «ومدوا من نحو البحر حائطًا من الجبل إلى الجبل فيه خمسه أبواب»، إذ تؤكد بعض المصادر أن المقدسي هو أول من ذكر بناء سور بحري للمدينة، وقد قام بزيارة عدن في عهد الدولة الزيادية في اليمن (204-412هـ/ 819-1021م)، يمتد السور من الجبل إلى الجبل، ووصفه بأن له خمسة أبواب، وربما كان هذا السور يعود إلى زمن أقدم بكثير من عهد المقدسي، لكن لم تتوافر لنا أية كتابات تؤكد وجود سور لعدن قبل هذه الحقبة. وقوله: «مدوا نحو البحر حائطًا من الجبل إلى الجبل»، أي من جبل الخضراء إلى جبل حقات[15].

وتعددت أسماء الأبواب تبعًا للروايات المختلفة التي تناولها كُتَّاب ورحَّالة ومؤرخون في تاريخ مدينة عدن، فمن أسماء هذه الأبواب: (باب الصناعة- باب حومة- باب السِّكَّة - باب الفُرْضَة - باب مشرف- باب حيق)[16].

ويتابع الرحَّالة المقدسي في وصفه لمدينة عدن بقوله: «ولهم آبار مالحة وحياض عدة، ويقال إنها كانت في القديم حبس عاد شداد بن عاد إلا أنها يابسة عابسة، لا زرع ولا ضرع، ولا شجر ولا ثمر، ولا ماء ولا كلا، كثيرة الحريق والوكف، جامع شعث، وهرج وحش، وحمامات ردية، يحمل إليهم الماء من مرحلة». ويسترسل المقدسي في وصف مناخ مدينة عدن ويرمز إلى ذلك بوصف المدينة من كونها (يابسة عابسة) كناية عن قلة المياه، ووجود مناخ حار أدى إلى غياب الزروع والثمار، ومعنى (كثيرة الحريق يبيت الرجل غنيًّا فيصبح فقيرًا)(17)، ويمكن أن يعود ذلك لخسارة الرجل تجارته نتيجة للأمواج العاتية أو ما شابه ذلك من الأحداث. كما أن مدينة عدن تجمع كل الناس من جميع الأصناف وذلك ما قصده بقوله: (جامع شعث) من كل حدب وصوب وكأنهم شعث الرؤوس، كما يصف كلام هؤلاء القوم المتعددين والمختلفين بأنه (وهرج وحش)، الهرج هو الكلام الذي يتكلم به الناس، فهو مختلف بحسب الأقوام الزائرين لهذه المدينة من الأحباش والفرس والهنود وما هنالك من الأقوام المختلفة في هذا البلد الذي تجمعهم المدينة في أرجائها، لهم تجارتهم وأنشطتهم

وسلوكياتهم المختلفة، فلا عجب من أن يرى الرحالة المقدسي هذا التعدد والاختلاف في مدينة تحوي بروعتها كل هذا الاختلاف، وتصهره في محيطها لتجعل منه لونًا واحدًا يجمعه حب المدينة والعيش فيها.

ويواصل الرحالة المقدسي بقوله: (وحمامات رديَّة، يحمل إليهم الماء من مرحلة)، يعرج المقدسي بهذه الإشارة للحمامات الموجودة في المدينة بأنها لم تجد العناية الجيدة بها فلذلك وصفها بأنها رديَّة، ويمكن أن يعود إلى قلة المياه ووصولها إليها، فكما هو معروف أن مناخ مدينة عدن يتصف بالحرارة الشديدة وعدم توافر المياه بها، لذا يتم نقله من أماكن أخرى من أطراف لحج وأبين مثلًا أو من أماكن قريبة للمدينة.

مما سبق يتضح مدى الوصف الرائع الذي أعطاه المقدسي لمدينة عدن، وصفًا مزج فيه بين الناحية الايكولوجية والاجتماعية، وراعى فيه النقل المباشر والملاحظة الثاقبة لما تحويه المدينة من الصفات والمميزات، وقد أوجز وصفه في عبارات مختصرة عميقة الدلالة والمعنى، أغنت عن عبارات كثيرة قد لا تكون بعمق المعنى ودلالته كالذي وضعه المقدسي، وبهذا أعطانا وصفًا اثنوجرافيًا للمدينة يضاهي الدراسات الأنثروبولوجية والاثنوجرافية الحديثة في وصفها وتحليلها للأماكن والثقافات التي تعمل على دراستها. فقد ارتكز في وصفه للمدينة على مختلف النواحي الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية، وأعطى صورة عن أهمية عدن في تلك الحقبة، أي في عهد الدولة الزيادية، مما يجعلنا نحيط بتاريخ عدن في تلك المرحلة، ومقدار ما وصلت إليه من رقي وتطور.

لقد حقق المقدسي طريقة وطبيعة الدراسة الاثنوجرافية من خلال جولاته في البلدان التي زارها ولقاء العلماء، وخدمته للملوك، ومجالسته للقضاء، ودرسه على الفقهاء، واختلافه للأدباء والقراء، وكتبة الحديث، ولزوم التجارة في كل بلد، ومعاشرة مع كل أحد. وهذه الدراسة الاثنوجرافية التي أشار إليها الأنثروبولوجي البريطاني المعاصر «ايفانز برتشارد»، الذي يرى - في القرن العشرين - أن الأنثروبولوجي لن يصل إلى

دراسة حقلية جادة لنموذج دراسته ما لم يتعلم لغته المحلية ليجعل من نفسه موضوعًا متصلًا بثقافة المجتمع موضوع الدراسة عن طريق الملاحظة العلمية لمختلف مناشطة اليومية ونظمه الاجتماعية[18]، وهو ما حققه المقدسي في رحلاته ومنها رحلته إلى مدينة عدن.

الخاتمة:

1 – لقد قدم العرب للبشرية مخزونًا لا ينضب معينه في كتبهم الجغرافية التي درسوا فيها أحوال الشعوب ونحلها عن كثب من خلال الرحلة والتجوال والإقامة بين ظهراني الشعوب التي دانت بالإسلام بالدرجة الأولى، والشعوب التي تقع على أطراف الدولة الإسلامية المترامية الأطراف. إن اتساع الدولة الإسلامية قد جعل من وصف الأقاليم والعناية بها جزءًا من ضرورات الحكم واستتاب الأمن ونشر العدالة والمساواة بين الناس وفقًا لما جاء من تعاليم دينية في القرآن الكريم (وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)[19].

2 – يعد الرحَّالة المقدسي من ضمن الرحالة الذين كتبوا عن مدينة عدن مستعرضًا في وصفه لموقعها ودورها التجاري والحضاري، معرجًا على وصف أهلها ومساجدها ومساكنها والإشارة إلى سورها وأبوابها، هذا الوصف الذي قدمه الرحالة المقدسي للمدينة يعد بمثابة دراسة علمية قيمة عن مدينة عدن تضاهي بدلالتها العلمية والمعرفية الدراسات الاثنوجرافية الحديثة، والذي يمكننا من أن نتخذ هذه الدراسة مرجعًا مهمًّا للدراسات الأنثروبولوجية والاثنوجرافية الحديثة.

3 – يعود السبق للرحالة المسلمين في تأريخ الدراسات الأنثروبولوجية والاثنوجرافية وتدوينها قبل العلماء الأوروبيين الذين ينسبون إليهم الفضل في ذلك، فمن خلال الرحلات التي قام بها الرحَّالة المسلمون وكتاباتهم المختلفة عنها، نجد تراثًا أنثروبولوجيًا حافلًا بشتى الدراسات الوصفية التحليلية والمقارنة تضاهي الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة إن لم تتفوق عليها، وهذا يدفعنا للاستفادة من

تراثنا الإسلامي في ترسيخ نهج جديد نتبعه في دراساتنا الأنثروبولوجية والاثنوجرافية، وأن لا نتقيد فقط بالدراسات الغربية ونهمل تراثنا الفكري والحضاري.

4 - العمل على زيادة الندوات والورش للتعريف بالرحَّالة العرب والمسلمين وما خلدوه من تراث علمي والاستفادة منه في حاضرنا وللأجيال القادمة.

الهوامش و المراجع:

(1) الحسين، قصي(2004م): موسوعة الحضارة العربية، العصر العثماني والمملوكي، دار البحار ودار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى، ص486.

(2) إسماعيل، زكي محمد(1982م): الأنثروبولوجيا والفكر الإسلامي، مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ص33-32.

(3) عمشوش، مسعود (2018): أدب الرحلات في حضرموت، ص4.

(4) سالم، السيد عبد العزيز(1997): التاريخ والمؤرخون العرب، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص191.

(5) بدر، يحيى مرسي عيد(2000): أصول علم الإنسان الأنثروبولوجيا الجزء الأول، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ص28.

(6) بيير هس شارلين وليفي باتريشيا (2011): البحوث الكيفية في العلوم الاجتماعية، المركز القزمي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، ص 389-388.

(7) شمس الدين المقدسي (1906): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، مطبعة بريل، الطبعة الثانية، ص2.

(8) إسماعيل، زكي محمد، مصدر سابق، ص36.

(9) سالم، السيد عبد العزيز، مصدر سابق، ص193-192.

(10) إسماعيل، زكي محمد، مصدر سابق، ص36.

(11) شمس الدين المقدسي، مصدر سابق، ص85.

(12) مكاوي، هيفاء عبد القادر(2011): أسوار مدينة عدن، الندوة العلمية عدن بوابة اليمن الحضارية 19-18، إصدارات جامعة عدن، ص 163.

(13) أبو عبدالله، الطيب عبدالله بن أحمد أبو مخرمة المتوفى سنة(947هـ) (1987م): تاريخ ثغر عدن وتراجم علمائها، دار الجيل ودار عمان، بيروت، عمان، ص22-21-20.

(14) مكاوي، هيفاء عبد القادر، مصدر سابق، ص171.

(15) مكاوي، هيفاء عبد القادر، مصدر سابق، ص167-165.

(16) مكاوي، هيفاء عبد القادر، مصدر سابق، ص166.

(17) شمس الدين المقدسي، مصدر سابق، ص 5.

(18) إسماعيل، زكي محمد، مصدر سابق، ص35.

(19) الجباوي، علي عبدالله (1988): الأنثروبولوجيا علم الإناسة، مطبعة ابن حيان، دمشق، ص31.

عدن في أدبيات الرحَّالة في العصر الإسلامي
ابن بطوطة أنموذجًا

أ. د. طه حسين عوض هُديل
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كليتي التربية عدن والآداب - جامعة عدن

المقدمة:

شكلت أدبيات الرحَّالة والبلدانيين والجغرافيين واحدة من بين أهم المصادر التاريخية التي من الصعب علينا الخوض في دراسة التاريخ دون العودة إليها، وتبرز أهمية مثل هذه الأدبيات كون مؤرخيها ارتحلوا إلى المناطق التي كتبوا عنها، وانخرطوا بين أهلها، ودونوا مشاهداتهم في مختلف جوانب حياتهم الخاصة والعامة، في محاولة لرسم صورة حية لواقع المجتمعات والمناطق التي نزلوا بها وزاروها، على الرغم من صعوبة التنقل والترحال في تلك العصور وخطورتها، لعدم وجود وسائل النقل المريحة والآمنة، ومع ذلك خاض مثل هؤلاء التجربة، وركبوا الأهوال، وواجهوا المخاطر، ليتركوا لنا كنوز رحلاتهم التي نعكف اليوم على البحث فيها ودراستها، لما تحتويه من معلومات قد لا نجدها في غيرها من الأدبيات التاريخية الأخرى الموجودة بين أيدينا اليوم.

وعلى الرغم من كثرة مثل هؤلاء الرحَّالة من العرب والأجانب الذين ذاع صيتهم في الآفاق عبر التاريخ، إلا أن منهم من اشتهر بطول رحلته وسعتها، ودقة معلوماته ووفرتها وتنوعها. ويعد المؤرخ والفقيه المغربي ابن بطوطة من أشهر هؤلاء الرحَّالة الذين برزوا خلال حقبة التاريخ الإسلامية، وقد بلغ من شهرته إلى أن يُطلَق عليه: ((أمير الرحَّالة المسلمين))، لاسيما وأن رحلته هذه تُعد من أطول الرحلات، وأكثرها شهرة

في التاريخ، لما مر فيه من محطات، شكّلت كل محطة منها مادة دسمه لهذا المؤرخ والرحَّالة الذي راح يصف مشاهداته وملاحظاته ويدونها للحفاظ عليها. وكانت بلاد اليمن من بين أهم المحطات التي وقف فيها ابن بطوطة، ليتنقل بين مدنها المختلفة، وأسواقها، وسواحلها، وموانئها الحية في ذلك الوقت. وكانت مدينة عدن من أبرز محطات اليمن التي وقف فيها ابن بطوطة وأهمها، إلا أن معلوماته عن عدن كادت أن تكون شبه محدودة، فما دوّنه عنها لم يتعدى صفحات وأسطر معدودة، وصف فيها المدينة، وطبيعتها الجغرافية والبيئية، وأسواقها، وتجارها، وبعض الفئات الاجتماعية فيها ومميزاتهم، موضحًا أهمية المدينة وميناءها على التجارة العربية والدولية.

ومع محدودية هذه المعلومات التي دونها ضمن كتابه الشهير: ((تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف برحلة ابن بطوطة)) بالنسبة لبحثنا هذا، لكننا أحببنا الخوض فيها لعمل دراسة لما جاء به هذا الرحَّالة ومقارنته بما ورد في كتب الجغرافيا والبلدانيات والتاريخ التي وثقت لهذه الحقبة الزمنية التي زار فيها هذا الرحَّالة عدن.

ولتحقيق الهدف المنشود؛ قمت بتقسيم دراستي هذه إلى مقدمة ومبحثين رئيسين، تناولت في المبحث الأول منها دراسة لتعريف الرحلة، وأهميتها في تدوين تاريخ مدينة عدن، وما دوّن عنها في أدبيات البلدانيين والجغرافيين والرحَّالة العرب والمسلمين وغيرهم في العصر الإسلامي، قبل رحلة ابن بطوطة، وخصصت المبحث الثاني للتعريف بالرحَّالة ابن بطوطة ورحلته، وخط سيره إلى عدن، ومشاهداته عن مدينة عدن، ووصفه لها، ولطبيعتها، وأهلها، وتجارتهم، وما إلى ذلك من المعلومات التي دونها، وأنهيت دراستي هذه بخاتمة لخصتُ من خلالها أهم النتائج والاستنتاجات التي توصلت إليها.

المبحث الأول: أهمية الرحلة في تدوين تاريخ عدن في العصر الإسلامي

أولًا- الرحلة في اللغة:

الرِّحلة في اللغة بالكسر هي الارتحال للمسير، يقال: دنت رِحلتنا، وبالضم: الوجه الذي تقصده وتريده، وتأخذ فيه، يقال: أنتم رُحلتي، أي الذين أرتحل إليهم، ويقال: مكة رُحلتي، أي وجهي الذي أريد أن أرتحل إليه، ومن هنا أطلق على الشريف أو العالم الكبير الذي يرحل إليه لجاهه أو علمه، والرحلة أيضًا: السفرة الواحدة، ومن يقوم بها يسمى رحَّالة، وهو الكثير الرحلة[1]. ومن المسلَّم به أن للرحلة والسياحة في الأرض فوائد عظيمة وكبيرة في حياتنا؛ لا يغفل عنها إلاّ الجاهل، ولا ينكرها إلا الغافل[2].

ثانيًا- الرحلة في القرآن الكريم:

وقد حثنا ديننا الإسلامي الحنيف على أهمية السفر والترحال لأمور عدة، منها: التكسب والرزق كما جاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾[3]، والاعتبار مما نشاهده أمامنا من مناظر وأثار الأولين وقصص السابقين؛ لما لذلك من أهمية إيمانية أساسها التفكر في خلق الله تعالى، وإبداعاته وصنائعه ومخلوقاته، فضلًا عمّا نكسبه من فوائد ومشاهدات تذكرنا بالآخرة، وتزيد من علمنا وخبرتنا في هذه الحياة. وقد أورد القرآن الكريم الكثير من

---

(1) الزَّبيدي، أبو الفيض مرتضى محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د. ت، 29/ 60؛ إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، د. ت، 1/ 335.

(2) عن تلك الفوائد انظر: الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت: 505هـ/ 1111م)، إحياء علوم الدين، ج2، دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ، ص245؛ ابن خلدون، عبد الرحمن (ت: 808هـ/ 1405م)، المقدمة، دار الجيل، بيروت، د. ت، ص598، سيُشار إليه عند وروده فيما بعد: ابن خلدون، المقدمة.

(3) سورة الملك، آية (15).

الآيات التي تحثنا على ضرورة السياحة والسفر، والتفكر في خلق الله تعالى والاعتبار من ذلك، ومنها - على سبيل المثال لا الحصر-:

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[4]،

ولذا فإن السياحة في الأرض، والتأمل في عجائب المخلوقات من الأمور التي تزيد العبد معرفة بربه عزَّ وجلَّ وبِعظم خلقه، ويقينًا بقدرته على التنويع في شكل العباد وألوانهم ولغاتهم وعاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم، وطبيعة أرضهم وتضاريسها، ومناخهم وغير ذلك من الأمور التي دفعت بعض الرحَّالة إلى التأمل ثم التدبر من عجيب صنع الله، وعظيم قدرته: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[5]، وقد دفعت مثل تلك الأمور الكثير من هؤلاء الرحَّالة والمسافرين إلى نقل ما شهدوه، أو تدوينه ليقرأه غيرهم، ويستفيدوا منه، ويعتبروا مما جاءوا به.

لهذا، يتبين لنا أنه كان لما ذُكر من آيات قرآنية أثره في نفوس الكثير من علماء المسلمين الذين رأوا في تلك الآيات وغيرها دافعًا لسفرهم، وهدفًا لرحلاتهم[6]، فخرجوا إلى البلاد الإسلامية وغير الإسلامية عامة وبلاد اليمن خاصة، وطافوا بها

(1) سورة الروم، آية (9).

(2) سورة الروم، آية (42).

(3) سورة المؤمنون، آية (20).

(4) سورة الحج، آية (46).

(5) سورة النمل، آية (88).

(6) ناصر خسرو علوي (ت بعد سنة 444هـ/ 1052م)، سفر نامة، ط2، ترجمة: يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993م، ص19- 22.

ذهابًا وإيابًا متحملين مشاق السفر، ومخاطره، وأعبائه، وتكاليفه، تاركين بلادهم وأهلهم وأموالهم وأملاكهم لكي يتفكروا في خلق الله تعالى، ويعتبروا من غيرهم، ويأخذوا المعلومة من مصدرها؛ بعد طوافهم، ولقائهم بكبار علماء الأمة ورجالها، مستفيدين من سفرهم هذا في العبادة والعلم والرزق وغيره من فوائد السفر[1].

ثالثًا- أهمية الرحلة وما يعيب الرحَّالة:

لقد كان لما قدمه بعض الرحَّالة المسلمين والجغرافيين والبلدانيين وغيرهم من جهد عظيم في تدوين مشاهداتهم في أثناء سفرهم، والتعليق على ذلك؛ كان من أفضل ما قدموه لنا اليوم، لاسيما وأن مؤلفاتهم شكَّلت شاهد عيان للحدث، ومصدرًا رئيسًا للمعلومة، وإن كان في معلومات بعضها نوع من المبالغة، وعدم دقة في التعبير عند الكتابة للحدث وتدوينه، إذ بلغ من أهمية مؤلفات هؤلاء الرحَّالة أنه أصبح من الصعب على أي باحث أو طالب علم الكتابة في تاريخ أي قطر إسلامي أو عربي دون العودة لأدبياتهم، لما فيها من معلومات من المستحيل الاستغناء عنها، لاسيما وأن ما جاؤوا به ناتج عمَّا شاهدوه بأم أعينهم، مثلما يشير الكثير منهم إلى ذلك، وهو ما ميز كتب الرحلات عن غيرها من المؤلفات وأمهات المصادر التي كتبت في التاريخ والجغرافيا والتراث وغيره، ودونت معتمدة على مؤلفات من سبقهم، أو روايات المعمرين وكبار السن ممن اعتمد عليهم بعض المؤرخين والجغرافيين في الحصول على الكثير من المعلومات التي قد يكون فيها نوع من عدم الصحة والمصداقية والدقة.

إلاّ أن ما يعيب على بعض هؤلاء الرحَّالة المسلمين، وما جاؤوا به من أخبار هو أنهم كانوا عندما يزورون منطقة معينة لا يقيمون فيها سوى ليوم أو يومين، فيدوّنون مشاهداتهم معتمدين على ما يرونه في هذه المدة القصير التي قد تكون غير كافية لنقل صورة متكاملة عن الواقع الذي يعيشه سكان هذه المناطق من الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية أو المناخية والطبيعية أو الأمنية، مما دفع بعضهم - مثلما ذكرنا سابقًا- إلى

(1) انظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، ص245؛ ابن خلدون، المقدمة، ص598.

اللجوء إلى الأهالي للحصول على ما يحتاجون إليه من معلومات، قد تكون غير دقيقة أو صحيحة أو مبالغ فيها، علمًا بأن معظم هؤلاء الرحَّالة، - بل نقول جلهم- جاؤوا من أقطار بعيده، ولم تكن تربطهم بالبلاد التي زاروها أي علاقات أو معلومات مسبقة، تجعل مما دونوه في أيام معدودات ناقصًا، وفي حاجة إلى دراسة وتصحيح بعد مقارنته بما جاء لدى غيرهم من الرحَّالة، ومع ذلك لا يقلل هذا من أهمية كتابات هؤلاء الرحَّالة المسلمين وغير المسلمين وما قدموه من كنوز معرفية عظيمة، وخدمات جليلة للبشرية، تمكنًا من خلالها اليوم من التعرف على العديد من عادات الشعوب وتقاليدهم ومعتقداتهم، وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والعلمية وغيرها.

رابعًا- عدن في أدبيات الرحَّالة والجغرافيين قبل رحلة ابن بطوطة:

كانت مدينة عدن الواقعة في الجنوب الغربي من الجزيرة العربية واحدة من المدن اليمنية التي حظيت بعناية واهتمام الرحَّالة والجغرافيين العرب والأجانب خلال العصر الإسلامي، وبحكم موقعها البحري على بحر العرب وخليج عدن؛ كان ميناء هذه المدينة وأزقتها محطة من محطات نزول بعض هؤلاء الرحَّالة، ونتيجة لأهميتها التاريخية والاقتصادية والعلمية كتب عنها بعض الجغرافيين والرحَّالة والبلدانيين ممن زاروها، وأقاموا في شوارعها، أو سمعوا عنها وعن موقعها وأهميته من بعض المؤرخين في كتاباتهم التي دونوها عن أهمية موقع عدن الاستراتيجي، وما احتلته بين غيرها من مراكز الثقل التجاري في ذلك الحين، لاسيما وأنها قد عرفت ببركة تجارتها وأسواقها في مختلف الأقطار، واتساع النشاط التجاري فيها منذ مدة سابقة لمدة الدراسة.

وإذا بحثنا عن أبرز الرحَّالة والجغرافيين والبلدانيين الذين زاروا عدن، أو كتبوا عنها في مؤلفاتهم في العصر الإسلامي أو حتى ذكروها قبل قدوم الرحَّالة ابن بطوطة؛ فإننا نجد أن هناك من اهتم بها، ودوّن مشاهداته عنها، مع أن بعضهم سمع عنها فقط من غيره، دون أن يزورها، وراح في تدون ذلك عن غيره من الرحَّالة، ويعد الجغرافي والرحَّالة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البشاري المقدسي (ت:

380هـ/ 990م)[1] من أبرز من زار عدن في العصر الإسلامي، وبقي فيها مدة من الزمن، واختلط بأهلها، وزاول العمل في أسواقها، وراح في تدوين مشاهداته عنها، وعن أهلها وأخلاقهم، ومعاملاتهم، وأهميتها، وتجارتها، وعلاقاتها الخارجية، ومساجدها العتيقة، وقصورها، وأبوابها، وطبيعتها الجغرافية والبيئية، وطرقها، ومنافذها، ومصادر مياهها، ومذاقها، وتموينها اليومي بالطعام والخضار والفواكه وغير ذلك من التوصيف، فقال عنها: ((... وعدن بلد جليل عامر آهل حصين، دهليز الصين وفرضة[2] اليمن، وخزانة المغرب، ومعدن التجارة، كثير القصور، مبارك على من رحله، مُثرٍ لمن سكنه، مساجد حسان، ومعايش واسعة، وأخلاق طاهرة، ونعم ظاهرة، قد أحاط به جبل بما يدور إلى البحر، ودار خلف الجبل لسان من البحر، فلا يدخل إليه إلا أن يخاض ذلك اللسان فيصل إلى الجبل، وقد شقّ فيه طريق في الصخر عجيب، وجعل عليه باب حديد، ومدّوا من نحو البحر حائطًا من الجبل إلى الجبل فيه خمسة أبواب، والجامع ناء عن الأسواق، ولهم آبار مالحة وحياض عدّة، ويقال إنها كانت في القديم حبس شدّاد بن عاد، إلا أنها يابسة عابسة لا زرع ولا ضرع ولا شجر ولا ثمر ولا ماء ولا كلأ، كثيرة الحريق والوكف، جامع شعث، وهرج وحش، وحمّامات رديّة، يحمل إليهم الماء من مرحلة، وأبين هي أقدم من عدن وإليها تنسب عدن، لأن برّهم وفواكههم وخضرهم منها، لكثرة القرى والمزارع بها...)).

ويبين لنا المقدسي[3] في مواضع أخر جنسيات بعض ممكن سكن مدينة عدن، واختلطوا بأهل من العرب واليمنيين، ولغتهم التي يتحدثون بها، ويشير إلى أنها اللغة

(1) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط2، مطبعة: بريل، ليدن، 1906م، ص85.

(2) الفرضة: من البحر، وهي محط السفن. المعجم الوجيز، مطبعة: التربية والتعليم، القاهرة، 1425هـ / 2004م. ويقول بامخرمة: إن الفرضة المكان الذي كان يتم فيه فحص البضائع الواردة وتقدير العشور عليها. تاريخ ثغر عدن، ط2، تحقيق: أوسكر لوفجرين، دار التنوير، بيروت، 1407هـ/ 1986م، ص14.

(3) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: غازي طليمات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1980م، ص107.

العربية، على الرغم من أنهم من العجم (الفرس)، مع تكسير بسيط فيها، على اعتبار أنها كانت لُكْنة متداولة في داخل عدن لاسيما بين أبناء عدن ومن جاورهم من الجنسيات الأخرى، ويقول في ذلك: ((وأكثر أهل عدن... فرس، إلا أن اللغة عربية، وبطرف الحميري قبيلة من العرب لا يفهم كلامهم، وأهل عدن يقولون لرجليه رجلينه، وليديه يدينه، وقس عليه، ويجعلون الجيم كافًا، ويقولون لرجب ركب ولرجل ركل)). في حين كان للتجارة دور كبير في استيراد أجناس أخرى وفدت على عدن وبيعت في أسواقها ليصبح هؤلاء جزءًا من المجتمع العدني ألا وهم الأحباش من البربر، الذين وصفهم بأنهم: ((شر أجناس الخدم)) [1].

وبحكم عمل المقدسي[2] في مدينة عدن، فقد راح في ذكر بعض البضائع والسلع المتداولة في أسواقها، لاسيما المستوردة منها، مثل: ((العنبر والشروب والدرق والحبش والخدم وجلود النمور)). حتى إن انتعاش الحركة التجارية في أسواق هذه المدينة جعلها محط أنظار التجار، ورجال المال والأعمال، والطالبين للرزق والثروة، على اعتبار أنها منطقة تجارية مربحة لا محالة، وينصح بالتوجه إليها لما فيها من ربحٍ سريع، ويقول في ذلك: ((إذا أنت دخلت عدن فسمعت أن رجلًا ذهب بألف درهم فرجع بألف دينار، وآخر دخل بمائة فرجع بخمسمائة، وآخر بكندر فرجع بمثله كافورًا، طلبت نفسك التكاثر)) [3].

وتتابع مؤلفات الرحَّالة والجغرافيين العرب والمسلمين في العصر الإسلامي في وصف مدينة عدن وميناءها بعد زيارة بعضهم لها، أو السماع عنها من غيرهم. ويعد المؤرخ والرحَّالة والجغرافي[4] أبو عبد الله محمد بن محمد عبد الله الإدريسي (ت:

(1) المقدسي، أحسن التقاسيم، (طبعة، وزارة الثقافة، دمشق)، ص210.
(2) أحسن التقاسيم، (طبعة، وزارة الثقافة، دمشق)، ص209.
(3) المقدسي، أحسن التقاسيم، (طبعة، وزارة الثقافة، دمشق)، ص209.
(4) زكي محمد حسن، الرحَّالة المسلمون في العصر الإسلامي، ط1، دار الرائد العربي، بيروت، 1401هـ/ 1981م، ص64 – 67.

548هـ/ 1154م) [1] ممن كان لعدن نصيب في مؤلفاته، على الرغم من المقتطفات الصغيرة التي كتبها عنها، إلا أنها تُعد مادة مهمة لطبيعة حياة هذه المدينة الصغيرة والعتيقة، حيث قال عنها: «عدن مدينة صغيرة، وإنما شهر ذكرها لأنها مرسى البحرين، ومنها مراكب السند والهند والصين، وإليها يجلب متاع الصين، مثل: الحديد الفرند والكيمخت والمسك والعود والسروج والغضار والفلفل والدارفلفل والنارجيل والهرنوة والقاقلة والدارصيني والخولنجان والبسباسة والأهليلجات والأبنوس والذبل والكافور والجوزبوا والقرنفل والكبابة، والثياب المتخذة من الحشيش، والثياب العظيمة المخملة، وأنياب الفيلة والرصاص القلعي وغيرها من القنا والخيزران، وأكثر السلع التي يتجهز بها إلى سائر البلاد كما قد علم ذلك »، ويتبين لنا من خلال عبارة الإدريسي الأخيرة التي قال فيها: «كما قد علم ذلك» أنه لم يزر هذه المدينة، وإنما وصلته تلك المعلومات القيمة عن علاقاتها التجارية، وما يصلها من سلع الهند والصين وغيرها من غيره الرحَّالة والمؤرخين، على الرغم من أنه وصل برحلته إلى مناطق أفريقيا وآسيا الصغرى وغيرها[2]، وعلى ما يبدو أن الإدريسي قد شده موقع هذه المدينة المحصنة طبيعيًا، فراح في وصف مداخلها ومخارجها، وأبوابها وتحصيناتها بنوع من الإعجاب بما وهبها الله تعالى من طبيعة من صنع الخالق (عز وجل)، جعلت منها مدينة تجارية وميناءً مشهورًا على مستوى العالم، فقال في ذلك: «ومدينة عدن يحيط بها من جهة شمالها وعلى بعد منها جبل دائر من البحر إلى البحر، وقد نُقِب فيه من طرفيه نقبان كالبابين يدخل منهما ويخرج عليهما، وبين الباب والباب على ظهر الجبل مسيرة أربعة أيام، وليس لأهل عدن دخول ولا خروج إلا على هذين النقبين أو على البحر، وهي بلد تجارة»[3].

(1) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422هـ/ 2002م، ص54.
(2) زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصر الإسلامي، ص64.
(3) نزهة المشتاق، ج1، ص54.

وبحكم موقع عدن البحري تميز أهالي هذه المدينة بخبرات واسعة، مكنتهم من معرفة ما يوجد في باطنه من كائنات بحرية، ومما يخرج البحر من عنبر وغيره، ليذيع صيت خبرة أهالي عدن وصياديها إلى الآفاق لما شهر عنهم من معرفة بهذا الجانب في ذلك الوقت ومنذ القدم[1].

وفي الوقت نفسه، اهتم الإدريسي بعلاقات عدن بغيرها من المدن اليمنية المحيطة بها، وحتى البعيدة عنها، فراح في قياس المسافات بينهما، وتحديد الوقت الزمني بينها وبين غيرها باليوم والمرحلة والميل[2]، وهي وحدات قياس معتمدة في ذلك الحين ومتعارف عليها.

وتُعد منطقة أبين من النواحي التي ذكرها الإدريسي، على اعتبار أنها أقرب المناطق لعدن، فراح في ذكر المسافة بينهما، ووصف طبيعتها، وبعض مزايا أهلها، فقال عنها: «ومن عدن مع الساحل في جهة المشرق إلى قرية أبين اثنا عشر ميلًا، وهي على ضفة البحر اليماني، وأهلها موسومون بالسحر»[3]، فضلاً عمّا يربط بين عدن وحضرموت من مناطق وقرى، ووصفه لطبيعتها، مع ذكره لمناطق حضرموت الداخلية وطبيعتها ومدنها وعلاقاتها بغيرها في الداخل والخارج[4].

ويقدم لنا العالم والرحَّالة والجغرافي ياقوت الحموي (ت: 626هـ/ 1228م)[5] معلومات قيمة عن عدن، مع أنه لم يزرها ولم تكن في برنامج رحلته التي تنقل فيها بين العديد من مدن البلاد الإسلامية وغيرها، علمًا بأن ياقوت الحموي لم يدون مشاهداته في حينها على الرغم من رحلاته الواسعة، فاعتمد على ملاحظات ومشاهدات غيره من

---

(1) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص66.
(2) المرجع نفسه، ج1، ص54 – 57.
(3) المرجع نفسه، ج1، ص55.
(4) المرجع نفسه، ج1، ص55 – 56.
(5) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله، معجم البلدان، ج4، تحقيق: فريد عبدالعزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت)، ص89.

الرحَّالة العرب والمسلمين ومؤلفاتهم، إضافة إلى مشاهداته[1]، وشكلت مدينة عدن واحدة من المدن التي لقت اهتمامًا لا باس به من قبل الرحَّالة ياقوت الحموي، لما تميزت به هذه المدينة من خصائص طبيعية ميزتها عن غيرها من مدن الجزيرة العربية عامة واليمن خاصة، وجعلتها من أقدم أسواق العرب كما يصفها نقلًا عن بعض المؤرخين، مع ما عرف عن هذه المدينة من صعوبة في طبيعتها ومناخها، وشحة مائها وزرعها، حتى إنه قال فيها: «وهي مدينة مشهورة على ساحل الهند من ناحية اليمن، ردئة لا ماء بها ولا مرعى، وشربهم من عين بينها وبين عدن مسيرة نحو اليوم، وهو مع ذلك رديء، إلاّ أن هذا الموضع هو مرفأ مراكب الهند، والتجار يجتمعون إليه، لأجل ذلك فإنها بلد تجارة...»[2].

ويذكر الرحَّالة والجغرافي زكريا بن محمد بن محمود القزويني (ت: 682هـ/ 1283م)[3] عدن – على الرغم من طبيعتها الطاردة للسكان – كمدينة لها أهميتها الجغرافية والتجارية والتاريخية، بوصفها واحدة من أهم مناطق الثقل التجاري على مستوى المحيط الهندي للعلاقات التجارية التي ربطتها بمناطق جنوب شرق آسيا وأفريقيا، فضلًا عما جاء عنها من أخبار زادت من هذه الأهمية، حيث قال عنها: «عدن مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن، سميت بعدن بن سنان بن إبراهيم (عليه السلام)، لا ماء بها ولا مرعى، شربهم من عين بينها وبين عدن مسيرة يوم، وكان عدن فضاء في وسط جبل على ساحل البحر، والفضاء يحيط به الجبل من جميع الجوانب، فقطع لها باب بالحديد في الجبل فصار طريقًا إلى البر، وإنها مرفأ مراكب الهند وبلدة التجار ومرابح الهند، فلهذا يجتمع إليها الناس، ويحمل إليها متاع

(1) زكي محمد حسن، الرحَّالة المسلمون في العصر الإسلامي، ص103 – 105؛ الحميدي، يوسف بن عبد العزيز، ياقوت الحموي مؤرخًا من خلال كتابه معجم البلدان، ط1، منشورات ضفاف، بيروت، 1435هـ/ 2014م، ص68 – 79.

(2) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص89.

(3) زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصر الإسلامي، ص26.

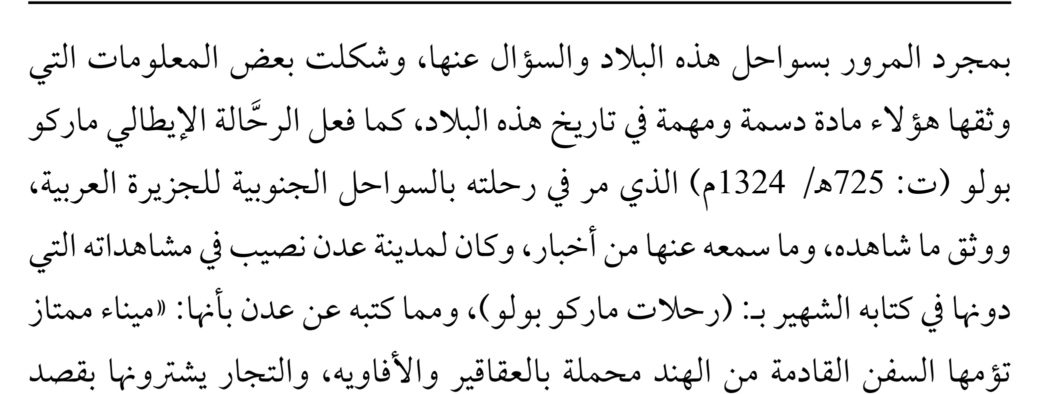
الهند والسند والصين والحبشة وفارس والعراق،... بها مغاص اللؤلؤ، بها جبل النار وهو جبل أحمر اللون جدًا في وسط البحر؛ قالوا: هو الجبل الذي تخرج منه النار التي هي من أشراط الساعة، وسكان عدن يزعمون أنهم من نسل هارون (عليه السلام)»[1].

إلا أن أبرز المشاهدات التي دونت عن مدينة عدن في العصر الإسلامي وضعها المؤرخ والرحَّالة جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد بن المجاور النيسابوري الدمشقي (ت: 690هـ/ 1291م)[2]، الذي زار عدن، وعاش فيها مدة من الزمن، واختلط بأهلها، واشتغل معهم في بعض المهن، ودون كتابه الشهير: (صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستنصر)، وهو كتاب كامل شامل جمع فيه ما شاهده وسمعه عن عدن وأهلها ودورهم وقصورهم وعاداتهم وتقاليدهم ومعاملاتهم وأسواقهم وآبارهم، والوافدين إليها من مختلف مناطق بلاد اليمن من حضرموت والجبال وغيرهم، والقادمون عبر البحر أو البر من الحبشة ومصر والهند والحجاز وغيرها من البلاد، مشيرًا فيه إلى طبيعة مدينة عدن، وميناءها الذي كان له الدور الأكبر في شهرة المدينة، وخصائص هذا الميناء الذي وصف ما يصله يوميًا من السفن، وما تحتويه من سلع تجارية، وكيفية التعامل معها في جمرك عدن، وما يحدث فيها من زحام دفعه إلى أن يصف ذلك الزحام بيوم الحشر، ويعد كتاب: (تاريخ المستبصر) من أفضل ما دون عن عدن في العصر الإسلامي، مع ما تحتويه مادته من مبالغة في الوصف لبعض الصفات المسيئة لأهل عدن والمناطق التي تحدث عنها ووصفها.

وكيفما كان الأمر، فقد استمر الرحَّالة والجغرافيون العرب والمسلمون وغيرهم في رحلاتهم المتعددة إلى مختلف مناطق البلاد العربية وسواحلها، وراحوا في تدوين مشاهداتهم المختلفة حولها، حتى دون النزول بها، حتى إن بعضهم سجل ملاحظاته

(1) آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، (د. ت)، ص101 – 102.

(2) صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستنصر، اعتنى بتصحيحها: أوسكر لو فقرين، ط2، دار التنوير، بيروت، 1407هـ/ 1986م، ص134.



بمجرد المرور بسواحل هذه البلاد والسؤال عنها، وشكلت بعض المعلومات التي وثقها هؤلاء مادة دسمة ومهمة في تاريخ هذه البلاد، كما فعل الرحَّالة الإيطالي ماركو بولو (ت: 725هـ/ 1324م) الذي مر في رحلته بالسواحل الجنوبية للجزيرة العربية، ووثق ما شاهده، وما سمعه عنها من أخبار، وكان لمدينة عدن نصيب في مشاهداته التي دونها في كتابه الشهير بـ: (رحلات ماركو بولو)، ومما كتبه عن عدن بأنها: «ميناء ممتاز تؤمها السفن القادمة من الهند محملة بالعقاقير والأفاويه، والتجار يشترونها بقصد نقلها إلى الإسكندرية»[1].

ويرصد في موضع آخر مدى الثروة التي يجنيها التجار في عدن من عملية البيع والشراء والاستيراد والتصدير إلى بعض البلدان، فيقول عن ذلك: «وفي ميناء عدن هذا، يشحن التجار أيضًا عددًا ضخمًا من الخيول العربية، التي يحملونها للبيع بجميع جزر الهند وممالكها، حاصلين فيها على أثمان مرتفعة ومحققين مكاسب ضخمة»[2].

ويعد هذا الرحَّالة الإيطالي عدن في عصره أضخم سوق في تلك المنطقة، ومكانًا تلجأ إليه جميع السفن التجارية[3]، كما يذكر أنه قد بلغ من ذلك الغناء الفاحش الذي وصل إليه تجار عدن إلى درجة أن تدعم هذه المدينة وتجارها جيوش سلطان بابل في العراق التي قادها لتحرير مدينة عكا من الوجود المسيحي فيها، فزودتهم عدن بثلاثين ألف حصان وأربعين ألف جمل[4]، وقد يكون فيما جاء به من الرحَّالة ماركو بولو نوع من المبالغة ولكنه تعبير عمّا عرف عن عدن من نشاط تجاري وجمركي زاد من غناء أهل هذه المدينة وتجارها.

(1) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج3، ترجمها إلى الإنجليزية: وليم مارسدن، ترجمها إلى العربية: عبد العزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1996م، ص91.

(2) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج3، ص91.

(3) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ج3، ص92.

(4) رحلات ماركو بولو، ج3، ص92. من المؤسف أن ماركو بولو لم يحدد لنا اسم سلطان بابل الذي أشار إليه، ولا السنة التي شهدت هذا الحدث.

وخلاصة القول، أن ما ورد في أدبيات هؤلاء الرحَّالة والجغرافيين المسلمين والأوربيين ما هو إلا نموذج فقط لما دونه غيرهم ممن كتب عن مدينة عدن وطبيعتها وأوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية وغيرها ولو مقتطفات بسيطة، ومع كل ذلك جاء الرحَّالة المغربي ابن بطوطة ليوثق ويؤكد كلما جاء في أدبيات هؤلاء الرحَّالة، وتعد معلومات الرحَّالة ابن بطوطة هي الأهم، لاسيما وأنه لم ينقل أو يسمع عن مدينة عدن كغيره ممن ذكرنا بل على العكس، إذ وصل برحلته إلى هذه المدينة، ونزل فيها ودون كلما شاهده وسمعه عنها، مقدمًا لنا معلومات قلَّ أن نجدها في أدبيات غيره من رحالة العصر الإسلامي ومؤرخيه.

المبحث الثاني: رحلة ابن بطوطة إلى عدن

من المعروف أن الرحَّالة ابن بطوطة سلك طريقًا طويلًا وشاقًا حتى تمكن من الوصول إلى عدن، كمحطة من محطات رحلته في المدة موضوع دراستنا. وقبل الحديث عمَّا جاء به هذا الرحَّالة في أدبياته عن مدينة عدن، لابد أولًا من التعرف عليه وعلى شخصيته، وما تميز به، ورحلته، وأهم البلاد التي مر بها، أو زارها، وصولًا إلى بلاد اليمن، ومن ثم دخوله إلى مدينة عدن.

أولًا- حياة ابن بطوطة ورحلاته:

هو الرحَّالة أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن يوسف اللوائي الطنجي الشهير بابن بطوطة، ولد في مدينة طنجة المغربية[1]، وعاش في المدة من سنة 703 – 779هـ/ 1304 – 1377م[2]، وينتسب إلى أسرة معروفة، ولي

---

(1) طنجة: مدينة على الساحل الشمالي للمغرب العربي على طول مضيق جبل طارق، الذي يربط المحيط الأطلسي بالبحر الأبيض المتوسط، وتعد من أقدم المدن في المغرب الأقصى، وميناؤها ثاني أهم الموانئ المغربية. انظر: مصطفى أحمد وحسام الدين إبراهيم عثمان، الموسوعة الجغرافية، ج4، دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة، 1425هـ/ 2004، ص121.

(2) ابن حجر العسقلاني، الحافظ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد (ت: 852هـ/ 1449م)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج5، تحقيق ومراقبة: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد/ الهند، 1392هـ/ 1972م، ص227؛ خير الدين بن

العديد من أبنائها القضاء، لما عرف عنهم من نبوغ في العلوم الشرعية وغيرها. وتميز ابن بطوطة بشخصيته المحبة للسفر والرحلات والمغامرة منذ نشأته، وقد غادر وطنه في يوم الخميس 2 رجب سنة 725هـ/ 1325م لأداء فريضة الحج، ولكنه ظل حوالي ثمانية وعشرين سنة ونصف السنة في أسفار متصلة ورحلات متعاقبة، حتى عاد إلى مدينة فاس[1] في المغرب العربي في أواخر ذي الحجة من سنة 754هـ/ 1353م[2].

وقد زار ابن بطوطة في طريق رحلته العديد من البلاد التي يصفها وصفًا دقيقًا في قارتي أفريقيا وآسيا وأجزاء من أوروبا، فشملت رحلته المغرب العربي عامة، وتنقل بين أقاليمه لاسيما المغرب الأقصى، فزار المغرب العربي وموريتانيا، وانتقل إلى المغرب الأوسط ودخل الجزائر، ثم المغرب الأدنى تونس وليبيا، وتوجه منها إلى مصر وبدءًا بالإسكندرية، واتجه إلى ساحل البحر الأحمر منتهيًا بميناء عيذاب، ثم عاد أدراجه إلى القاهرة، ومنها إلى صحراء مصر الشرقية، ودخل فلسطين وبيروت وسهل البقاع وطرابلس وجبل لبنان وبعلبك ودمشق وحمص وحماه ومعرة النعمان وحلب، وتنقل في الساحل السوري ومدنه وحصونه الإسماعيلية، ومنها عاد إلى دمشق، ثم اتجه إلى الحجاز مارًا بالأردن، وأدى فريضة الحج في موسم سنة 726هـ/ 1326م، وغادر الحجاز إلى بلاد العراق، فزار مدنها المهمة مثل: الكوفة والبصرة وبغداد وتكريت والموصل، وخرج مرة أخرى إلى الحجاز مع الركب العراقي، وحج للمرة الثانية سنة 727هـ/ 1327م، وجاور مكة حتى سنة 730هـ/ 1330م، وخرج منها

محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت: 1396هـ)، الأعلام، ج6، ط15، دار العلم للملايين، بيروت، أيار / مايو 2002 م، ص235؛ العبودي، محمد بن ناصر، الرحالة العظيم ابن بطوطة شواهد حية على صدقه، دار التلوتية للنشر والتوزيع، الرياض، 1434هـ/ 2013م، ص5 – 8.

(1) فاس: مدينة تقع على ضفاف نهر فاس، أحد روافد نهر البو في شمال المغرب في المنطقة المعتدلة الدافئة. الموسوعة الجغرافية، ج4، ص127.

(2) زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصر الإسلامي، ص136 – 137.

إثر فتنة شهدتها المنطقة، وقرر منها دخول اليمن، وانطلق من ميناء جدة عبر البحر الأحمر مارًا بشواطئ السودان، ثم دخل اليمن - موضوع بحثنا - ومنها توجه إلى شرق أفريقيا فزار الصومال وكينيا وتانزانيا، وعاد أدراجه مرة أخرى إلى جزيرة العرب لاسيما إلى ظفار، وعرج منها على بقية المدن العُمانية على الساحل الجنوبي الشرقي للجزيرة العربية، وأخذ بالتنقل بين العديد من البلاد الإسلامية وغيرها حتى عاد إلى بلاد المغرب العربي بعد رحلة طويلة[1].

وكانت بلاد اليمن من ضمن البلاد التي مر بها ابن بطوطة، وراح في وصفها والتعريف بها وبأهلها، وتعد مدينة حلى أول مدنها التي زارها، ثم انطلق منها إلى بلدة السرجة ثم زبيد التي اخلط بأهلها وراح في وصف حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم ومناسباتهم المختلفة، كما تحدث عن طبيعة المدينة وزراعتها وبيوتها وأسواقها ونسائها وغير ذلك، ثم اتجه إلى مدينة جبلة في إب، وعبرها دخل مدينة تعز، وهي المحطة التي عبرها دخل مدينة عدن موضوع بحثنا هذا[2].

ثانيًا- وصف ابن بطوطة لعدن في أدبياته

1 - ابن بطوطة وسلطان اليمن التي تخضع له عدن:

عند قدوم ابن بطوطة إلى مدينة عدن كانت اليمن عامة خاضعة لحكم الدولة الرسولية (626 - 858هـ/ 1229 - 1454م)، وتعد مدة حكم هذه الدولة من أفضل الحقب التاريخية التي مرت بها اليمن، في مختلف النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية، وقد شكل وصف ابن بطوطة للأوضاع في هذه الحقبة من عصر هذه الدولة تأكيدًا على ما جاء به من سبقه من الرحَّالة العرب والمسلمين والأوروبيين،

---

(1) ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت: 779هـ/ 1377م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروفة برحلة ابن بطوطة، ج1، قدم له وحققه: محمد عبد المنعم العريان، راجعه وأعدّ فهارسه: مصطفى القصاص، ط1، دار إحياء العلوم، بيروت، 1407هـ/ 1987م، ص33 وما بعدها.

(2) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص255 - 258.

الذين لفت نظرهم الوضع المتميز لعدن واليمن كافة مقارنة بغيرها من البلاد الإسلامية، علمًا بأن دخوله إلى اليمن كان خلال مدة حكم السلطان المجاهد علي بن المؤيد داود بن المظفر يوسف بن نور الدين عمر بن علي بن رسول (721 - 764هـ/ 1321 - 1362م) [1]، الذي التقى به في عاصمة الدولة (مدينة تعز)، وقد أبدا الرحَّالة ابن بطوطة إعجابه بالمجاهد وبشخصيته، وبمراسيم التعامل معه كسلطان، فأسهب في الحديث عنه والتعريف به، وبنسبه - على الرغم من الأخطاء التي وقع فيها عند ذكر اسمه - ومكانة جده رسول عند الخلفاء العباسيين، والمكانة التي تبوَّأها بينهم، والثقة التي كسبها لدى خلفاء بني العباس، والتي وصلت إلى درجة الوثوق به ليكون رسولهم إلى بقية الملوك، وكاتم أسرارهم، ومن ثم إيفاد أبنائه إلى اليمن، وتفويضهم هناك، حتى تمكنهم من الاستقلال بحكمها، وإقامة دولة نسبوها إلى جدهم رسول، فقال عن المجاهد: «وهو السلطان المجاهد نور الدين علي ابن السلطان المؤيد هزبر الدين داود ابن السلطان المظفر يوسف بن علي بن رسول، شهر جده برسول؛ لأن أحد خلفاء بني العباس أرسله إلى اليمن ليكون بها أميرًا، ثم استقل أولاده بالملك» [2].

وقد شكَّل اللقاء الذي جمع الرحَّالة ابن بطوطة والسلطان المجاهد الذي رتب له قاضي قضاة المجاهد الإمام المحدث صفي الدين الطبري المكي، فرصة للتعرف على مدى الاهتمام بالضيف، وسؤاله عن حاله وترحاله، وحال بلده وسلطانه، ومن مر بهم من شعوب وحكام وملوك، فضلًا عن التعرف على أساليب التعامل مع الضيف وإكرامه، ومراسيم التعامل في حضرة حكام اليمن، ومعاملات الدخول والخروج والجلوس بين يدي السلطان من قبل رعيته، ورجال دولته، ومواعيدها لضبط هذه

---

(1) تميزت مدة حكم السلطان المجاهد علي رغم اضطرابها بانتعاش اليمن وتطورها في مختلف نواحي الحياة، لما تميز به من حنكة ودهاء. للمزيد عن حقبة حكمه انظر: الخزرجي، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، عنى بتصحيحه: محمد بسيوني عسل، مطبعة: الهلال، القاهرة، 1329هـ/ 1911م، ج2، ص1 - 126.

(2) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص258.

المسائل، حتى إنه يقول في ذلك: «فلما كان اليوم الرابع وهو يوم الخميس وفيه يجلس السلطان لعامة الناس، دُخل بي عليه فسلمت عليه، وكيفية السلام عليه أن يمس الإنسان الأرض بسبابته، ثم يرفعها إلى رأسه، ويقول: «أدام الله عزك». ففعلت كمثل ما فعله القاضي[1] عن يمين الملك، وأمرني فقعدت بين يديه. فسألني عن بلادي وعن مولانا أمير المسلمين جواد الأجواد أبي سعيد رضي الله عنه، وعن ملك مصر وملك العراق وملك اللور، فأجبته عمّا سأل من أحوالهم، وكان وزيره بين يديه، فأمره بإكرامي وإنزالي»[2].

وقد لفت نظر ابن بطوطة، عظمة مجلس السلطان المجاهد، ومن يحضرونه من أرباب كبار قيادات دولته وعسكره ومنظمي الدخول والخروج عليه، بما يعطينا فكرة عن بعض أسماء الوظائف التي كانت موجودة في ذلك الزمن، وما تشهده مثل هذه المجالس السلطانية من عادات متعارف عليها عند جميع من في المجلس، ويصف ذلك بقوله: «وترتيب قعود هذا الملك أنه يجلس فوق دكانة مفروشة مزينة بثياب الحرير، وعن يمينه ويساره أهل السلاح، ويليه منهم أصحاب السيوف والدرق، ويليهم أصحاب القسي، وبين أيديهم في الميمنة والميسرة الحاجب وأرباب الدولة وكاتب السر وأمير جندار على رأسه، والشاويشية، وهم من الجنادرة وقوف على بعد، فإذا قعد السلطان صاحوا صيحة وحدة: بسم الله. فإذا قام فعلوا مثل ذلك، فيعلم جميع من بالمشور وقت قيامه ووقت قعوده. فإذا استوى قاعدًا كل من عادته أن يسلم عليه فسلم ووقف حيث رسم له في الميمنة أو الميسرة، لا يتعدى أحد موضعه، ولا يقعد إلا من أمر بالقعود. يقول السلطان للأمير جندار مر فلانًا يقعد، فيتقدم ذلك المأمور بالقعود عن موقفه قليلًا»[3].

---

(1) يقصد القاضي الإمام المحدث صفي الدين الطبري المكي الذي لم نجد له ترجمة، وعلى ما يبدو أن ابن بطوطة قد أخطأ في الاسم، ولم يدونه بالشكل الصحيح.

(2) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص258 – 289.

(3) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص289.

ومما شد نظر الرحَّالة ابن بطوطة ولائم السلطان المجاهد التي كان يقيمها في حضرته، مشيرًا إلى أن مثل هذه الولائم عادة ما يحضرها علية القوم وخاصتهم، وأرفعهم منزلة ونسبًا ومنصبًا، إضافة إلى بقية رجال دولته وعماله وعلماء البلد وفقهائها وغيرهم، حتى إن تلك الولائم لا تقدم بالمستوى نفسه؛ بل أن منها ما يقدم للسلطان والمقربين منه من كبار رجال دولته وفي مجلس خاص، ومنها ما يقدم لبقية رجال الدولة والأشراف والعلماء والجنود وغيرهم، ويظهر ابن بطوطة تعجبه من هذا النوع من الولائم التي لم يشاهد مثلها في البلاد التي زارها خلال رحلته إلا في بلاد الهند، حتى إنه وجد نفسه في حيرة، هل سلاطين اليمن أخذوا هذه العادة من سلاطين الهند، أو سلاطين الهند أخذوها من سلاطين اليمن، حتى إنه يقول في ذلك: «ويقعد على بساط هناك بين أيدي القائمين في الميمنة والميسرة، ثم يؤتى بالطعام، وهو طعامان طعام العامة وطعام الخاصة. فأما الطعام الخاص فيأكل منه السلطان وقاضي القضاة والكبار من الشرفاء ومن الفقهاء والضيوف، وأما الطعام العام فيأكل منه سائر الشرفاء والفقهاء والقضاة والمشايخ والأمراء ووجوه الأجناد. ومجلس كل إنسان للطعام معين لا يتعداه ولا يزاحم أحد منهم أحدًا. وعلى مثل هذا الترتيب سواء هو ترتيب ملك الهند في طعامه، فلا أعلم أن سلاطين الهند أخذوا ذلك عن سلاطين اليمن أم سلاطين اليمن أخذوه عن سلاطين الهند»[1].

ومن الملاحظ أن ابن بطوطة بعد هذا اللقاء، والوليمة الكبيرة ظل في ضيافة السلطان المجاهد أيامًا معززًا مكرمًا، حتى جاء وقت الرحيل من مدينة تعز، فأكرمه المجاهد، وجهزه وأركبه بأفضل ما عنده، في رحلة جديدة اتجه بها إلى مدينة صنعاء التاريخية، كما يذكر ذلك بقوله: «وأقمت في ضيافة سلطان اليمن أيامًا، وأحسن إليَّ وأركبني، وانصرفت مسافرًا إلى مدينة صنعاء»[2].

---

(1) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص289.

(2) المرجع نفسه، ص289.

وعلى أية حال، فقد كانت مدينة صنعاء هي المحطة الأخيرة التي منها انطلق ابن بطوطة إلى مدينة عدن، دون أن يحدد يوم وتاريخ انطلاقة من صنعاء، ويوم وتاريخ وصوله إلى عدن، أو المسالك والطرق التي سلكها بين صنعاء وعدن، وهي من العيوب التي وقع فيها هذا الرحَّالة الشهير. وعُدَّت مدينة عدن هي المحطة الأخيرة له في اليمن، لاسيما بعد أن استقر فيها مدة من الزمن، وشاهد فيها المدينة بأم عينه وشوارعها وأسواقها، ودوّن كل ملاحظاته فيما يخص حياة الناس، وبعض أمورهم ومعاملاتهم الخاصة والعامة لاسيما التجارية منها، وهي الصفة التي تميزت بها عدن وميناؤها الشهير على مستوى المنطقة والعالم كما وصفها وتحدث عنها، ومن عدن ركب عبر مينائها إلى مدينة زيلع[1] في الساحل الشرقي لأفريقيا التي نزل بها ابن بطوطة ليصفها وصفًا دقيقًا، مما يؤكد لنا على الروابط التجارية التي ربطت ميناء عدن بزيلع، على اعتبار أنها كانت من الأسواق التجارية التي مدت خطوط التواصل التجاري مع عدن وغيرها من موانئ جنوب الجزيرة العربية.

2 – موقع مدينة عدن وطبيعتها في أدبيات ابن بطوطة:

وصل ابن بطوطة إلى عدن قادمًا من مدينة صنعاء في سنة 730هـ/ 1329م[2]، دون أن يحدد الشهر أو اليوم أو التاريخ، وللتعريف بها قام بوصفها بأنها مرسى بلاد اليمن، كما قام بتحديد موقعها على ساحل المحيط الهندي وبحر العرب الذي وصفه

(1) تقع زيلع على خليج عدن في أقصى الشمال الغربي للصومال، بالقرب من جيبوتي الحالية، وتبعد عن بربرة بحوالي (170) ميلًا إلى الجنوب الشرقي من المدينة، وميناء زيلع يبعد مسافة – اختلفت فيها الروايات –، قيل إنها تتراوح بين 50()، و 79 ميلًا() عن مضيق باب المندب، لاسيما وأنه كان يُعد من المنافذ البحرية والمتنفسات التي انفتح من خلالها جزء كبير من وسط القارة الأفريقية وجنوبها على العالم. انظر: هُديل، طه حسين عوض، دور الموانئ الأفريقية في تسهيل الحج إلى الحجاز من القرن السادس إلى الثامن الهجري/ القرن الثاني عشر إلى الرابع عشر الميلادي ميناء زيلع أنموذجًا، مجلة العلوم العربية والإنسانية (علمية محكمة)، جامعة القصيم، المجلد (11)، العدد (2)، ربيع الثاني 1439هـ/ ديسمبر 2017م، ص877 – 880.

(2) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص16 (المحقق).

بالبحر الأعظم، ومن الملاحظ أن الطبيعة الجغرافية لمدينة عدن قد لفتت نظر هذا الرحَّالة، الذي تعجب من تركيبتها الجبلية المحيطة بها من كل الجهات، إلا من منفذ واحد، دون أن يحدد نوع هذا المنفذ وطبيعته، وقد يكون يقصد بذلك المنفذ المنطقة الساحلية الجنوبية المطلة على شبه جزيرة صيرة، التي تعد الميناء الطبيعي الأول والرئيس لعدن، أو الجهة الجبلية الغربية لعقبة عدن، التي يوجد بها باب عدن اليوم، والذي تم شقه في الجبل المطل على المدينة القديمة، حيث كان يعد المنفذ البري الوحيد لعدن في المدة موضوع الدراسة، وقد عبر ابن بطوطة[1] عن ذلك بقوله: «مدينة عدن، مرسى بلاد اليمن، على ساحل البحر الأعظم، والجبال تحف بها، ولا مدخل إليها إلا من جانب واحد».

وبحكم، أن عدن كانت مدينة ساحلية وتجارية فعلى ما يبدو أنها قد شهدت نشاطًا تجاريًّا وعمرانيًّا كبيرًا، لما كان يفد إليها من أناس رغبوا في العيش فيها من مختلف بقاع الأرض للعمل في التجارة أو الصناعة أو الحمالة أو الصيد أو العلم أو غير ذلك، حتى إن كل ذلك أسهم في ضرورة بناء هذه المدينة وتعمير المساكن فيها والمساجد والمدارس والأسواق والفنادق والحوانيت وغيرها من مقومات الحياة الضرورية لأي مدينة ساحلية تجارية نشطة بحكم تواصلها مع العالم الآخر، وعلى الرغم من وصف ابن بطوطة لمدينة عدن بالمدينة الكبيرة، إلا أنه في الوقت نفسه يصفها - كما يمكن أن نقول - بأنها طاردة للسكان، لا زرع بها، ولا شجر أو ماء أو جو لطيف للساكن فيها، لشدة حرارتها ورطوبتها المرتفعة، وهي صفات تعطينا فكرة أن طبيعة عدن منذ القدم متعبة لساكنيها؛ لعدم وجود مقومات السكن الجاذبة للبقاء والعيش، مما اضطر أهالي عدن إلى التخفيف عن أنفسهم بتوفير الضروريات، لاسيما المياه بعمل صهاريج لحفظها، والتخفيف من أزمتها، فشقوا بعض تلك الصهاريج في جبال عدن، وحفروا لبعضها في الأرض، وبنوها بالحجر والجص للحفاظ على مياه الأمطار الموسمية التي

(1) نفسه، ص260.

تنزل على عدن على مدار العام، علمًا بأن أهالي هذه المدينة كانوا في أوقات الأزمات يحصلون على مياههم من مناطق خارج عدن، وهي مناطق كانت تعد بعيدة عن المدينة في ذلك الحين. وتصل الأمور في بعض الأوقات إلى درجة منع القبائل المحيطة بعدن المياه عنها، مما يتسبب في أزمة مياه خانقة، تدفع بسكان عدن إلى مهادنة هذه القبائل بالمال أو ببعض الصناعات التي تنتجها أسواق وورش عدن ومصانعها، كمصانع الثياب وغيرها مقابل السماح بدخول الماء إلى المدينة. ويصف ابن بطوطة عدن وكل ذلك الوضع في داخلها والمحيط بها في أدبياته بقوله: «وهي مدينة كبيرة، ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء، وبها صهاريج يجتمع فيها الماء أيام المطر، والماء على بعد منها، فربما منعته العرب وحالوا بين أهل المدينة وبينه حتى يصانعونهم بالمال والثياب، وهي شديدة الحر»[1].

ومن خلال كل ذلك، يعطي لنا هذا الرحَّالة صورة متكاملة عن موقع عدن المهم الذي كان سببًا في انتعاش هذه المدينة رغم طبيعتها الصعبة المحاطة بالجبال، وافتقارها لأبسط مقومات الحياة الضرورية والأساسية كما ذكر لنا.

3 – المجتمع العدني وتركيبته السكانية عند ابن بطوطة:

ارتبط أهالي مدينة عدن بالبحر منذ الأزل، واكتسبوا بسبب ذلك خبرات واسعة في التعامل معه، ومع مواسم الرياح فيه، وركوبه، وأصبح لذلك البحر أثره على التركيبة السكانية للمجتمع العدني. ويعطي لنا الرحَّالة المغربي ابن بطوطة صورة حية مباشرة وغير مباشرة لهذا المجتمع في المدة موضوع الدراسة، والفئات الاجتماعية التي كانت تتكون منه، على اعتبار أنها كانت مدينة تجارية مفتوحة، ضمت بين سكانها أطيافًا مختلفة من الناس، تنوعت أشكالهم وألوانهم وأعراقهم وجنسياتهم، ومن جميل ما قدمه عن هذه الفئات؛ المعلومات القيمة عن أملاك بعضهم بحكم سكنهم واستقرارهم في عدن، وعملهم في أسواقها التجارية التي كانت تدرُّ عليهم أرباحًا كبيرة،

(1) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص260.

بلغت درجة امتلاك بعضهم لأموال طائلة فاقت كل التصورات، حتى إن كل من عاش في عدن لا يجد صعوبة في الحصول على قوت يومه، أو امتلاك الثروات من عمله في التجارة، إلى درجة أنهم جعلوا يتفاخرون بذلك، وعن هذه الفئات يقول ابن بطوطة: «وأهل عدن ما بين تجار وحمَّالين وصيادين للسمك، وللتجار منهم أموال عريضة، وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه، لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الأموال، ولهم في ذلك تفاخر ومباهاة»[1].

وتعد تلك الفئات التي ذكرها الرحَّالة ابن بطوطة المتمثلة بـ:

أ- التجار الذين برزوا بتجارتهم في أسواق عدن، بحكم تواصلهم بمناطق الثقل التجاري عبر البحر مع الهند والصين ومصر وأفريقيا وغيرها، أو مناطق الداخل التجاري في اليمن، أمثال: التاجر ناصر الدين الفأري، الذي نزل ابن بطوطة عليه ضيفًا عند وصوله إلى عدن[2].

ب- الحمالين الذين عملوا في الميناء، وتخصصوا في تنزيل البضائع من السفن التجارية، وحملها إلى جمرك عدن أو العكس، وغيرهم من الحمالين في الأسواق التجارية الداخلية والحوانيت في هذه المدينة، وعلى ما يبدو أن هذه المهنة تتطلب في صاحبها القوة في الجسم والصحة حتى تخصص فيها العبيد من الوافدين إلى عدن، أمثال: الحمال عبد الله الهندي الذي سعى لتعليم ابنه أنواع العلوم والفنون ليصبح من أشهر قضاة مدينة عدن عند زيارة ابن بطوطة لها[3].

ج- الصيادين الذين عملوا في صيد الأسماك في البحر وتعمقوا فيه؛ وتعد هذه الجماعات من الفئات التي ذكرها ابن بطوطة بصورة مباشرة كمكوِّن للمجتمع العدني[4].

(1) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص260.
(2) المرجع نفسه، ص260.
(3) نفسه، ص261.
(4) نفسه، ص260.

وفي الوقت نفسه؛ ذكر هذا الرحَّالة فئات أخر تشكل منها المجتمع العدني- بصورة غير مباشرة - ويمكن استخلاص بعض هذه الفئات من عدد من عباراته التي أوردها في مشاهداته للشارع العدني، ومن تلك الفئات: القضاة، أمثال قاضي عدن الفقيه الصالح سالم بن عبد الله الهندي، والذي وصفه ابن بطوطة بأنه من خيار القضاة وفضلائهم، لما تميز به من كرم وجود وحسن ضيافة. ثم علماء الدين وطلاب العلم والصناع والعبيد (الغلمان) والخدم وغيرهم، مما يؤكد لنا أن عدن تكونت من تشكيلة مختلفة من الناس، إضافة إلى بعض رجال القبائل العربية التي كانت تعيش حول عدن واستقر بعضهم فيها، وبعض الوافدين إليها من تجار الهند ومصر وغيرهم[1].

وعلى أية حال، فقد تشكل المجتمع العدني من خليط من الناس، أسهمت التجارة في تكوينه، لما كان يفد على عدن من جنسيات مختلفة عربية وغير عربية، ومما لا شك فيه أن تلك الجنسيات أدَّت إلى ظهور جيل جديد من المولدين، بحكم التزاوج بين أهل عدن وغيرهم ممن استقروا فيها من التجار والعمال، ويؤكد ابن بطوطة[2] ما ذهبنا إليه عند ذكره بأن تجار الهند بمختلف مدنها وولاياتها، ومصر قد كانوا يسكنون عدن، دون أن يحدد هل سكنهم هذا إقامة دائمة - وهو ما أذهب إليه - أو مجرد لتصريف بضائعهم والعودة إلى مدنهم، ومن الطبيعي جدًا أن تحدث حالات زواج، وإنجاب للأولاد من الجيل الذي حمل الصفات العدنية والهندية، أو العدنية والمصرية وغيرها، ولنا في لقب بعض الأسر بالهندية خير دليل على ذلك التزاوج، والجيل الجديد الذي نتج عنه.

لقد أعجب ابن بطوطة بمعاملة أهل مدينة عدن وتدينهم، وتواضعهم، وأخلاقهم، وجودهم في إكرام الفقير، والإحسان إلى الضيف، وإطعامه حتى يغادر مدينتهم، مع التزامهم بما شرع الله عليهم من زكاة كانوا يخرجونهم في مواضعها الصحيحة، فقال

(1) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص259 - 261.

(2) المرجع نفسه، ص260.

عنهم: «فهم أهل دين وتواضع وصلاح ومكارم أخلاق، يحسنون إلى الغريب، ويؤثرون الفقير، ويعطون حق الله من الزكاة على ما يجب»[1]، وهي صفات تميز بها أهل هذه المدينة عن غيرهم من أهالي بعض المدن الإسلامية التي مر بها هذا الرحَّالة الشهير.

ومن صور كرم أهالي عدن التي نقلها لنا ابن بطوطة؛ تلك الموائد العظيمة التي كانت يقيمها بعض تجار المدينة بشكل ليلي، ليحضرها التجار الذين قدَّر عددهم هذا الرحَّالة بنحو عشرين تاجرًا، ومنها موائد التاجر ناصر الدين الفأري الذي كان يكرم فيها الحاضرين بما فيهم ابن بطوطة نفسه، الذي أعجب بها وبحسن الخدمات التي يقدمها خدم هذا التاجر العدني لضيوفه والذين فاق عددهم العشرين خادم[2]، وعلى ما يبدو أن من يحضر مثل هذه الولائم الليلية كانوا من مختلف فئات أبناء عدن والوافدين إليها، وليس فقط من التجار كما يصف، والدليل الحضور الدائم لابن بطوطة ومشاركته فيها كأحد الضيوف في أثناء إقامته في عدن.

لقد تميز أهالي عدن بالجد والاجتهاد بالعلم والتعليم خلال مدة الدراسة، والسعي في التحصيل العلمي، بغية تحسين الوضع الاجتماعي لدى أبناء هذه المدينة، لاسيما وأن عدن عرفت في العصر الرسولي بأنها كانت مركزًا علميًّا ليس على مستوى اليمن فحسب، بل وعلى مستوى المنطقة، لما اشتهر عنها من مدارس ومساجد كانت بمثابة منابر نور، جذبت إليها أهل العلم والعلماء من مختلف بقاع الأرض. ونستنتج من إشارة أوردها الرحَّالة ابن بطوطة أن أهل عدن اهتموا بتدريس أبنائهم وتعليمهم ليصبح لهم شأن كبير في المجتمع العدني، مثلما ذكر عن أحد الحمالين في عدن الذي اهتم بابنه ودرَّسه ليصل إلى أعلى المراكز الاجتماعية، والوظائف في المدينة وهو منصب القضاء، ويقول ابن بطوطة[3] في ذلك: «ولقيت بهذه المدينة قاضيها الصالح

---

(1) نفسه، ص260 – 261.

(2) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص260.

(3) تحفة النظار، ص260 – 261.

سالم بن عبد الله الهندي، وكان والده من العبيد الحمالين، واشتغل ابنه بالعلم، فرأس وساد، وهو من خيار القضاة وفضلائهم، أقمت في ضيافته أيامًا».

لقد شكلت المعلومات البسيطة التي أوردها لنا هذا الرحَّالة مادة مهمة وذات فائدة لمن أراد الكتابة عن وضع عدن الاجتماعي في مطلع القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، علمًا بأن أهمية هذه المادة جاءت من مشاهدات خاصة وغير مروية، عاصر كاتبها الحدث، فدونه وعلق عليه ليكون شاهدًا على هذه المرحلة في هذه المدينة العتيقة.

4- وضع عدن الاقتصادي وأهميته كما جاء عند ابن بطوطة:

اشتهرت مدينة عدن عبر التاريخ بأهميتها الاقتصادية والتجارية، بحكم موقعها الاستراتيجي المهم، وقد حظيت باهتمام المؤرخين من الرحَّالة والبلدانيين منذ القدم وفي العصر الإسلامي تحديدًا، وسعى كلٌّ من هؤلاء المؤرخين إلى كتابة مشاهداته وملاحظاته حول تلك الأهمية، حتى أصبحت مادة يتناقلها الكتاب ومن هم على شاكلتهم، وقد اتبع ابن بطوطة نهج من سبقه في وصف أهمية عدن التجاري كمدينة اقتصادية حية في ذلك الوقت، إلا أن ما ميز هذ الرحَّالة أنه نزل بهذا الموقع وشاهد بأم عينه المدينة وموقعها المهم الذي منّ الله عليها به، والذي فتح لها المجال لتكن مدينة عالمية ربطت بين الشرق والغرب. وتعد المعلومات التي وصلت لنا في أدبيات ابن بطوطة ذات أهمية خاصة لما ذكرنا من أسباب سابقًا، فضلًا عن العلاقات التجارية التي تؤكد ارتباط عدن بغيرها من مراكز الثقل التجاري العالمي في ذلك الوقت، وهو ما أعطي لهذه المدينة وتجارها وأسواقها شهرة كبيرة أسهمت في أن يذاع صيتها في الآفاق. وعلى ما يبدو أن أقوى علاقات تجارية ربطت عدن بغيرها من المراكز العالمية كان مع موانئ الهند ومصر التي اشتهرت تاريخيًا بثقلها التجاري، ويقدم لنا ابن بطوطة وصفًا لتلك العلاقات التجارية الخارجية وأهم مدن الهند الساحلية وموانئها التي كانت على تواصل تجاري دائم بها، على اعتبار أن ميناء عدن كان مرسى لتجار هذه المدن

الهندية والمصرية، حتى إنه يقول في ذلك: «وهي مرسى أهل الهند، تأتي إليها المراكب العظيمة من كنبايت وتانه وكولم وقالقوط وفندراينه والشاليات ومنجرور وفاكنور وهنور وسندابور وغيرها[1]، وتجار الهند ساكنون بها، وتجار مصر[2] أيضًا»[3].

ومما لا شك فيه، أن هذه العلاقات التجارية الواسعة جاءت بالخير الوفير على عدن وأهلها وتجارها والدولة التي كانت تحكمها (الدولة الرسولية)، وقد لفت نظر ابن بطوطة ذلك النعيم والثراء الذي وصل إليها تجارها، الذين ملكوا الأموال والأملاك، والسفن العظيمة، دون أن يشاركه أحد فيها، وقد وصل بهم الأمر إلى التفاخر والمباهاة

(1) ارتبطت مدينة عدن بعلاقات تجارية قوية مع ولايات الهند التجارية ومدنها الساحلية خلال حقبة الدراسة، ومن خلال بحثنا في بعض المصادر المعاصرة والقريبة من مدة زيارة ابن بطوطة تأكد لنا دقة المعلومات التي أوردها هذا الرحالة، عن العلاقات التجارية بين عدن والهند، وما كان يورد إلى ميناء عدن من السلع الهندية المختلفة من المدن المذكورة التي أوردها الرحالة ابن بطوطة. للمزيد انظر: نور المعارف في نظم وقوانين وأعراف اليمن في العهد المظفري الوارف، ج1، تحقيق: محمد عبد الرحيم جازم، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية، صنعاء، 2003م، ص182، 188، 260، 261، 262، 265، 359، 363، 364، 420، 426، 446، 447، 459، 466، 468، 475، 480، 496، 498، 517، 518، 523.

(2) على ما يبدو أن أعداد المصريين في عدن كانت كبيرة جدًا، وكانوا بين تجار وعلماء وعمال وطلاب وموظفين في سلك الدولة، وكان لهم تأثير على الحياة العامة في عدن، إضافة إلى غيرهم من الجنسيات الأخرى التي وجدت في عدن، ويذكر ابن المجاور الذي زار عدن وعاش فيها مدة من الزمن هؤلاء المصريين كجزء من المجتمع العدني بقوله: «وغالب سكان البلد عرب مجمَّعة من الإسكندرية ومصر والريف والعجم والفرس وحضارم ومقاديشة وجبالية وأهل ذبحان وزيالع ورباب وحبوش، وقد التأم إليها من كل بقعة ومن كل أرض، وتمولوا فصاروا أصحاب خير ونعم، وغالب أهلها حبوش وبرابر». انظر: تاريخ المستبصر، ص134. ومن الملاحظ أن المصريين لم يقيموا في عدن خلال مدة الدراسة بصورة أفراد، بل على العكس من ذلك، فقد وجدت أسر بأكملها في عدن، عاشت واستقرت هناك، وتزاوجت مع أهلها، وتطبعت بطباعهم. للمزيد انظر: الجندي، أبو عبد الله بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب (ت: 732هـ/ 1331م)، السلوك في طبقات العلماء والملوك، ج2، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، مكتبة الإرشاد، ط2، صنعاء، 1416هـ/ 1995م، ص419.

(3) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص260.

بتلك الأملاك، كما يذكر ذلك هذا الرحال بقوله: «وللتجار منهم أموال عريضة، وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه، لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الأموال، ولهم في ذلك تفاخر ومباهاة»[1].

ولم يفت ابن بطوطة وصف أساليب التعامل في أسواق مدينة عدن وما تشهده من بيعٍ وشراء، مبينًا بعض هذه الأساليب المتمثلة بالأسلوب المعروف بالمزايدة، والذي يحضر فيه المشترون ليتزايدوا في سعر السلعة التجارية، ويرفعونها حتى يصلوا به إلى مبلغ معين يعجز فيه البقية عن الرفع بأكثر من ذلك، وترسو البيعة على من يدفع أكثر المبالغ[2]، وهي من الطرق المعروفة اليوم في الأسواق العامة، وتعرف بـ: (الحراج) أو (المزاد)، علمًا بأن هذه الأسواق العدنية قد تعاملت بعملة الدينار حسب وصف ابن بطوطة[3] في بعض المواضع، ويبدو أنها العملة التي تعاملت بها الدولة الرسولية في ذلك الوقت.

ومن خلال كل ذلك، تظهر لنا الأهمية الاقتصادية التي وصلت إليها مدينة عدن في المدة موضوع الدراسة، بحكم موقعها الاستراتيجي والاقتصادي الذي جعل منها مدينة تجارية يتوافد إليها الناس للعيش والاسترزاق والبقاء، بعد انتعاش أسواقها التجارية المنظمة التي وصفها الرحَّالة المغربي الشهير ابن بطوطة كما أشرنا سابقًا.

5 – انفتاح عدن على من حولها:

بحكم موقع عدن على خط التجارة العالمي، كمركز تجاري تحط فيه رحال المسافرين وسفنهم، وتتزود به مراكب الصيد والتجارة القادمة إلى عدن أو المغادرة لها، فقد عُدَّت عدن مركز انطلاق إلى العالم الخارجي لليمن، وبوابة رئيسة، وهو ما أكده ابن بطوطة من أنه بعد بقائه في عدن مدة من الوقت، انطلق في اتجاه

(1) المرجع نفسه، ص260.
(2) نفسه، ص260.
(3) نفسه، ص260.

الساحل الشرقي لأفريقيا، والذي كان يرتبط بعدن بعلاقات قديمة، وثقتها المصادر التاريخية، كما أن عدن عُدَّت محطة أساسية للحج والتجارة بالنسبة لميناء زيلع[1] الذي انطلق ابن بطوطة إليه من عدن لاستكمال باقي رحلته الجغرافية، حتى إن هذا الرحَّالة حدد أن مدة سفرة استغرقت أربعة أيام من عدن حتى وصل إلى هذه المدينة التي وصفها بأنها أقذر مدينة بالمعمورة[2]، مما يبين لنا الفرق الكبير بين هذه المدينة وبين ما وصف به مدينة عدن التي وجد فيها وفي أهلها كل صفات الخير والصلاح والكرم والجود وغيره.

الخاتمة:

لقد توصلنا في بحثنا المتواضع هذا والموسوم بـ: ((عدن في أدبيات الرحَّالة في العصر الإسلامي ابن بطوطة أنموذجًا)) إلى عدد من النتائج والاستنتاجات التي يمكن تلخيصها في الآتي:

1 - أن كتب الرحلات تعد من أهم المصادر التاريخية التي من الممكن أن يعتمد عليها المؤرخون عند تدوين التاريخ لما لها من أهمية كبيرة، على اعتبار أن مؤلفها شاهد بأم عينه الحدث واختلط بالناس، وعاش حياتهم، ودوَّن كل مشاهداته تلك عنهم في مؤلفات من الصعب اليوم الاستغناء عنها عند كتابة تاريخ أي منطقة أو بلده.

---

(1) يذكر الرحالة والجغرافي المغربي صاحب كتاب: «الجغرافيا» أن عدن كانت محطة مهمة لحجاج أفريقيا ينزلون بها، ومنها ينطلقون برًا إلى الحجاز شمالًا، كما أنها كانت موقعًا لتصريف بعض البضائع والسلع الأفريقية، وموقعًا لانتعاش تجارة الرقيق التي منها يوزع العبيد إلى مختلف البلاد الإسلامية، ويقول في ذلك: «من مدن الحبشة المشهورة بلاد الزيلع، وأهلها مسلمون يكثرون الحج والتردد إلى ساحل عدن وزبيد، وهي محل حطّ وإقلاع، ومنها يتوزع رقيق الحبشة على بلاد الإسلام الساحلية». انظر: أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد (ت: 685هـ)، كتاب الجغرافيا، حققه ووضع مقدمته وعلق عليه: إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1970م، ص99.

(2) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص260.

2 – أن عدن من المدن التاريخية العريقة والعتيقة التي حظيت باهتمام العديد من الرحَّالة العرب والمسلمين والأوروبيين، ولم يكن ذلك الاهتمام وليد مرحلة معينة بل ظهر منذ العصور التاريخية القديمة.

3 – أن مدة التاريخ الإسلامي هي من أكثر الحقب التي دونت فيها أخبار عدن، وتاريخ أهلها الأصليين، ومن سكنها من مختلف الجنسيات من الهند والسند ومصر وغيرها، وعاداتهم وتقاليدهم، وأسلوب حياتهم وغير ذلك.

4 – أنه على الرغم مما قدمه هؤلاء الرحَّالة المسلمين وغير المسلمين عن عدن في أدبياتهم إلا أن قدوم الرحَّالة المغربي ابن بطوطة قد كان له الفائدة الكبرى في الحصول على أمور تكاد تكون دقيقة وغير معروفة لنا.

5 – أن ابن بطوطة تميز عن غيره من الرحَّالة والجغرافيين أنه دخل عدن، وعاش بين أهلها، وتلمس حالهم، وعاداتهم وتقاليدهم المختلفة، التي وصلتنا اليوم لتعطي لنا صورة حياة لوضع عدن في المدة موضوع الدراسة، وهذا ما يعطي أدبياته أهمية خاصة.



عدن في كتابات الرحَّالة الألماني (مالتزان)

مهندس/ أحمد عبدالله فضل

ملخص

سنة 1870م كانت سنة مفصلية للمحتل البريطاني في عدن، حيث بدأت مرحلة السلام مع القبائل المحيطة بها وبدأ التوغل للرحالة المدنيين في المناطق حولها.

في شتاء ذلك العام زار الرحَّالة الألماني هينريتش فون مالتزان عدن، وبقي فيها حتى ربيع 1871م، هناك التقى بجميع فئات المجتمع وعرف عن السكان ولهجاتهم وأعراقهم والحياة المدنية والعمران، وقارن ما قرأ من كتاب الهمداني «صفة جزيرة العرب» مع ما سمعه من السكان المحليين، وتنقل في المناطق القريبة حولها. ورقة العمل هذه تسلط الضوء على هذا الرحَّالة وما سجلة عن عدن وسكانها وعمرانها في أثناء أقامته فيها.

كلمات مفتاحية: عدن، مالتزان، اليمن، جنوب الجزيرة العربية

المقدمة

تهدف هذه الورقة إلى إظهار أدبيات الرحَّالة الألمان ممثلين بكتابات الرحَّالة مالتزان عن عدن خاصة واليمن عامة، وأكثر هذه الكتابات لا تزال في طبعاتها الأولى باللغة الألمانية، وبخط أُلغي في الحرب العالمية الثانية[1]، لا يظهر الآن إلا في

(1) في سنة 1941م منع هتلر استخدام خط فراكتور؛ لأنه عدَّه خطًّا يهودي الأصل وغير مستخدم في جميع مناطق ألمانيا وكان عقبة اتصال مع المناطق الأوروبية المحتلة، واستخدم بدلًا عنه خط أنتيكا Antiqua الحديث، انظر موقع Alpha History /https: / /alphahistory.com /pastpeculiar / /1941-nazis-ban-jewish-fonts

المتاحف الألمانية والكتابات القديمة. ينتفي عائق اللغة بوجود مواقع الترجمة مثل موقع قاموس كولينز[1] وموقع مترجم جوجل[2] حيث أصبح بالإمكان التعامل مع أي نصٍّ كُتِب بلغة وخط معاصرين في عصرنا هذا، عصر الاتصالات والمعلومات الفائقة السرعة، ويبقى التحدي في التعامل مع خط فراكتور القديم، لذلك كانت الطريقة لقراءتها؛ بفك بعض رموز الخط الغريبة التي لا يقرأها الحاسب، يدويًا، ومن ثم ترجمته باستخدام مواقع الترجمة، وهي عملية بطيئة، لكن المعلومات المستخلصة قيِّمة وشيِّقة، وكانت حافزًا للاستمرار، وكشف الصورة البانوراميـة التفصيلية التي وصفها مالتزان لعدن وسكانها وعاداتهم وتقاليدهم، بين عامي 1870 و 1871م. لم تكن الترجمة لإعادة إصدار الكتاب باللغة العربية، بل ترجمة شخصية لقراءة محتويات الكتاب.

أسلوب كتابات الرحَّالة مالتزان كان سردًا قصصيًّا دراميًّا لقصص حدثت له خلال رحلته وإقامته في عدن، وكان يصف كل ما رآه وسمع عنه، والكتاب أشار إلى عدة مقالات عن جنوب الجزيرة العربية للرحالة، وبنفس الطريقة تمت قراءتها، وهكذا جمُعَتْ المعلومات، ونقلت في هذه الورقة.

قُسمت ورقة العمل إلى: مقدمة وستة مباحث؛ تناول المبحث الأول نبذة عن الرحَّالة وكتاباته، وتناول المبحث الثاني الحياة في عدن، والثالث وصف للمعالم التي شاهدها، والرابع موجز لبحثه عن السكان، والخامس عن التجارة في ميناء عدن، وأخيرًا موجز عن العادات والتقاليد في عدن والمناطق التي حولها، بالإضافة إلى خاتمة لنتائج البحث، وملحق بجدول احتوى على عدد السكان، وخارطة توضيحية نشرها الرحَّالة في كتابه.

---

(1) https: / /www.collinsdictionary.com /translator موقع قاموس كولينز.

(2) https: / /translate.google.com / موقع مترجم جوجل.

نبذة عن الرحَّالة وكتاباته:

حياته: هو البارون هينريتش من عائلة مالتزان النبيلة في ألمانيا، أشتهر بلقب مالتزان[1]، ولد في 6 سبتمبر 1826م، بالقرب من دريسدن في ألمانيا من أب ألماني وأم إنجليزية، كان والده ضابطًا كبيرًا في جيش الفرسان البافاري. عاش مالتزان بداية طفولته في إنجلترا، ثم انتقل إلى ألمانيا بعد وفاة والدته سنة 1836م، من 1846 إلى 1850. درس القانون واللغات الشرقية وعلم الإنسان «الإنثروبيولوجي» في ميونيخ وهايدلبرغ وإيرلانجن. بدأ حياته المهنية موظفًا إداريًّا في مملكة ساكسونيا لفترة قصيرة، في سنة 1851م، قام برحلات قصيرة في أوروبا، وزار بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وإيطاليا.

توفي والده سنة 1852م، وفي تلك الفترة عانى من مرض صدري غير معروف ونصحه الأطباء بزيارة البلدان الدافئة في الشتاء. استخدم ميراثه من ثروة العائلة، لتوسيع نطاق رحلاته، وعاش حياة باحث ورحالة مستقل ماديًا، وهذا ما ميزة عن بقية الرحَّالة.

في سنة 1852م زار الجزائر، وفي سنة 1853م زار شمال المغرب وتونس وطرابلس. وفي شتاء 1853 – 1854م زار اليونان ومقدونيا وآسيا الصغرى ومصر، وعاد إلى أوروبا عبر سيناء وفلسطين وسوريا. وفي شتاء 1856–1857م سافر إلى مقاطعة قسطنطين والصحراء الجزائرية، وفي شتاء -1857 1858م ذهب إلى جنوب المغرب. قضى أطول رحلاته متنقلًا في الجزائر التي زارها عدة مرات. وفي أثناء إقامته في الجزائر، تحسنت معرفته باللغة العربية والإسلام، وتعلم الصلاة والوضوء وحفظ أجزاء من القرآن الكريم عن ظهر قلب[2]، لذلك قرر السفر إلى مكة المكرمة دون أن يعتنق الإسلام، وكان قد خطط مسبقًا لهذه الرحلة منذ عام 1853م، خلال رحلته الأولى إلى

(1) von Friedrich Ratzel, "Maltzan, Heinrich von",Allgemeine Deutsche Biographie, herausgegeben von der Historischen Kommission bei der Bayerischen Akademie der Wissenschaften, Band 20,1884, ص 153–154.

(2) حفناوي بعلي، صحراء الجزائر الكبرى: في الرحلات وظلال اللوحة وفي الكتابات الغربية، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، 2017، ص155.

مصر، وذلك عندما التقى الملازم الشهير ريتشارد بيرتون[1]، الذي كان قد عاد للتو من رحلة الحج، فذهب إلى الحجاز وحج بيت الله الحرام في سنة 1860م، مستخدمًا جواز سفر حج اشتراه من جزائري اسمه «سيدي عبدالرحمن بن محمد السكيكدي». بعد الحج، اكتشف أمره في مكة، فهرب من مكة عن طريق ضواحيها، حيث اشترى حمارًا واستأجر دليلًا ينقله إلى جدة[2]. كانت في ميناء جدة سفينة إنجليزية متجهة إلى بمباي، فحجز فيها، توقفت السفينة في عدن لفترة قصيرة، ثم أبحرت إلى وجهتها. مكث شهرًا هناك ثم رجع إلى أوروبا، على الرغم من أنه دَوّنْ تفاصيل هذه الرحلة في كتابه «حجتي إلى مكة» طبع عام 1865م في 750 صفحة، إلا أن هناك باحثًا من مواطنيه شكك بأنه ذهب أصلًا إلى الحجاز[3].

بين أعوام 1860 و1867م، عاش بالتناوب في أوروبا والجزائر، وعمل محررًا في صحيفة ألمانية، ودرس الآثار الفينيقية والنقوش الخاصة بها، وفي سنة 1868م زار جزيرة سردينيا وبقي فيها عدة شهور، ومنها عاد إلى تونس وطرابس والجزائر. في سنة 1870م، ذهب إلى مصر والساحل الشرقي الإفريقي وزار مصَوَّع وعدن كباحث جغرافي ومستكشف أنثروبيولوجي، واتخذ من عدن مقرًا لتنقلاته في المناطق القريبة منها، بقي هناك طوال شتاء 1870م وحتى نهاية ربيع عام 1871م، عاد بعدها إلى ألمانيا ونشر عدة مقالات عن جنوب الجزيرة العربية، وفي سنة 1873م نشر كتابه الأخير عن رحلته في جنوب الجزيرة العربية.

---

(1) Sir Richard F. Burton, PERSONAL NARRATIVE OF A PILGRIMAGE TO AL-MADINAH AND MECCAH, LONDON: TYLSTON AND EDWARD, 1893.

(2) Augustus Ralli,Christians at MECCA,London, William Heinemann,1909 ص199

(3) Ulrike Freitag,Heinrich Freiherr von Maltzan's "My Pilgrimage to Mecca": A Critical Investigation,The Hajj and Europe in the Age of Empire,Umar Ryad (Editor),Leiden Studies in Islam and Society,Vol 5,2017,BRILL ص142-154

في الأيام الأخيرة من حياته عانى من اضطراب عصبي شديد، ففي 22 فبراير سنة 1874م، انتحر في مدينة بيزا الإيطالية بطلقة في القلب.

مختارات من أعماله: سجل رحلاته وملاحظاته في عدة كتب ومقالات في مجلات متخصصة ألمانية، والتالي قائمة بأبرز كتبه:

- ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا[1]، رحلة في الجزائر والمغرب، أربعة مجلدات طبع عام 1863م، ترجم للعربية.
- حجتي إلى مكة[2]، رحلة في المنطقة الساحلية وفي المناطق الداخلية من الحجاز، مجلدين طبع عام 1865م، ترجم للعربية.
- صور من التقاليد التونسية والجزائرية طبع عام 1869م[3].
- رحلة في جزيرة سردينيا، بالإضافة إلى ملحق: حول النقوش الفينيقية لسردينيا طبع عام 1869م، ترجم للإيطالية.
- رحلة في رحاب تونس وطرابلس، ثلاثة مجلدات طبع عام 1870م، ترجم للعربية[4].
- رحلة إلى جنوب الجزيرة العربية والبحوث الجغرافية في وحول الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية طبع عام 1873م[5].

---

(1) هاينرش فون مالتزان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ترجمة أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.

(2) هاينريش فون مالتزان،رحلة حجي إلى مكة - رحلة إلى المناطق الساحلية والداخلية لبلاد الحجاز، ترجمة ريهام نبيل سالم، دار الحكمة لندن، 2018.

(3) Maltzan، Heinrich von،Sittenbilder aus Tunis und Algerien،Leipzig،Dyk، 1869

(4) هاينريش فون مالتزان، في رحاب طرابلس وتونس، ترجمة عماد الدين غانم، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2008.

(5) Maltzan،Heinrich von، Reise nach Südarabien und geographische Forschungen in und über den südwestlichen Theil Arabiens، Braunschweig، 1873

وله قصائد شعرية كثيرة[1]، نشرها في دواوين، عبَّر في بعضها عن ازدرائه للاستعمار الفرنسي للجزائر.

كتاباته عن جنوب الجزيرة العربية: بداية السبعينات من القرن التاسع عشر حصل مالتزان على ما تبقى من مسودَّات ومذكرات مواطنه أدولف فون فريدي[2]، الذي يعد أول أوروبي قام باستكشاف المناطق الداخلية من «حضرموت»، نشرها مالتزان في كتاب سنة 1870م، حفَّزه هذا على الذهاب إلى جنوب الجزيرة العربية في شتاء عام 1870 للقيام ببحوث استكشافية من عدن، وتكملة لما بدأه فريدي، فالمنطقة كانت حتى ذلك الحين تعد إلى حد كبير، كما قال: «إقليم غير معروف»، وكانت غايته الأخرى لغوية، وهي دراسة لغة المهرة[3]. عندما عاد إلى ألمانيا نشر مقالات عن رحلته في مجلة ألمانية متخصصة[4]، ومن ثم جمع كل كتاباته ومسوداته عن الرحلة في كتاب نشره سنة 1873م.

القسم الأول من الكتاب يصور رحلة مالتزان البحرية إلى جنوب الجزيرة العربية، ابتداء من مصر وساحل البحر الأحمر إلى أن وصل عدن، ويقدم صورة أدبية مثيرة للإعجاب من مختلف شرائح السكان في المدن الكبرى التي مر بها مثل جدة ومصَوَّع، أما عدن فكانت محطته الأخيرة في هذه الرحلة، حيث خصص لها ثلاثة فصول، بالإضافة إلى المقارنات بينها والمدن والمناطق الأخرى في بقية الفصول، وقدَّم لها صورة بانورامية تفصيلية رائعة. والقسم الثاني كرس لدراسات مالتزان الجغرافية والإثنوغرافية، عن جميع مناطق القبائل والأقليات في عدن وحولها كلًا في فصل مستقل، يتخللها قصص وروايات درامية حصلت له خلال رحلته.

---

(1) حفناوي،صحراء الجزائر الكبرى، ص157.

(2) Wrede, Adolph von,Reise in Hadhramaut, Beled Beny ‘Yssà und Beled el Hadschar,Hrsg. Heinrich Freiherr von Maltzan,Braunschweig,1870

(3) Maltzan,Südarabien ص89

(4) مجلة Globus دورية جغراقية وطنية ألمانية كانت تصدر من مدينة براون شفايغ (Braunschweig) الألمانية.

استقر مالتزان في عدن طوال مدة إقامته في جنوب الجزيرة العربية، وقام برحلات قصيرة وسريعة حولها (انظر الخارطة في الملحق)، حيث أقصى نقطة وصل إليها غربًا كانت بير أحمد وعدن الصغرى، وشمالًا إلى الحوطة، وشرقًا إلى شُقْرَة، وبدأ بحثًا منهجيًا عن بقية المناطق التي لم يزرها، فكان يقابل يوميًا عددًا معينًا من العرب من جميع المناطق الداخلية، منهم السلاطين والمشايخ والتجار والجمالون والبحارة والصيادون الذين كانوا يزورون عدن، وأيضًا زار بعض المساجين، وكان يسألهم عن أسماء مختلف الأماكن الطوبوغرافية والأنساب والعادات والتقاليد. لقد جمع بهذه الطريقة أكثر من 10،000 اسم للأودية والجبال والقري والمدن والقبائل والأدوات وغيرها، كما أشار، سجل أغلبها كما سمعها باللفظ العربي. لقد كان لديه شكوكه في دقة المعلومات التي حصل عليها، ولحسن الحظ، كما قال، أنه كانت لديه نسخة من كتاب الهمداني، صفة جزيرة العرب، كان قد حصل عليها من عدن، وكان يرجع إليها للتأكد من الأسماء.

نقد لكتاباته عن جنوب الجزيرة العربية:

قال الرحَّالة بلجريف[1] إن الجزء الجنوبي من الجزيرة العربية كان محل اهتمام كبير؛ لأنه بدا وكأنه مهد العرق العربي الأصيل، وأضاف حتى الوقت الحاضر (سنة 1872م)، كان الشخص الأكثر استكشافًا لتلك المنطقة هو نيبور الشهير، وعندما تم نشر المعلومات التي حصل عليها البارون فون مالتزان، ينبغي أن نكون سعداء للغاية لمعرفة مدى تطابق البيانات؛ ليس فقط مع البيانات المعطاة في الأعمال المعروفة، ولكن أيضًا مع البيانات الجديدة التي أضافها هو بنفسه.

---

(1) Proceedings of the Royal Geographical Society VOL. XVI.Session 1871–72. Mos. I. to V. ص122.

وعلى النقيض، انتقده المستشرق السويدي كارل لاندبرغ[1] بشدة في أكثر من مكان في كتابيه (لهجة دثينة، ودراسات في اللهجات العربية الجنوبية)، ووصف بعض ملاحظاته بأن ليس لها معنى، وقال إنه لا يستحق أن يعطى أي اعتبار، فكتابه عن جنوب الجزيرة العربية فيه كثير من الأسماء المكَسَّرة والبيانات الخاطئة. في حين يرى الدكتور هيلبريتش[2] أن كتابات مالتزان، التي جمعها في عدن من السكان الأصليين لشرق اليمن وحضرموت، أعطت معلومات كثيرة ومتنوعة، وهذه المعلومات أصبحت إلى حد كبير، إن لم تكن كليًا، قديمة في ضوء التحقيقات الأكثر شمولية من الكونت لاندبرغ في البلاد بين اليمن وحضرموت، ومع ذلك، كما أكد الدكتور هيلبريتش، فإن لمالتزان الفضل في أن لديه اهتمام بجغرافيا وانثروبيولجي المناطق العربية في دوائر واسعة، وأنه أعطى الكثير من المعلومات الجديدة، وإن لم تكن دقيقة أحيانًا، حول هذه الموضوعات، وقال إنه قد فتح آفاق جديدة من خلال رواياته عن دثينة ويافع وبيحان وغيرها، كشفت للعالم الغربي معلومات كانوا يرونها من خلال زجاج معتم.

الحياة في عدن

الانطباع الأول: بدا للرحالة فور دخول السفينة التي أقلته إلى عدن، إلى مدخل الميناء، حقيقة أن عدن كانت جزءًا من الهند الشرقية سياسيًا، فقد صعد إليها قبطان الميناء ليوجه رسوها، وهو هندي يجيد الإنجليزية بطلاقة، ثم صعد هندي آخر من البانيان لشراء الفحم، ولم يشاهد أي عربي في الميناء، بخلاف ما توقع[3].

المناخ: كتب أن عدن لطيفة للغاية في الشتاء، ونادرًا ما كانت تزيد درجة الحرارة عن 20 درجة مئوية في الهواء الطلق، و 22 في الغرفة، وكانت تهب الرياح من الشمال الشرقي

(1) LE COMTE DE LANDBERG, ÉTUDES SUR LES DIALECTES DE L'ARABIE MÉRIDIONALE,DEUXIÈME VOLUME.DATINAH,E. J. BRILL. – LEIDE,1909 ص290

(2) Hilprecht, H. V.,Explorations in Bible lands during the 19th century,Philadelphia Holman, 1903 ص710

(3) Maltzan,Südarabien ص140

من نوفمبر إلى نهاية أبريل، وينتشر السعال الديكي في تلك المدة، ونزلات البرد ليست شائعة، والموسم الأكثر صحة كان الصيف على الرغم من الحرارة المرتفعة للغاية، والإصابة بضربة الشمس التي قد تكون قاتلة أحيانًا.

شبه جزيرة عدن: لاحظ أن عدن مقسمة إلى قسمين، غربي وشرقي، حيث استهل وصفه لعدن بقوله: إن الإنجليز أطلقوا اسم معسكر[1] «Camp» على المدينة، وقد برر الاسم بصغر مدينة عدن عندما استولوا عليها، حيث لم تكن تستوعب القوات، فنصبوا معسكرًا وأطلقوا على الجزء الغربي «مرسى البواخر البخارية »، "Steamer Point"، وكتب: «وعادة ما يطلق عليه «مرسى[2]»، والمنطقة كلها عدن»، وأضاف:" قد يسأل أحدهم: هل تعيش في الكامب أم في المرسى؟ لا أحد يقول، «أنا أعيش في عدن»؛ لأن هذه الإجابة غامضة جدًّا». أكد على أن العرب أطلقوا على القسم الشرقي مدينة «عدن»، كما كان يطلق عليها منذ القدم، وكما هو صحيح، أشار إلى أن عدن كانت تعتمد جزئيًا على مياه البحر المقطرة التي يتم إنتاجها بكميات كبيرة، وأن سعر المياه هنا كان أرخص من سعرها في مصَوَّع وجدة[3].

المعلا: ذكر أن الميناء ليس في «المرسى»، ولكن في المعلا حيث ترسو «السواعي»، (قوارب السكان المحليين)، ولم يذكر أكثر من ذلك.

المرسى: سكن فور وصوله عدن في فندق بالقرب من المرسى يديره رجل أعمال فارسي[4]، وبجواره نُزل صغير يديره فرنسي، وكلاهما يمتهن التصوير الفوتوغرافي،

(1) Maltzan,Südarabien ص142, المكان يشير إلى «كريتر», لكنه لم يذكر الاسم بهذا اللفظ في الكتاب مطلقًا, وكان دائماً يشير إليه بـ»المدينة», لذلك أشير إليه في هذه الورقة باسم «مدينة».

(2) دائمًا ما يشير إليها بكلمة «point", وفي هذه الورقة ترجمتها إلى كلمة «مرسى» وهي الأقرب للمفهوم بدل من الترجمة الحرفية, كلمة «نقطة».

(3) Maltzan,Südarabien ص155.

(4) Maltzan,Südarabien ص146, كتبت "Parsi" , أحد أفراد طائفة الفرس, انظر ص12, منزل الموت البارسي.

وأكد أنه سكن في المرسى؛ لأنه لا يوجد فنادق في المدينة[1]، وأن المتجر الذي يملكه الفارسي يحتوي على كل شيء، وقال إنه نادرًا ما يشاهد عربيًّا في «المرسى»، وكتب: «ويمكن أن تتخيل نفسك في إنجلترا إذا لم تكن درجة الحرارة مرتفعة»، ورصد الطريق من «المرسى» إلى «المدينة» وأشار إلى مرتفعاته وانحداراته الحادة وطوله الذي حوالي 6 أميال إنجليزية، وأن أجرة العربة من الميناء إلى المدينة كانت 3 روبية، والرحلة كانت تستغرق حوالي ساعة، وأضاف أن التجار الذين غالبًا ما يعملون إلى وقت متأخر في الميناء، يضطرون بالتالي إلى امتلاك سكن هنا وسكن آخر في الكامب، حيث الجو هنا أكثر برودة والسكن في فندق البارسي ليس تجربة ممتعة.

عدن المدينة: ذكر أن المدينة مقسمة إلى قسمين غير متساويين بينهما ساحة رملية كبيرة، وهي سوق الماشية، القسم الغربي يعيش فيه العرب والهنود والسيبوي (sepoys)[2]، وفي الشرق توجد أفضل المتاجر والمنازل الراقية، وهو قسم الفرس واليهود وبعض المسؤولين الإنجليز.

الحي المحلي: عندما انتقل للمدينة استأجر طابقًا في بيت، ووصف المكان بأنه كان صاخبًا جدًا، حيث التصميم الزاوي للشقق متداخل في بعضها البعض وفُصل فقط عن طريق الجدران الخشبية، وكان يسمع غناء الحفلات والحديث حوالي 50 من الجيران وزوجاتهم وأطفالهم[3]، كما قال، وأن هذه الضوضاء جعلت حديثه مع العرب الزوار أمرًا صعبًا للغاية، لذلك انتقل واستأجر بيتًا كاملًا من طابقين في المنطقة المحلية، وأشار إلى أن ما كان يضايقه في المنطقة المحلية هو الأدخنة في النهار، وخاصة التي تسببها مداخن الـ«الكانون»[4] (المواقد المتنقلة) الموجودة في فناء صغير

(1) F.M.HUNTER,AN ACCOUNT OF THE BRITISH SETTLEMENT OF ADEN IN ARABIA,1877 ص9, أشار إلى أن هناك فندقين في المرسى سنة 1877م.

(2) Collins English Dictionary [12th Edition], 2014 , جندي هندي في خدمة البريطانيين.

(3) Maltzan,Südarabien ص147.

(4) Maltzan,Südarabien ص148, "Kanun" كتبها حسب اللفظ المحلي كما سمعها, ووصفها

في كل بيت، على الرغم من أنه كان لديه فناء صغير مفتوح، إلا أنه لم يكن ليتمكن من الهروب من الدخان المنبعث الذي يأتي من مائة موقد من منازل السكان المحليين، كما وصف، وكان لا يستطيع أن يستخدم السطح، لأن أَفْنِيَة بيوت السكان المحليين مكشوفة وقد تظهر المحارم، وقد حاول مرة وصعد إلى السطح ووصف عاقبة هذا أنه كاد أن يتسبب في «ثورة»، حيث هرع إليه السكان من كل بيت يتهموه (بالتبصص) على حريمهم، وهذه جريمة فظيعة، وهذا هو العُرفْ في جميع المدن العربية كما قال، وألمح: «وبما أنه لا يوجد أوروبيون آخرون يعيشون هنا في الحي العربي، فقد حافظت على ذلك»، وأضاف أن كل ما بقي له هو الشرفة في الطابق الأول، الذي كانت محاطة بالجدران، ومفتوحة فقط في الأعلى، وكان يتعرض للبعوض في النهار، واشتكى من العقارب، حيث كان يقتل عقربًا كل يوم. أما في الليل فيكون الجيران قد ناموا ويختفي الدخان المنبعث ويأتي الهواء من الشرفة، وتكون درجة الحرارة لطيفة للغاية، حوالي 20 درجة، وكان لديه شبكة ناموسية يستخدمها لكي ينام، وكتب: «جميع العلاجات المقترحة الأخرى لا تساعد في طرد البعوض». وكان يرى أن إيجار البيت رخيص، حيث كانت تُكلفه 10 روبيات في الشهر، وكان معه خادم نوبي وكان يكلفه وطعامه بالكاد 20 قرشًا كل يوم، ومع ذلك قال: «عِشتُ جيدًا».

ذكر أن أدوات المطبخ والبقالة متوافرة في سوق عدن، مقارنة ببعض البلدان الفقيرة في أوروبا وجدة وسواكن ومصَوَّع، وأن عدن هو المكان الوحيد في الجزيرة العربية حيث

بـ"المواقد المتنقلة" ,tragbaren Kochherden"""، انظر أيضًا: Le Conte de LANDBERG,GLOSSAIRE DATINOIS, PREMIER (أ – ذ),LIBRAIRIE ET IMPRIMERIE,CI–DEVANT,E. J. BRILL – Leide,1920 ص83, كتب لاندبيرغ [موقد الكانون يسمّون المَوقِد إلي يشتلّ من مكان لَمكان], on appelle Kanun le foyer qui se laisse transporter d'un endroit a l'autre, car le est fixe"، انظر أيضًا: موقع أطلس المأثورات الشعبية المصرية, 2018 /2 /9, http: / /www.gocp.gov.eg /Atlas /atlas01 /10.html الكانون: وهو عبارة عن حجرين متوازيين يعلوهما قرص من الصاج أو الحجر ويشعل تحتها لإنضاج الخبز.

كان يمكن العثور على البطاطا وبعض الخضار (الملفوف واللفت والباميا) والفواكه، وقارن: أنه في جدة كان هناك الموز فقط، وأن تكلفة الدجاج في عدن 8 قروش فضة (في مصَوَّع فقط 4)، الزبدة الأصلية (السمن) تقريبًا لا يأكلها الأوروبيون، ولطهو لحم الخروف كان يُستخدم شحم الخروف، ولكن كما كتب: «لتجعل هذا سائلًا يحتاج طِباخة خاصة»، ذكر أن لحم الخروف جيد ورخيص، ولكنه شديد الدهون، أما لحم الثور غير متاح دائمًا لأنه غالي، وهو جيد، وأن حلوى التمر المضغوط جيدة وهي مفيدة للبطن(1).

الكامب: قال إن الإنجليز في عدن، إلى جانب رجال الدين والموظفين المدنيين، كلهم من العسكريين، وبعضهم غير متزوجين، وكل منهم يشغل منزلًا خاصًا به، مع ترتيبات كاملة ومعقدة في كثير من الأحيان، وأن الجميع لديه مدبر منزلي، وخدم، وطباخ تمامًا كما في الهند، وسمع أن تكلفة معيشة الضابط الإنجليزي حوالي 3,000 جنيه أسترليني سنويًا. كتب منتقدًا تكاليف معيشة الضباط حيث قال: إنه في كل عام كان يأتي ضباط إنجليز ولكل منهم منزله الخاص المؤثث بشكل جيد، الذي يحتوي على الطعام والشراب الممتاز، ويقيم فيه حفلات العشاء، ويدفع ويغذي حوالي ثمانية أو عشرة من الخدم، ولديه ثلاثة أو أربعة خيول في الإسطبل، وأبقار لإنتاج الحليب، مع تكاليف الملابس، والفرش، والكتب، وكذلك أسلحة الصيد التي تأتي من إنجلترا، أكد أن هذه الأشياء كانت مُكلفة، وقال إنه بتدبير جيد، في عدن، كان يمكن أن تحصل على الترف نفسه بثلثي، أو حتى نصف التكلفة، وأضاف: أن الضباط الإنجليز كانوا لا يحْسِبُونْ، وكانوا يقولون: «عش ودع غيرك يعيش»، وبالمقارنة أكد على أنه في إنجلترا، كان يمكن أن تحصل على وسائل الراحة نفسها بما لا يقل عن 2,000 جنيه إسترليني. استطاع الوصول إلى المجتمع الرسمي الإنجليزي في حفلات العشاء وتمكن من إثبات الفخامة التي كان يتمتع بها أعلى ضابط إنجليزي، وهو الوكيل السياسي (هذا اللقب يرأسه الحاكم)، ووصف جميع الأطباق في بيت الحاكم بأنها كانت

(1) Maltzan,Südarabien ص148.

ذات نوعية ممتازة، وهي غير متوافرة هنا، وأن مساعده لم يكن أقل منه في الترف، الذي وصفه بالقبطان البسيط، وكان لديه راتب عالٍ كمدني مؤقت. كتب أن معظم الإنجليز يبنون منازل كبيرة على ساحات واسعة وغالبًا على التلال، بالإضافة إلى النوادي، وكان لديهم موردون في إنجلترا، الذين يستوردون كل شيء مباشرة إليهم، وهذا يؤثر سلبًا على تجارة التجزئة في عدن، لأنه كما كتب: «هؤلاء السادة لا يحتاجون إلى أي شيء يشترونه من هنا». ذكر فتيان بنكا[1] (وهي مروحة كبيرة معلقة) الموجودين في جميع البيوت الإنجليزية وهم كانوا في الغالب صوماليين أو هنود شرقيين صغار السن، الذين كانوا يقومون بتحريك مراوح البنكا في غرف النوم والطعام، وقال عنهم:» أنهم يتشبثون بهذه الخدمة، التي تغريهم، يؤسفهم فقط أن معظم الإنجليز لا يسمحون لهم بالغناء“[2]، وأشار إلى أنه عادة ما كان يتم وضعهم على كرسي عالٍ بسطح ضيق وبدون سند، بحيث كان لا يمكن أن يغفون دون السقوط، وكانوا يقومون بتحريك المراوح طوال الليل. كتب أن الأثاث الأوروبي لا يتحمل حرارة الجو، ويتدمر بسرعة في المناخ المحلي، وأن الأثاث في بيوت الإنجليز كان يُجلَب من الهند في كثير من الأحيان، ولم يكن قطع مُجَمّعَة، وكان في الغالب قطعة واحدة. كتب متعجبًا: «رأيت طاولات طعام ضخمة، بلاطة وأرجلًا في قطعة واحدة!»، وأشار إلى تكلفة هذا الأثاث الباهظة الثمن، وألمح إلى أن هذا الأثاث كان من الأجيال الماضية حيث كان كل مسؤول إنجليزي يُنقَل هنا يشتري أثاثًا من الهند؛ لأنه نادرًا ما كان يبقى طويلًا، فيبيعه لخَلَفه، وعادة ما يكاد يكون دون خسارة. وكتب في وصف الخشب: «الخشب جميل جدًّا وذو جودة عالية، بني داكن أو أسود، مع لمعان طبيعي»[3]. ووصف منزل تاجر فرنسي استضافه هو السيد «تيان»، وكتب بأنه كان كبيرًا جدًا يحتوي على غرف فيها فتحات واسعة للتهوية، ومحاطًا بشبك على الشرفات، وكان في جدران هذه الشرفات تجاويف كثيرة

(1) Maltzan,Südarabien ص150, كتب:“ أي أولئك الذين يحافظون على تحريك المروحة“.
(2) Maltzan,Südarabien ص151.
(3) Maltzan,Südarabien ص147.

مغطاة بالقصب التي تسمح بدخول الهواء، وتمنع ضوء الشمس. وكتب: «بدون هذه الشرفات العميقة، لن تتمكن من العيش هنا، بسبب الحرارة وبسبب البعوض».

معالم عدن:

كان يصف ما رآه في عدن وهو يسرد قصصًا مطولة حدثت له فيها، لذلك استخلص منها الوصف للأماكن مرتبة حسب ذكرها:

- **الكنيسة الإنجليزية**[1]: وصف المبنى بأنه جديد وجميل وعلى الطراز القوطي الذي أصبح حديثًا في إنجلترا كما أشار، ويقع على جبل، وأشار إلى التعرض لحرارة الجو حتى الوصول إليه، وكتب أنه يتم تبريد المكان من قِبل كثير من فتيان البنكا، وهم صبية من الهنود الشرقيين المسيحيين يحركون مراوح يدوية عليها صلبان كثيرة.

- **الصهاريج**: رأى أنها أكثر الأماكن إثارة للاهتمام في عدن، واهتم بها الإنجليز؛ لأن المياه التي تجلب من الشيخ عثمان غير صالحة للشرب ولا تصلح إلا للغسيل [2]، والمطر لا يهطل بانتظام في أشهر الشتاء، وقد تمر ثلاث أو أربع سنوات تقريبًا دون هطول أمطار، وبرر الحاجة لخزانات مياه كبيرة لامتصاص المياه وحفظها إلى سنوات الجفاف، حيث أشار إلى ترميم الصهاريج التي تم اكتشافها، والتي تقع في وادٍ جنوب غربي المدينة عند سفح جبل شمسان، وأن الوادي نفسه يشكل الصهاريج، حيث أرضيته وجدرانه كلها متكونة من صخور صلبة، تحتاج فقط إلى تغطية بالجص للحفاظ على المياه بعد بناء الأقفال. وعن الأقفال قال: «وهي نفسها القديمة». ووصف توزيع وتخزين المياه بالتفصيل من الصهريج الأعلى إلى الأسفل حتى فيضانه إلى البحر، وسجَّل السعة التخزينية للعشرة الصهاريج التي تم ترميمها حتى سنة 1871م بـ 8،884،892 غالون، وقال إن المياه كانت قد فاضت منها أربع مرات فقط خلال الـ50 سنة الماضية. وصف الحديقة التي زرعها الإنجليز عند الصهاريج وقال: إن بها

(1) Maltzan,Südarabien ص151.

(2) Hunter,Aden ص11 أيضاً أشار إلى هذا.

عدة نباتات نادرة مثل أشجار البخور التي لا تزرع إلا في الصومال والمهرة، وذكر نبتتين بالاسم: «باسويليا كارتيري و باسويليا باهو داجانا»[1] (Boswellia Carterii Boswellia Bhau Dajana)، التي تعطي رائحة عطرة فوَّاحة، وقال إنها المنطقة الوحيدة المزروعة في عدن، وأن الحاكم كان يقيم احتفالات ليلية في الصهاريج، حيث تمنحها الأضواء الساطعة والحديقة بصيصًا سحريًّا.

– **التحصينات**: ذكر أنه سمع من ضباط إنجليز أن التحصينات كانت غير كافية لصد الهجمات البحرية، وأن هناك أعمال تجري للاهتمام بذلك، وأضاف أن عدن محصنة بحريًّا وبريًّا ضد هجمات العرب المحليين، أما التحصينات البرية فهي رائعة، حيث جميع الجبال مزودة بأسوار وبوابات وبطاريات مدفعية. ووصف مالتزان قلعة «البرزخ»، حيث قال إن العرب يطلقون عليها «جبل حديد»[2]، وهي فوهة بركانية محاطة بصخور من ثلاث جوانب، والجانب الرابع يكون سهلًا مفتوحًا عندما يتراجع البحر، ومحصنة بثلاث صفوف من الخنادق والأسوار وبطاريات مدفعية، وفي المساء عندما تغلق الأنفاق، تكون عدن جزيرة مغلقة من الصعب الوصول إليها. وذكر تحويلة في الطريق من الميناء إلى المدينة وهي جديرة بالاهتمام من خلال الأنفاق الطويلة والبرزخ، ويعدُّ هذا الطريق حادًّا، ويسير فوق تلة لا تكسرها سوى «بوابة صخرية»[3] في منتصف الطريق، وأنها تغلق في الليل، وقال «لا يمكن الذهاب إلى المدينة بعد غروب الشمس بدون إذن خاص من الحاكم».

– **جزيرة صيرة**: ذكر أن في الجزيرة قلعة عربية قديمة، يربطها جسر بالبر الرئيس وتقع على الجانب الجنوبي الغربي من المدينة، وأنه في زمن فريدي[4] (سنة 1843م)

---

(1) انظر تعريف هذه النباتات في: Ethelbert Blatter,Flora of Aden. Records of the Botanical Survey of India,Volume VII,Number 1,calcutta,1915 ص153.

(2) Maltzan,Südarabien ص156 , هكذا كتب الاسم: « "Gebel Hadid".

(3) يقصد العقبة – باب البر.

(4) Wrede, Hadhramaut ص44.

كان فيها مرسى لأنه أبحر منها، والآن لا ترسوا السفن على الجانب الغربي. وذكر أن العرب يعتقدون أن قبر قابيل فيها، ويرتبط ذلك بالأسطورة التي تقول إن عدن هي «جنة عدن»[1].

– **سوق الماشية الكبير**: وصفه بأنه ساحة واسعة رملية تشبه إلى حد كبير قاع مجرى وادي جاف يقسم المدينة إلى نصفين غير متساويين، وفيه تعرض القوافل بضائعها، وقد رأى فيها العرب الجنوبيين السُمر يمتطون الجمال بالقرب من الرقبة بدلًا من خلف السنام بتوازن ورشاقة، ويقفون في صفوف طويلة، ووصف المنظر بأنه رائع ويستحق التأمل والرسم؛ لرشاقة الفرسان والجمال، وأن المكان مليء بالحياة والنشاط. ووصف الأغنام الصومالية البيضاء السمينة الجميلة ذات رؤوس سوداء، وليس لديها أي بقعة على الجسم، والمواشي العربية المختلفة المظهر، والثيران الشبيهة بالجاموس، وقال إنه أحيانًا يرى غزالًا، وجِمال السباق الجميلة، والجمال العادية لجر العربات. وأكَّد أن الخيول نادرة، حيث قال: «جنوب الجزيرة العربية ليست بلد خيول»[2].

– **المنارة**: كتب: «على قطعة شاغرة في الشرق تقف منارة ضخمة، وهي آخر بقايا عرب عدن القدماء، خلاف ذلك، لا يوجد شيء هنا يذكر، الآثار التركية التي وصفها الجغرافي ريتر[3] لم تعد مرئية».

(1) Maltzan,Südarabien ص156.

(2) Maltzan,Südarabien ص156.

(٣) الموسوعة البريطانية, Carl Ritter, كارل ريتر (1779 – 1859م), جغرافي ألماني يعد أحد مؤسسي علم الجغرافيا الحديثة، أيضًا انظر: ALEXANDER VON HUMBOLDT UND CARL RITTER,VON LEOPOLD VON ORLICH,REISE IN OSTINDIEN, IN BRIEFEN AN, LEIPZIG,VERLAG VON MAYER UND WIGAND, 1845 في ص275 كتب ريتر "استولى الإنجليز على هذا المكان قبل خمس سنوات «, وأضاف «الثكنات الجديدة تلتقي بالمباني وبالعديد من الآثار القديمة، مما يوحي بأن المكان كان أكثر أهمية في الماضي. في الوقت الحاضر لا تزال توجد آثار البرج التركي وبعض الأسوار وبعض الأبراج الصغيرة على قمم الجبال».

- **مسجد العيدروس**[1]: وصف المساجد بأنها صغيرة، وبعضها جديد وبعضها تم ترميمه مؤخرًا، واستطاع الوصول إلى مسجد العيدروس بسهولة، ووصفه بأنه مسجد صغير وجميل وذو طراز شرقي وهو مجدد حديثًا، حيث كتب: «رممه مؤخرًا أحد المتدينين من الهنود الشرقيين المسلمين»، وذكر أن الوصي على المسجد، وكان من سلالة العيدروس التي تعيش هنا، متسامحًا للغاية، حيث أعطاه علبة من رماد البخور الذي يحرق لتبخير المكان كهدية.

- **منزل الموت البارسي**: كان في عدن طائفة فارسية تعرف باسم «الزرادشتيون»[2]، وتشتهر باسم «الفرس»، وهي لا تدفن جثث موتاها، بل تضعها في مكان مفتوح لتفسد في الهواء الطلق وتتغذى عليها الطيور الجارحة، ولأسباب صحية، بطبيعة الحال، يجب أن يكون هذا المكان بعيدًا بشكل معقول عن المناطق المأهولة بالسكان، بدا لمالتزان المكان قريبًا من المدينة نسبيًّا، وقال إن الإنجليز يسمُّونه «برج الصمت» وهو يقع على قمة تل صخري بركاني بالقرب من الصهاريج ويمكن الوصول إليها في غضون 20 دقيقة من عدن، وأضاف أن هذا القرب لم يكن يبدو ضارًا، وذلك قد يُعزى جزئيًا إلى هبوب الرياح المستمر التي نادرًا ما تمنع وصول الضرر إلى المدينة، وبشكل جزئي إلى صِغَر المجتمع المحلي للطائفة البارسية، وأنه كان من الصعب الوصول إلى المكان، والزيارة لا تُسْمَح إلا للموظفين الرسميين. وقد وصف له المكان الكابتن مايلز[3]، الذي كان لديه تصريح بالزيارة، وقال له إن المبنى دائري، مفتوح في الأعلى وفي الوسط حفرة عميقة، يتم فيها إلقاء العظام بعد تحلل الجثث، وحول هذه الحفرة توجد ثلاثة

---

(1) Maltzan,Südarabien ص157.

(2) عالم المعرفة, المعتقدات الدينية لدى الشعوب, 173, ذو القعدة، 1413هـ, ص116.

(3) صامويل باريت مايلز(1839–1914م) كان مساعد الحاكم في عدن من 1866 إلى مارس 1869م, رجع إلى عدن كرحالة سنة 1870م لاستكشاف المناطق الداخلية حول عدن, في سنة 1872م عين مقيمًا سياسيًّا في مسقط. انظر, S.B.Miles, Account of an Excursion into the Interior of Southern Arabia,Proceedings of the Royal Geographical Society of London, Vol. 15, No. 5 (1870 – 1871), ص319–328.

أسوار على شكل حلقات، يتم وضع جثث الأطفال في الحلقة الداخلية، والوسطى لجثث النساء، والخارجية لجثث الرجال، وتنجذب إليها الطيور الجارحة في المنطقة كلها، والنتيجة ليست جيدة على الإطلاق، حيث أن جميع الصخور حول منزل الموت ملطخة بالفضلات البيضاء من هذه الطيور، التي تتراكم لأن المطر نادر، وأنه قد قيل له (أي مايلز) إنه قبل حوالي عشر سنوات حاول مزارع إنجليزي في استغلال هذه الفضلات «النبيلة»، بحيث تتحول إلى سماد فريد، لكن الطائفة استخدمت كل شيء، حتى المال، لمنعه[1].

- **المعابد الأخرى**: كتب أن الهنود البانيان لديهم قاعة يستخدموها كمعبد لهم، يوجد فيها تماثيل لشخصيات إلاهية خاصة بهم، والمعبد كان بسيطًا للغاية، لكنه يبدو رائعًا في الأمسيات الاحتفالية مع الإضاءة الليلية، وكان بجواره مبنيان صغيران لصلوات اليهود، وأضاف أن الكنيسة الكاثولوكية موجودة هنا، ويخدمها رهبانٌ تبشيريون إيطاليون، والمبنى كبير حيث المجتمع الكاثوليكي هنا كبير مع الهنود الشرقيين المسيحيين المهجنين بين البرتغاليين والهنود، وهي أيضًا مدرسة داخلية تبشيرية[2].

سكان عدن[3]

أشار إلى أن عدن كانت تعاني من عدم وجود مياه كافية، ولا ينمو شيء مفيد فيها، وأن الإنجليز حاولوا تقليل عدد المهاجرين إليها، وسياستهم كانت أن تبقى عدن صغيرة، ودلل على ذلك بالقول: «سيكون عدد السكان الكبير محرجًا في حالة الحصار، حيث تعتمد عدن على المناطق المجاورة لجميع احتياجاتها»[4]، وأكد أن هذه الظروف نفسها هي التي عرقلت الحد من الهجرة، حيث من الصعب منع العرب

(1) Maltzan,Südarabien ص158
(2) Maltzan,Südarabien ص158
(3) Maltzan,Südarabien , ملخص من الفصل التاسع عشر, سكان عدن, ص160 – 172.
(4) Maltzan,Südarabien ص160.

وهم المزودون الرئيسون للسوق، أو الصوماليون المتاجرون في الماشية، أو التجار الهنود الذين يساهمون في غذاء أبناء وطنهم وتزويدهم بما هو ضروري لهم، وأضاف أنه لن يقوم أي شخص من هذه الشعوب باختيار عدن على المدى الطويل لغرض رحلة عمل، إذا لم تكن هناك جالية صغيرة من أبناء وطنه فيها، لذلك سياسة الحد من الهجرة غير قابلة للتنفيذ إذا أردت المحافظة على مدينة صغيرة ذات احتياجات كبيرة، حيث يستهلك شخص إنجليزي واحد ما يزيد عن عشرين سلعة، لذلك كان توسيع المدينة مشروطًا منذ البداية.

الأعراق: يرى مالتيزان أن ذلك قد ساعد في تعدد الأجناس بالمدينة، وبذلك أصبحت مدينة ملائمة لدراسة التعدد الاثني والعرقي، وأشار إلى هذا التعدد العرقي وحدد مناطق قدومه إلى عدن بالساحل الشرقي لإفريقيا وغرب الهند وأثيوبيا، والصومال، وقد دلل على التنوع الأنثروبيولوجي من خلال الملامح البيلوجية بأشكال تلك الأعراق والأجناس، فوصف الشفاه والجبين والأنف والذقن وحجم الصدر والطول واللون، وعن أسلافهم ومع من تزاوجوا في السابق، والتالي مختصر لما كتبه عنهم:

الهنود المسيحيون: وهم هجين من البرتغاليين والهنود، ويغلب الدم الهندي، وبشرتهم تميل للسمار الشديد، ويتصرفون ويلبسون مثل الأوروبيين، ويعملون كبار خدم عند الإنجليز، ويَنظَمُّون للخدمة العسكرية كسيبوي، وبعضهم أتى للتجارة، وأغلبهم شباب وقله من العوائل[1].

الهنود المسلمون: وهم هنود أصليون، أتوا إلى الجزيرة العربية بسبب دينهم، ومنهم كبار السن الذين لم يجدوا قط فرصة في الهند، حيث كانوا يعيشون بين الوثنيين، أتوا لدراسة دينهم، ويتعلمون القرآن حتى في سن الشيخوخة، موقفهم الاجتماعي عادة ما يكون أكثر من متواضع، وهم الخدم العاديون في المنازل الإنجليزية، وتتألف قوة

(1) Maltzan,Südarabien ص161.

السيبوي من نصفهم تقريبًا، والآخرون هم صغار التجار والحرفيون والخياطون والجزارون وعمال النظافة[1].

عرب عدن الأصليون: العرب من سكان عدن الأصليين هم من السكان عندما استولت إنجلترا عليها، حيث كان عدد السكان 600 نسمة، نصفهم من اليهود، تحتل عائلة العيدروس المقام الأول، والبعض الآخر مسؤولون في المساجد، ومنهم الكتبة، والتجار الصغار والكبار.

عرب من لحج: ومعظمهم من سهل محيدان وأماكن أخرى من سلطنة لحج، أكثرهم من التجار الصغار، والحرفيين، وبعض الدراجين غير النظاميين في الخدمة المدنية أو الخدمة المسلحة للحكومة.

عرب من حضرموت: الحضارم لديهم أعمال تجارية صغيرة.

عرب من الحجرية: كانوا قدموا قبل مدة قريبة من زيارة مالتزان، وهم عمال بالأجر اليومي ومرافقين للشخصيات.

عرب من رداع ويريم وذمار: كل الناقلين للمياه كانوا منهم، وأكثر (الشيالين)[2].

عرب من زبيد والحديدة: هؤلاء من الطبقة المتوسطة، وأكثرهم الكتبة، ومنهم قاضي السكان المحليين في عدن، وهو يحكم في قضايا مسلمي عدن البالغ عددهم 18,000 نسمة، وأيضًا على قضايا الحالات الصغيرة بين أشخاص من ديانات مختلفة.

عرب القبائل[3]: (القبائل الحرة) وهم قبائل الداخل، لا يهاجرون إلى عدن، ويحتقرون كل شيء برجوازي، وقد هاجر بعض الرعية[4] المسالمون منهم، من سكان المراكز التجارية في الداخل لاسيما من البيضاء ورداع، ويعملون في تجارة التجزئة للبضائع المحلية مثل التمر والتنباك والقشر.

---

(1) Maltzan,Südarabien ص161.

(2) Maltzan,Südarabien ص162, كتبت هكذا Shayyalin

(3) Maltzan,Südarabien ص163, كتبت هكذا Qobäyel

(4) Maltzan,Südarabien ص163, كتبت هكذا Raye

الصوماليون: في الصيف يقدر عددهم حوالي 600،5 نسمة، وفي الشتاء قد يصل العدد إلى أكثر من 10،000 نسمة، لأن في الصيف الرياح الموسمية الجنوبية الغربية تجعل الإبحار من الموانئ الصومالية متعذرًا، ويعملون في بيع المواشي الصومالية، وبعضهم في القوارب، وصيادون، وآخرون يعملون في أعمال معظمها خفيفة مؤقتة، والشرطة المحلية توظف جزءًا بسيطًا منهم، ورئيس الشرطة المحلية صومالي.

هنود البانيان: ويشكل هؤلاء أفراد الطبقة التجارية الهندية الجزء الأكثر أهمية من سكان عدن، حيث جميع منافذ بيع الجملة، وجميع البنوك ومعاملات الصرافة في أيديهم، كما في كل مكان حيث يعيش البانيان. وذكر مصَوَّع على سبيل المثال، لقد أصبحوا ملاك الأراضي هنا أيضًا، حيث غالبية منازل عدن هي ممتلكاتهم.

الزنوج: أكد أنه لا يوجد عبيد في عدن، وهم القسم الأكبر تحت اسم «آخرين غير محددين» في الجدول الملحق، وهم العبيد المحررين من قبل السفن البريطانية، يؤتى بهم هنا لنقلهم لأوطانهم، ومعظمهم لا يريدون العودة؛ لأنه قد يقبض عليهم تجار العبيد في الطريق من الساحل، لذا على الحكومة أن تصرف عليهم، ويقدمون خدمات مجانية لجميع الأوروبيين، لكن لا أحد يريدهم، الزنجي الذي يأتي حديثًا من إفريقيا كان عديم الفائدة تمامًا، حيث يجب أن يتم تدريبه أولًا، والأوروبيون لا يصبرون عليهم، خصوصًا كعمال جدد، وكان أكثرهم مشردين.

البارسيين: باستثناء طريقتهم المشؤومة في الدفن، التي قد تجلب الأمراض للبلد، إلا أنهم الأكثر عقلانية من جميع الشرقيين، ويعملون في التجارة، ومظهرهم أنيق.

مسلمون آخرون في عدن: يقدر عددهم بـ 100 نسمة، وهم من الأفغان والفرس وبعض الأتراك ومنهم المليونير «حسن علي».

اليهود: اليهود هنا كانوا يعتمدون على العمل اليدوي، وكانوا أذكياء جدًّا، لاسيما في صنع الأسلحة والمعدات العسكرية للعرب، وفي بعض الأحيان يعرفون كيف يفعلون الأشياء بطريقة أنيقة جدًّا.

التجارة:

من كتابات الرحَّالة يمكن استخلاص حجم التجارة بين عدن والموانئ في البحر الأحمر بالإضافة إلى المناطق في جنوب الجزيرة العربية التي ذكرها، وأشار في أثناء حديثه عن مصَوَّع إلى حجم الصادرات والواردات بين عدن ومصَوَّع، حيث كان قد حصل على تقارير التصدير والاستيراد للنصف الأول من سنة 1864م، وكانت الواردات من عدن؛ الأرز، التمور، التنباك، السكر، خشب الصندل، زيت القرنفل، وبعض المصنوعات الهندية بقيمة إجمالية تصل إلى 6 مليون فرنك فرنسي، والصادرات إلى عدن كانت؛ العاج، واللؤلؤ، وتراب الذهب، بقيمة إجمالية تصل إلى 450 ألف فرنك فرنسي، والصادرات تذهب إلى الهند[1]، كما أشار، وصلت 21 ساعية (سفن شراعية ذات حمولة من 20 إلى 100 طن) من عدن خلال المدة نفسها. وفي أثناء حديثه عن جدة شرح أسباب المنافسة الشديدة على تصدير البن من جزيرة العرب بين مينائي عدن وجدة[2]، وذلك بسبب تدهور مينائي الحديدة والمخا. بالنسبة للمناطق الداخلية، القطن الخام يجلب إلى عدن من مناطق إنتاجه، في أبين ويافع، وبعضه ينسج فيها والباقي يصدَّر[3]. الملح الصخري يأتي من أرض قبائل آل خليفة من المحاجر[4]، الخضار والفواكه وأعلاف الماشية والخشب كانت تأتي من لحج[5]، البن، ويعد المنتج الرئيس، كان يأتي من يافع والضالع ومناطق زراعته في الجبال، والمشغولات اليدوية كانت تأتي من عدة مناطق.

عادات العرب وتقاليدهم في عدن والمناطق الداخلية:

القسم الأكبر من كتاباته، وهدف رحلته الرئيس كان لمعرفة المناطق التي لم يزرها فريدي، لذلك كتب وصفًا تفصيليًا يشمل تضاريس المناطق وأنساب وتعداد القبائل،

---

(1) Maltzan,Südarabien ص116.

(2) Maltzan,Südarabien ص79.

(3) Maltzan,Südarabien ص258.

(4) Maltzan,Südarabien ص247.

(5) Maltzan,Südarabien ص341.

والعادات والتقاليد والزي، والقرى والمدن التجارية والمنتجات الزراعية. وبحثه شمل منطقة واسعة بدأت من بلاد الواحدي شرقًا إلى بلاد الصَّبِّيحة غربًا، وشمالًا من لحج إلى صنعاء ومأرب وقبائل حاشد وبكيل، وهو بحث مطوَّل سجَّل بعضه في زياراته القصيرة للمناطق حول عدن، والباقي سجلها في عدن عن طريق بحثه الممنهج. التالي وصف عام للسكان وزيهم وبيوتهم وعاداتهم ولهجاتهم:

بحثه الأنثروبولوجي للسكان: كمثال لما فصَّله عن سكان المنطقة، أسرد جزءًا بسيطًا مما كتبه عن السكان العرب حيث ذكر أن أغلبهم ينتمون إلى جد واحد، وبالكاد يستطيع المرء أن يتكلم عن نوع عام يشمل العرب سكان عدن الأصليين، فإذا وضعنا شخصين أو ثلاثة أشخاص من طبقات مختلفة بجانب بعضهم البعض، وإذا قارنا مظهرهم، يصبح من الواضح لنا للوهلة الأولى أنهم لا ينتمون إلى أصل واحد. من بين العديد من التدرجات في هذه الأنواع المختلفة من العرب، هناك، على الأقل، ثلاث فئات رئيسة، والذي أسميه سكان المدينة، والبدو، والمنبوذين، ويمثل سكان المدينة الأصليين، جزئيًّا من عدن نفسها، وجزئيًّا من صنعاء، وتقريبًّا يمثلون النمط العربي الأوسط. إن معالمهم ملحوظة للغاية ومقطعة بشكل حاد، وجوههم طويلة جدًّا وسامية، وأنوفهم في بعض الأحيان في نمو هائل ومعكوفة تشبه منقار النسر، بنية أطرافهم أقوى من بنية اليهود، ولديهم شعر قليل في الوجه، وبالكاد ينمو فقط على الذقن والشفة العليا، لديهم القليل من اللحية، وتعبير الوجوه ذكي، والعين صغيرة، وغالبًا ما تكون عميقة، ودافئة دائمًا ومتألقة بنار متلألئة، الشفاه صغيرة، والأفواه ذات أبعاد ضئيلة جدًّا، هم عمومًا نحاف، ونادرًا ما يكونون بدينين، شعرهم طويل، ولكن مجعَّد، وليس أكرد.

اللهجة: ذكر أن حرف القاف في عدن ينطق مثل G في كلمة (Good)[1]. ويلاحظ أنه في جميع فصول الكتاب كان يذكر أسماء الأدوات والمواد والأماكن كما كان يسمعها

(1) Maltzan,Südarabien ص177.

باللغة العربية، مستخدمًا الحروف الإنجليزية مركبة كما ينطقها الإنجليز، وكان دائمًا يضيف شرحًا بسيطًا لهذه الكلمات، وفي أي منطقة ذكرت.

البيوت: الأغنياء يسكنون بيوتًا كبيرة تشبه القلاع ومبنية بالحجر، بارتفاع ثلاثة أو أربعة طوابق، مع أبراج، وشرفات محصنة، وفتحات للطلقات. أما الناس العاديون فيسكنون أكواخًا من القش أو جذوع النخيل.

زي الرجال: في جنوب الجزيرة العربية بشكل عام بالكاد يرتدون أي ملابس، لا شيء، حسب وصفه، باستثناء مئزر فضفاض كبير من الخصر إلى الركبتين، وعمامة صغيرة للرأس لونها أزرق أو أبيض. في الحجرية يرتدي الرجال قميصًا ومشدًّا (شال) ويربط من جانب واحد بشكل فضفاض، ولونه أيضًا أزرق أو أبيض. في يافع العليا، في فصل الشتاء القارس البارد، يتلفع الناس بجلود الحيوانات، وخاصة جلود الغنم، ويسمى «جرم». والكماليات الوحيدة هي أسلحتهم؛ البندقية الطويلة مع قرنيتين من بودرة البارود، والجنبية، وهو خنجر غني بالزخارف الفضية، وبعضهم يرتدي السيف المستقيم الذي يدعى «نمشا».

زي النساء: المرأة كانت ترتدي تنورة طويلة، في منطقة الضالع وما حولها، كن يرتدين قميصًا داكنًا وأقمشة حريرية غنية فوقها، وجميعهن لديهن شال، في الضالع وحولها يدعى «شيدر» Scheider (في عدن «شون» Chonne)[1]. ويتدلى قماش على الوجه كله على نحو سلس ودون ثغرات للعيون (كما هو الحال في عدن)، لكنه لا يمنعهن من رؤية الكثير. في الحجرية ترتدي النساء بنطالًا نيليًا وقميصًا وحجابًا (يطلق عليه اسم «شايل»). في أرض الرصَّاص ترتدي النساء قميصًا وغطاءً أزرق داكنًا، يغطين به وجوههن عندما يقابلن الرجال، بحيث تصبح عين واحدة فقط مرئية، ويعلق الشعر بعمق في الجبين. في لحج ترتدي النساء سراويل طويلة من القطن الملوَّن، ذات عرض متوسط، تصل إلى الكاحلين ويربط فيهما، وهن محجبات بحجاب بسيط.

(1) Maltzan,Südarabien ص369.

مواد التجميل: الحُسْن «Hösn» هو أحمر خدود، يستخدم في لحج. لتلوين الأظافر بالأسود كان يستخدم خليط من الشيدر والعطرون "Atrun"، "Scheider" وغيرها من المكونات. ذكر هورود برتقالي وهورود أصفر، مع هذا الأخير، الذي هو الأكثر شعبية، يتحول الجسم كله إلى اللون الأصفر، والذي هو جميل بشكل خاص. ولقد رأى في عدن نساء يهوديات مصبوغات بالأصفر، كن يخرجن دون حجاب.

الختان: إجباري في اليوم السابع من الولادة لكلا الجنسين وخصوصًا في المناطق الساحلية، لكن في الضالع ليس إجباريًا للإناث.

القهوة والقشر: سكان عدن المحليون ولحج وسكان المناطق الساحلية يشربون القشر (Gischr) ولا يشربون القهوة أبدًا[1]. أما البدو في عدن والمناطق المرتفعة فيشربون القهوة مع الحليب، وكتب:»حتى إنهم يعتقدون أن القهوة السوداء غير صحية، لذا فهم يستمتعون بالقهوة مع الحليب».

المأكولات الشعبية: الأكلة الشعبية الشائعة في جميع أنحاء جنوب شبه الجزيرة العربية هي الهريس، «Heris»، مصنوعة من اللحم والزيت أو الزبدة ودقيق الذرة، وهو نوع من عصيدة دقيق الذرة. الطبق المفضل في لحج هو «Baciffa»[2] مصنوعة من العسل والزبدة والدقيق، وأحيانًا يخلط مع اللحم. واللحم كان يستهلك «نوعًا ما مشويًا»، إلا أن أحد الأوجه عادة ما يكون نيئًا، بينما الوجه الآخر يكون محترقًا عند تناوله.

القات: يجعل مضغ أوراق القات التي تنمو على جبل صبر في تعز، أو الضالع متعة في مجالس الأغنياء، وهو غالي الثمن في لحج وبقية المناطق، ورخيص في الضالع. إن تأثير مضغ هذه الأوراق ليس مخدرًا، ولكنه يعطي استرخاءً؛ إنه يجعل الشخص ثرثارًا وودِّي ومؤنس، وتكرَّس مدة ما بعد الظهر كله للقات. إذا لم يكن هناك قات يأتي من

(1) Maltzan,Südarabien ص346.

(2) Maltzan,Südarabien ص347, لم أجد ترجمة للاسم "Baciffa".

الجبال، يكون الناس في حالة بؤس، ويخلدون للنوم كثيرًا، ويكون المزاج سيء للغاية. والقات أحيانًا يدمر العائلة، حيث الرجل الفقير الذي مصروف عائلته اليومي عانتان (قرشان ونصف)، يحتاج 4 عانات لكي يشتري قاتًا، وسيحزن إذا لم يحصل عليه[1].

ملاحق:

1 - جدول بعدد السكان كما قدَّرهم سنة 1871م:

أعراق السكان	العدد
الأوروبيون و المسيحيون من شرق الهند (من ضمنهم الجنود)	2,000
المسلمون من شرق الهند (من ضمنهم السبوي)	4,000
العرب	6,000
الصومال	5,600
مسلمون آخرون	100
البانيان وغيرهم من الهنود الشرقيين (ضمنهم العديد من السبوي)	8,000
بارسيين	130
اليهود	1,900
آخرون غير محددين	2,000
المجموع[2]	29,730

2 - جزء من خريطة تشمل اليمن كاملًا نشرها مالتزان كملحق في كتابه، توضح المسارات التي سلكها هو والرحَّالة من قبله. في هذا الجزء يظهر المسار الذي سلكه مالتزان، حيث أقصى مكان ذهب إليه غربًا كان بلاد العقربي وعدن الصغرى، وشمالًا الحوطة في لحج، وشرقًا شقرة في بلاد الفضلي. الجزء المضلل بالأحمر هو الذي كان محتلًا من قبل الإنجليز سنة 1871م.

(1) Maltzan,Südarabien ص370.

(2) Hunter, Aden ص9, عدد السكان حسب الإحصائيات سنة 1872م كان 722,22 نسمة.

خاتمة:

في الختام أقترح التالي:

1 - تبّني ترجمة كتب ومقالات مالتزان والرحَّالة الألمان عن جنوب شبه الجزيرة العربية، بتكليف مترجمين معتمدين ومراجعة من أخصائيين في التاريخ الحديث.

2 - الطريقة المستخدمة لجمع المعلومات والترجمة، التي ذكرت في المقدمة، نسبة دقتها تصل إلى ٪85، لذلك ورقة العمل هذه تعد تعريفًا لكتابات مالتزان عن عدن وجنوب الجزيرة العربية، ولا تعد بأي حال من الأحوال مصدرًا أو مرجعًا عربيًّا لكتابات مالتزان أو عن عدن أو جنوب الجزيرة العربية، ودائما يرجع للكتاب الأصلي أو الترجمة المعتمدة.

المصادر والمراجع

المصادر:

1. Maltzan,Heinrich von, Reise nach Südarabien und geographische Forschungen in und über den südwestlichen Theil Arabiens, Braunschweig, 1873
2. von Friedrich Ratzel, "Maltzan, Heinrich von",Allgemeine Deutsche Biographieherausgegeben von der Historischen Kommission bei der Bayerischen Akademie der Wissenschaften, Band 20,1884,
3. Wrede, Adolph von,Reise in Hadhramaut, Beled Beny 'Yssà und Beled el Hadschar,Hrsg. Heinrich Freiherr von Maltzan,Braunschweig,1870

المراجع:

1. حفناوي بعلي، صحراء الجزائر الكبرى: في الرحلات وظلال اللوحة وفي الكتابات الغربية، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، 2017.
2. هاينرش فون مالتزان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ترجمة أبي العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.
3. هاينريش فون مالتزان، رحلة حجي إلى مكة - رحلة إلى المناطق الساحلية والداخلية لبلاد الحجاز، ترجمة ريهام نبيل سالم، دار الحكمة لندن، 2018.
4. هاينريش فون مالتزان، في رحاب طرابلس وتونس، ترجمة عماد الدين غانم، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2008.
5. عالم المعرفة، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، 173، ذو القعدة 1413هـ.
6. Richard F. Burton, PERSONAL NARRATIVE OF A PILGRIMAGE TO AL-MADINAH AND MECCAH, LONDON: TYLSTON AND EDWARD, 1893.

7. Augustus Ralli,Christians at MECCA,London, William Heinemann,1909

8. Ulrike Freitag,Heinrich Freiherr von Maltzan's "My Pilgrimage to Mecca": A Critical Investigation,The Hajj and Europe in the Age of Empire,Umar Ryad (Editor),Leiden Studies in Islam and Society,Vol 5,2017,BRILL

9. Maltzan, Heinrich von,Sittenbilder aus Tunis und Algerien,Leipzig,-Dyk, 1869

10. LE COMTE DE LANDBERG, ÉTUDES SUR LES DIALECTES DE L'ARABIE MÉRIDIONALE,DEUXIÈME VOLUME.DATINAH,E. J. BRILL. - LEIDE,1909

11. Hilprecht, H. V.,Explorations in Bible lands during the 19th century,Philadelphia Holman, 1903

12. F.M.HUNTER,AN ACCOUNT OF THE BRITISH SETTLEMENT OF ADEN IN ARABIA,1877

13. Le Conte de LANDBERG,GLOSSAIRE DATINOIS, PREMIER LIBRAIRIE ET IMPRIMERIE,CI-DEVANT,E. J. BRILL -,(أ - ذ) Leide,1920

14. Ethelbert Blatter,Flora of Aden. Records of the Botanical Survey of India,Volume VII,Number 1,calcutta,1915

15. ALEXANDER VON HUMBOLDT UND CARL RITTER,VON LEOPOLD VON ORLICH,REISE IN OSTINDIEN, IN BRIEFEN AN, LEIPZIG,VERLAG VON MAYER UND WIGAND, 1845

16. Proceedings of the Royal Geographical Society VOL. XVI.Session 1871-72.Mos. I. to V

17. موقع Alpha History

/https://alphahistory.com/pastpeculiar//1941-nazis-ban-jewish-fonts

18. موقع قاموس كولينز

https://www.collinsdictionary.com/translator

19. موقع مترجم جوجل https://translate.google.com/

20. موقع أطلس المؤثورات الشعبية المصرية، 9/2/2018،

http://www.gocp.gov.eg/Atlas/atlas01/10.html

عدن في الكتابات الغربية..... سوزان دالغرين أنموذجًا

الدكتورة أسمهان العلس
جامعة عدن

تزخر الذاكرة الشرقية بالكثير من المفردات الواصفة لعلاقات الشرق بالغرب. ومازالت هذه الذاكرة على تعدد مصادرها - الغربية والشرقية ومنها العربية والإسلامية - تختزن العديد من الأحداث التاريخية الراصدة للتدخل الأوروبي في بلدان الشرق. وحول هذه القضية اختلفت الأقلام الباحثة حول تعريف دقيق للكتابات الغربية عن الشرق. بل وانقسم الباحثون في تعريفهم للكتَّاب الأوروبيين أنفسهم ما بين مسمى(مستشرقون)، أو (كتاب غربيون مختصون بالدراسات الشرقية) أو (أقلام أوروبية). وانتقل الكثير من الباحثين إلى رصد دوافع الكتابات الغربية وتوصيفها، وعلاقة الباحث بالدوائر الرسمية بل والأكاديمية. كما اختلف الأوروبيون في توصيف كتاباتهم، مما يدفعنا نحن الأقلام الباحثة في ندوة (عدن في الكتابات الغربية) ألَّا نتغافل عن هذه الأطروحات أو نتجاهل توصيفها، خاصة وأن التفكير والبحث في هذه الكتابات سيمنحنا مجالًا أكثر وضوحًا في توصيفها وتحديد دوافعها وإطار توظيفها بل وشخوص هذه الكتابات.

تستقيم هذه الورقة على ثلاثة ملامح أساسية، يتعلق الأول منها بحدود العلاقة بين الشرق والغرب - مفهومها ومضمونها وتأثير التحولات السياسية عليها. ويغطي الملمح الثاني الإطار العام للكتابات الغربية حول عدن، فيما يقدم الملمح الثالث أنموذجًا لهذه الكتابات، وذلك من خلال كتابات (سوزان دالغرين) عن عدن وقضايا المرأة فيها.

الملمح الأول:- العلاقة بين الشـرق والغرب - مفهومها ومضمونها وتأثير التحولات السياسـية عليها

يختلف الباحثون في تحديد جذور العلاقة بين الشرق والغرب، فقد صنّف العلم هذين الموقعين بأنهما مجالان جغرافيان محددان. وفي الوقت ذاته فإن المعطيات التاريخية جعلت من هذين المجالين غير ثابتين، إذ تتسارع على أراضيهما جملة هائلة من الأحداث التاريخية، بل إن هذه الأحداث تدور حولهما. كما تغيرت أنظمتهما السياسية بصورة جعلت التغير في هذه النظم سمة بارزة. وفي الوقت الذي ظلت الجغرافيا لكل من الشرق والغرب ثابتة، فإن التحولات التاريخية قد جعلت من الغرب تحديدًا تجمعات سياسية متنوعة، فالجغرافيا ثابتة والتاريخ يتحرك من حولها. وهذا ما يشجعنا على الدعوة للبحث في المسميات والتعريفات حتى ننصف الحقيقة التاريخية. ولعلنا لن نختلف في أن الخارطة التاريخية لاتصال الشرق بالغرب كانت تتمحور في المحطات التالية:-

- عبور الجيوش العربية البحر الأبيض المتوسط في القرنين السابع والثامن، وفتح الأندلس والنفاذ حتى أعماق فرنسا، إلى أن صدّ الغرب العرب. وظل العرب لمدة ستة قرون في الأندلس، حيث أغرقت اللغة والحضارة العربية أراضي أوروبا، في الوقت الذي ظلت معرفة العرب بالأوروبيين ومعرفة الأوروبيين بالعرب ظلت محدودة.
- الحروب الصليبية (من القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر)، التي اتخذت الصليب شعارًا لها سعيًا إلى تحقيق هدفها. واتسمت الصورة الأوروبية عن العرب في هذه المرحلة بشيء من الاعتدال على عكس سابقتها.
- الكشوف الجغرافية في القرن الخامس عشر، التي ضمت حملاتها كتّاب وباحثين في شؤون الشرق.
- مرحلة الاحتلال الأوروبي الاستعماري للمدن الشرقية الذي تأسست منذ بدايات القرن التاسع عشر وامتدت حتى النصف الثاني من القرن العشرين.

واعتمدت القوى الاستعمارية المسوح الجغرافية والكتابات آليات ممهدة للاحتلال الفعلي على الأرض لهذه المدن.

ووفقا لمضمون هذه الخارطة، فإن الأقلام الباحثة في مكونات هذه الخارطة قد تجد مسميات مختلفة لها في كل محطة من المحطات المذكورة أعلاه. كما أن الباحثين الأوروبيين قد شكَّلوا حضورًا ملحوظًا في التواجد الغربي الأوروبي على الأراضي الشرقية. فقد وفّر لهم ذلك إغناء معرفيًّا عن المدن الشرقية مهما كانت دوافع ذلك التواجد.

ولم يقتصر اهتمام الأوروبيين بالكتابات الشرقية على تلك الأقلام التي رافقت التحركات الأوروبية إلى مدن الشرق، كما أسست الجامعات الأوروبية تقليدًا أكاديميا رائدًا بإقدامها على إنشاء أقسام وكراسي علمية ذات صلة باللغات والديانات والموروث الشعبي والآثار.

وعلى الرغم من الظهور المبكر للعلاقات بين الغرب والشرق إلا أن تعريف الكتابات الغربية وتأطيرها في مسمى محدد لم يظهر إلّا في القرن السادس عشر، وجاء ذلك متزامنًا مع الثورة على الكنسية البروتستانية وظهور الثورة الصناعية. وقد تزامن مع هذين الحدثين التاريخيين ظهور الطباعة العربية وإصدار الكتب، وتأسيس كراسي أكاديمية وأقسام علمية في الجامعات الغربية، وإنشاء جمعيات علمية. كما أن الكتابات الشرقية لم توصف في مسمى محدد قبل القرن السادس عشر. وفي عام 1779 ظهر مفهوم الاستشراق في كل من إنجلترا وفرنسا. وأدرج هذا المفهوم في قاموس الأكاديمية الفرنسية في عام 1838 للمرة الأولى[1].

وفي خضم هذا التحول في أوساط الكتّاب الغربيين تزايدت فاعلية الكتابات الأوروبية حول الشرق، بل إنها تعاظمت في موضوعاتها ودوائرها وجسور تواصلها مع الأوساط الرسمية في بلدانها. فقد شهدت سنوات القرنين السابع عشر والثامن عشر نشاطًا تنافسيًّا

(1) عبد العزيز بن سعد الدغيثر، الاستشراق والمستشرقون، نظرة تحليلية، مقال، موقع الكتروني.

في السيطرة على الطرق التجارية المؤدية إلى المحيط الهندي المتحكم بمداخل بلدان الشرق. وانتشرت في مياهه التجمعات الغربية المتطلعة للتحكم والاستعمار لمدن الشرق. وشهد العالم بروز النظام الاستعماري الدولي في المنطقة ذاتها، والذي كان البحث العلمي في المجتمعات الشرقية أبرز آلياته. وظهرت في البلدان الاستعمارية دوائر وأقسام متخصصة في البحوث الشرقية، فيما ظلت الأقسام الأكاديمية المؤسسة في الجامعات الأوروبية تنهل من بلدان الشرق بما يؤسس لها حقولًا ودراسات علمية كبيرة عن الشرق.

ظهور مفهوم الاستشراق وموقف إدوارد سعيد من هذا المفهوم:

بظهور مفهوم الاستشراق في القرن الثامن عشر فإن الأوساط العلمية قد حددّت مضمونه بأنه مصطلح يقوم على قاعدة لغوية، مأخوذ من كلمة شرق. كما عرّف قاموس أكسفورد المستشرق بأن الشخص المتبحر في دراسات الشرق.

وفي المدة ما بين 1975-1976 درس أدوار سعيد[1] مفهوم الاستشراق ومضمونه وتأثيره على بلدان الشرق. ووصف إدوارد الاستشراق بعدم الدقة والتشكل على أسس الفكر الغربي تجاه الشرق. وعلق في كتابه الصادر لاحقًا عن الاستشراق بأنه تحيُّز مستمر وماكر من دول مركز أوروبا تجاه الشعوب العربية الإسلامية.

ويرى أدوار سعيد في الاستشراق أنه صورة أعّم من صور البحث الأكاديمي. ويعده هذا الباحث تقليدًا أكاديميًّا يقوم على التمييز المعرفي والوجودي بين الشرق والغرب. وتطورت هذه النظرة في أواخر القرن الثامن عشر حتى أصبحت أسلوبـًا في التعامل مع الشرق من أجل الهيمنة عليه. ويؤكد إدوارد أنه إذا عُدّ القرن الثامن عشر نقطة انطلاق عامة في الاستشراق إلى حد بعيد، فإنه يجب أن نناقش هذا المفهوم بصفته المؤسسة الجماعية للتعامل مع الشرق، والتعامل معه معناه التحدث عنه واعتماد صورة معينة

---

(1) إدوادر سعيد، الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء، الطبعة الأولى، مؤسسة الأبحاث العربية، 1981، ترجمة كمال أبو ذيب، 121.

عنه، ووصفه وتدريسه للطلاب وتسوية الأوضاع فيه والسيطرة عليه. ويوجز إدوارد سعيد الصفة العامة للاستشراق بأنها أسلوب غربي للهيمنة على الشرق وإعادة بنائه والتسلط عليه.[1]

وأفضت جهود أدوار سعيد في دراسته للاستشراق إلى تعريف أكثر دقة بأنه أسلوب في التفكير مبني على تميّز متعلق بوجود المعرفة بين الشرق وبين الغرب. ويضيف سعيد بأن الاستشراق ليس مجرد موضوع سياسي أو حقل بحثي، بل أنه توزيع للوعي الجغرافي إلى نصوص جمالية وعلمية واقتصادية واجتماعية وفقه اللغة كذلك، محددًا توصيفًا دقيقًا للاستشراق بأنه «المجال المعرفي أو العلم الذي تصل به يد الغرب إلى الشرق بصورة منظمّة، وذلك عن طريق موضوعات للتعلم والاكتشاف والتطبيق، بل إنه نوع من الإسقاط لمكنون العقلية الغربية على الشرق، وسلطة حكم الغرب للشرق».(4).

وقد أثار كتاب سعيد حول الاستشراق وكتابات أخرى متصلة به العديد من زملائه الأكاديميين الذين اختلفوا معه في أطروحاته حول الاستشراق. ويأتي برنارد لويس وألبرت حوراني في مقدمة معارضيه.

وفي عام 1973 أخذ مفهوم الاستشراق بالتراجع. فقد عقد الباحثون الأوروبيون مؤتمرًا سعوا فيه إلى إلغاء مصطلح الاستشراق وذلك لدلالاته السلبية، بل وانقسم الكتّاب الغربيون أنفسهم حول مسمى الشرق والغرب. واتخذوا قرارًا بتسمية الجهود العلمية في هذا الجانب باللجنة الدولية للدراسات الآسيوية والشمال الأفريقي. كما واصل هؤلاء الباحثون افتتاح أقسام علمية لدراسات الشرق الأوسط والدراسات الإسلامية والديانات الشرقية في جامعاتهم(5). ولعل هذا التغير في أوساط المستشرقين الغربيين قد استجاب للتحولات السياسية في بلدانهم، وذلك بعد أن توزعت دول القارة الأوروبية بين كل من المعسكر الشرقي والآخر الغربي، وشعور علماء الشرق

(1) المرجع نفسه، ص38

الأوروبي بأنهم أقرب إلى المجتمعات الشرقية. كما أن عنصر السياسة الأوروبية الاستعمارية قد تراجع في الفترة ذاتها مما يلزم باحثيها بتحديد مسمى يواكب الواقع.

الملمح الثاني: عدن في الكتابات الغربية

تتحكم عدن جغرافيًّا بالمعبر الجنوبي للبحر الأحمر المسيطر على الخط العام للحركات التجارية بين الشرق والغرب، ذلك المعبر الذي شكّل جذور التواصل بين المجالين الشرقي والغربي منذ الأزل، بل وصاغ العلاقات التاريخية بين الشرق والغرب على اختلاف مساراتها التي ناقشناها أعلاه. وكان مرور البعثات المختلفة - التجارية والعسكرية والدينية- هذا الموقع دافعًا كافيًا في تعزيز الكتابات الغربية عن عدن، ورسم الصور لها وتدوين الملاحظات حولها. ومهّد عصر النهضة الأوروبية في القرن الخامس عشر لاقتراب الأوروبيين من شواطئ عدن بصورة منظمة. فقد وصل البرتغاليون إليها في عام 1538، وهم في طريقهم إلى الهند. وترك الحضور البرتغالي نفسه على شواطئ عدن في سجل التاريخ الاستكشافي، وذلك عبر أشهر الصور التي رسمت لعدن في ذلك الوقت المبكر. كما كانت الكشوف الجغرافية قد أرست تقليدًا معرفيًّا، عندما ضمت الباحثين والكتاب من الجغرافيين والمؤرخين إلى قوام حملاتها العسكرية، مثلما كان حال القساوسة المبشرين بالديانة المسيحية في تلك الحملات.

وشهد القرن السادس عشر ميلاد شركة الهند الشرقية الإنجليزية. وأسس إعلانها في عام 1600 لنشأة الصراع الإنجليزي الفرنسي في البحر الأحمر. فقد امتدت أنظار الفرنسيين، مثل غيرهم من الأوروبيين باتجاه جنوب البحر الأحمر، وذلك باعتباره منطلقًا للتنافس في المحيط الهندي الذي يشكل نقطة الارتكاز القوي في الصراع الأوروبي بكل قواه، والذي امتدّ منذ القرن السادس عشر حتى الحرب العالمية الثانية، ومازال متواصلًا اليوم بأشكال أخرى.

ومهما كانت دوافع ذلك الصراع فإن الحاجة للدراسة والبحث للمناطق المستهدفة في مضامين التنافس الأوروبي ومنها عدن تغدو أساسية في هذا الصراع. وفي خضم

هذا التحول التاريخي في الصراع الدولي تعاظمت الكتابات الأوروبية حول الشرق في موضوعاتها ودوائرها وأهدافها وجسور تواصلها مع الأوساط الرسمية في بلدانها. فقد شهدت سنوات القرنين السابع عشر والثامن عشر نشاطًا تنافسيًّا في أوساط القوى الكبرى وقتها- بريطانيا وفرنسا- للسيطرة على الطرق التجارية المؤدية إلى المحيط الهندي المتحكم بمداخل بلدان الشرق. وانتشرت في مياهه الأنشطة الغربية المتطلعة للتحكم والاستعمار لمدن الشرق. وشهد العالم بروز النظام الاستعماري الدولي في المنطقة ذاتها، والذي انتهج مبدأ المسوح الجغرافية في السيطرة على بلدان الشرق. كما ظهرت في البلدان الاستعمارية دوائر وأقسام متخصصة مرتبطة بدوائر الشؤون الخارجية والسياسية والعسكرية للبحث في قضايا الشرق، فيما ظلت الأقسام الأكاديمية المؤسسة في الجامعات الأوروبية تنهل من بلدان الشرق ما يؤسس لها حقولًا ودراسات علمية عن الشرق.

وفي وقت لاحق للتواجد الأوروبي، وعلى مقربة من عدن شكّل الاحتلال البريطاني لعدن في الفترة من 1839 وحتى 1967 نهجا قويا لتأسيس نمط مختلف في البحث العلمي عن هذه المدينة بملامح متعددة، وفقا للأهداف المرجوة منه. وكانت المسوح الجغرافية لشركة الهند الشرقية للساحل المطل على بحر العرب في السنوات التي سبقت الاحتلال البريطاني باكورة أنشطة شركة الهند الشرقية في المحيط الهندي وبحر العرب، وذلك تحت مسميات متعددة منها: مكافحة القرصنة البحرية وتأمين التجارة الدولية في المحيط الهندي. كما كان البحث الجغرافي من قبل هذه الشركة في سواحل بحر العرب فاتحة الكتابات المسحية عن عدن والتي مهّدت لاحتلالها في عام 1839. وتأتي كتابة التقارير الرسمية، على قاعدة تلك المسوح الجغرافية في الساحل العربي بالقرب من عدن، في مقدمة الجهود المعرفية للكتابة الغربية حول عدن. والسطور التالية أدناه من هذه الورقة تصنّف الكتابات الغربية حول عدن في مراحلها المختلفة.

عدن في كتابات الغربيين خلال سنوات الحكم البريطاني لعدن:

تنوعت مصادر الكتابات الغربية حول عدن، ما بين كتابات اختصّ بها كتّاب مسؤولون في أجهزة الحكم البريطاني في عدن، وكتابات أخرى توالى إصدارها على أيدي غربيين آخرين كل في مجال اختصاصه. كما تنوعت موضوعات الكتابة ذاتها ما بين الآثار والتاريخ والعلوم الاجتماعية، على النحو الذي نفرده أدناه ونوصّف مضمونه:

أولًا:- الكتابات المنشورة والصادرة عن الإدارة البريطانية لعدن في سنوات الاحتلال:-

1- Captain R.L.Playfair: A History of Arabia Felix of Yemen Including، An Account of the British Settlement Of Aden، 1859

ويأتي هذا الكتاب على رأس الكتابات الإنجليزية المبكرة الصادرة حول عدن في مدة ما بعد الاحتلال البريطاني لها. ويتصّف هذا الكتاب بالطابع المسحي العام الذي أسست له دوائر الحكم البريطاني لعدن لتثبيت النظام والسيطرة على المدينة.

1- Aden، Handbook، 1873: Hunter، Capital

2- An Account Of The British Settlement Of Aden In Arabia ،1877

وهو الكتاب المسحي الثاني للدوائر البريطانية في عدن.

3- Harold Ingrams ،Arabia and The Isles 1943

وكانت الطبعة الرابعة لهذا الكتاب في عام 1946. كما صدر للكتاب نسخة منقحة مع مقدمة جديدة في عام 1966.

4- Hickinbotham: Aden، 1958

شكّل هذا الكتاب رافدًا معرفيًّا للإدارة البريطانية حول عدن بأبعاده التوثيقية لكل ما سبق من سنوات زاخرة بالأحداث التي تعاقبت على عدن والمناطق المحيطة بها.

5 – Bernard Reilly: Aden and the Yemen،1960

ويعد هذا الكتاب من إصدارات Colonial Office، المكتب الرئيس لندن، تحت رقم متسلل « Colonial office No.343. ويدور مضمون الكتاب في توثيق العلاقات الإنجليزية في عدن بالنظام الإمامي الحاكم في صنعاء على خلفية النزاعات التي سادت الفترة السابقة لصدور الكتاب ومضمون العلاقة التي أعقبت توقيع الاتفاقية لاحقًا.

6 – Naval Intelligence Division،: Geographical Handbook series 1946

واختص هذا الكتاب بغرب الجزيرة العربية والبحر الأحمر. وقد تناول الوضع العام في عدن منذ احتلالها وحتى عام 1936.

7 – Tom Little:South Arabia – Arena of conflict 1968،"

8 – Kennedy Trevaskis: Shades of Amber

9 – Gune Knox –Mawer " The Sultans came To Tea"1961

10 – Knox–Mawer ،R: Islamic domestic law in Aden،1956

11 – Aden in History،1965

12 – Lunt ،games:The Barren Rocks of Aden ،1966

13 – Oliver: little Aden folklore،1947

ولعل القارئ لمحتويات الكتب المذكورة أعلاه سيرسم إطارًا تخطيطًا لتوصيف الأهداف غير المعلنة من وراء مضامين هذه الكتب. فقد استدعت دوافع التخطيط لعدن قاعدة مسحية معلوماتية ضرورية. وتلعب السنوات المبكرة لإصدار هذه الدراسات ومضمونها دورًا في تأكيد تلك الأهداف. فقد اقتضت الفترة الأولى من عمر الإدارة البريطانية لعدن احتياجات محددة جاءت في أولويات مهام تلك الإدارة، وذلك بعد نجاح سيطرتها على عدن، مما يجعل من المعيار التخطيطي ذات العلاقة بالأبعاد الأمنية ضرورة واجبة تقف خلف الكتابات عن عدن في تلك الفترة تحديدًا.

وفي الاتجاه ذاته كانت الكتابات المذكورة أعلاه قد عكست معيار التركيز على الجوار المحيط بعدن، وهو العمق الجغرافي الذي لم تغفله السياسة البريطانية في مرحلة حكمها لهذه المدينة، باعتبار ذلك المحيط مقياس الأمان للوجود البريطاني ومرتكزًا أساسيًّا لضبط الأمن الداخلي لتحقيق السياسة الإدارية في عدن، فقد شكل هذا الجوار عمقًا للوجود البريطاني في هذه المدينة يستوجب المراقبة والضبط. وبالنظر إلى هذه المعايير فإن جهات إصدار الكتب المذكورة أعلاه لم تكن بالطبع بعيدة عن دائرة الحكم السياسي والأمني في عدن، بل أنها عناصر أساسية في ذلك النظام بشكل أو بآخر تخدم الدوائر الرسمية، بل وترسم السياسة العامة للوجود البريطاني في عدن وتدرس الواقع، وتهيئته للاستجابة للسياسة العامة في سنوات تثبيت النظام في عدن.

ولم تقتصر الكتابة الغربية عن عدن في تلك المرحلة تحديدًا فقط، لكنها تلاحقت بعد استقلال عدن في اتجاه آخر للكتّاب الإنجليز، الذين كان منهم حكام ومسؤولون سابقون في ظل الحكم البريطاني لعدن، وذلك للدراسة والتوثيق والتقييم للفترة ذاتها.

وقد اتّسمت سنوات الإدارة البريطانية لعدن بوفرة الكتابة عنها. وعلى الرغم من كثرة مصادر الكتابة حول عدن في سنوات الاحتلال البريطاني، إلا أن هذه الورقة اعتمدت في مصادرها على المنشور من هذه الكتابات فقط.

ثانيًا: الكتابات الغربية حول عدن بعد1967:

توالى إصدار العديد من الكتب التاريخية بعد استقلال عدن وتأسيس النظام الوطني في عام1967، لكن هذه الإصدارات قد تحكمت بها دوافع أخرى اختلفت عن الكتابة في المرحلة التي سبقتها لكنها ظلت متصلة بسابقتها.

1- R.J.Gavin 1967-Aden Under British RULE -1839:

2- Fred Halliday: Revolution Foreign Policy - The case of South Yemen- 1967 --1987 1990

3- David Leger: Shifting sands, The British in South Arabia,1983

Helen Lackner: P.D.R. Yemen -Out post of Social Development -4 in Arabia,1985

Hugh Scott published " In The High Yemen,1964-5

:South Arabia.Arena of conflict, Tom Little 1968-6

Lunt,James: Barren Rock, 1966 -7

Gillian King: Imperial out post -Aden- Its place in British Policy -8

Jonathan walker: Aden insurgency - the savage war in south--9 Arabia 1962- 67

John William All good " Aden ,the Federation and the struggle, -10 against Arab Nationalism ,1999

.V.S. Sheth: South Arabia 1959- 1967 -11

Bujra- Abdalla S: The politics of Stratification: a study of Political-12 .change in South Arabia Town

Bujra-Abdalla.1970,Urban elites and colonialism: The nationalist -13 .elites of Aden and south Arabia. Middle Eastern Studies

Bujra Abdalla. 1971 , Politics of Stratification.A study of political -14 change in south Arabian town

Halliday ,Fred, Arabia without sultan, 1975 -15

Yemen unfinished revolution ,socialism in the south 1979 - 16

Burman,Richie: The jews of Aden,1991 -17

Gusarov:Aden,1981-18

Kapten, lidwien and gay Spaulding: women of the zar and middle-19 class sensibilities in colonial Aden

Molyneux, Maxine: Women and revolution in the people's-20 Democratic Republic of Yemen,1979

Molyneux,Maxine: State politics and revolution in the people's-21

1977-Democratic Republic of Yemen, 1967

Molyneux, Maxine: legal reform and socialist revolution in south-22
Yemen,women , and the family.1985

Naumkin vitally ,western Arabia and red sea,1939 -23

Nizan ,paul,Aden,Arabia,1987 -24

1970, 1967-Paget,Julian ,Last post:Aden 1964 -25

Scott S. Reese, Imperial Muslims Is lam, Community and -26
1937-Authority in the Indian Ocean, 1839

تتّصف الكتابات الغربية عن عدن في فترة ما بعد استقلال عدن بصفات الرصد والتوثيق لأحداث المرحلة السابقة لها، خاصة تلك الكتب الصادرة عن الموظفين الإنجليز العاملين في الجهازين العسكري والإداري في المرحلة التي أعقبت احتلال عدن. كما تقترب بعض هذه الكتابات من صفات أدب الرحلات. وفي الوقت ذاته فإن من سمات هذه الكتابات البعد عن البحث العلمي والتحرر من الكتابة بأوامر الدوائر السياسية.

الملمح الثالث: عدن في الكتابات الأكاديمية الغربية:

شهدت فترة الحكم البريطاني لعدن قبولًا في الأوساط الأكاديمية. كما تزايد هذا النهج خلال الفترة التي أعقبت تأسيس النظام الوطني في عدن. فقد عزّز الأكاديميون الغربيون جهودهم في البحث العلمي في تاريخ عدن. وبرزت لدى الجامعات الأجنبية الكثير من الفروع البحثية في الآثار والتاريخ والعلوم الاجتماعية. واختلفت دوافع الكتابة الأكاديمية عن سابقاتها باختلاف الظرف السياسي ذاته. واتجهت الأقلام الغربية إلى الدراسات الأكاديمية لموضوعات الشرق التي تستقيم على قاعدة البحث العلمي بالدرجة الأولى، وذلك لنيل درجات أو شهادات علمية. كما اتجهت بعض الأقلام نحو المشاركة في الملتقيات العلمية المختلفة. وفي هذا السياق نرصد الجهود التالية:-

Jews of The British crown Colony Of Aden- History, culture - 1
relations and Ethnic - By Reuben Ahroni

2 - Z.H Kour (1981) History Of Aden-1938 -1872

3 - Britain 's Final Decade in South Arabia- Aden, Federation by John William Allgood

4 - Sussane Dahlgren: Contesting Realities - Morality , Propriety and the public sphere in Aden , Yemen

5 - Amira:Entergenerational Resistance. The Transmission of a Counter-hegemonic Narrative as an Everyday Form of Resistance in the South Arabian Independence Struggle (Southern Yemen)

قضايا المرأة في كتابات سوزان دالغرين:

سوزان دالغرين[1] باحثة أكاديمية من جامعة هلسنكي - قسم علم الأنثروبولوجيا- فنلندا. ارتبطت هذه الباحثة بعدن منذ ثمانيات القرن العشرين. وواكب قلمها كل المنعطفات السياسية التي تعاقبت على هذه المدينة. ورصدت سوزان بعين المحب

(1) Susanne Dahlgren studied anthropology in the University of Edinburgh, the London School– of Economics and Political Science (LSE) and University of Helsinki. Her book Contesting Realities. The Public Sphere and Morality in Southern Yemen was published in 2010 by Syracuse University Press. She has acted as a research fellow at the Helsinki Collegium for Advanced Studies, and with the Academy of Finland. Before her current appointment as Senior Lecturer in University of Tampere she acted as a Visiting Research Associate Professor in the National University of Singapore. She has written numerous articles on ethnography of law and urban space and co–edited the volume Moral Ambiguities for the journal Contemporary Islam (with Samuli Schielke) and two volumes to journal Hawwa on Middle Eastern family studies. Her current research project Different Roads to Modernity: Politics of Islam and Post–Socialism in the Arabian Peninsula will lead to her second monograph. Her recent articles on Yemeni and South Yemeni politics are published in Arabia Incognita: Dispatches from Yemen and the Gulf, ed. Sheila Carapico (Charlottesville VA: Just World Books).

لعدن وقلم الباحث القارئ للآثار العامة التي تتركها التحولات السياسية كل معطياتها في وجه الإنسان والأرض.

ولعل الورقة العلمية الموسومة ب « Tradition and modernities in Aden عنوانًا أوليًّا للتعريف بجهود هذه الباحثة الفنلندية في رصد درجة التأثر المجتمعي في عدن، الناتج عن التحولات العامة التي أفرزها المتغير السياسي التاريخي في حقب ومنعطفات عديدة. كما تسعى هذه الباحثة إلى رصد شؤون عدن - الأرض والإنسان - والبحث عن الآثار التي أفرزتها هذه التحولات، ومنهج البحث العلمي المستخدم في كتاباتها ، ودرجة تفهمها للواقع المتنوع في هذه المدينة، ومرونة التعامل فيها مع الأساس العقائدي للناس في عدن، ومستوى قياسها للتحولات العامة التي تعاقبت على هذه المدينة وتأثر المجتمع العدني بها.

وقد كشفت الباحثة في أولى سطور الورقة المشار إليها أعلاه أن الدراسات الأنثروبولوجية عن المجتمع اليمني لم تستهدف إلا التجمعات القبلية، وغابت التشكيلات الحضرية عن دراسات مماثلة في هذا الجانب. ومن هنا كان اهتمام سوزان دالغرين في البحث عن خصائص هذه المدينة، والتأثير الخارجي عليها، وأثر التنوع العقائدي والعرقي في موروثها الثقافي، والصفات التي اكتسبتها عدن من ذلك التنوع.

وترى الباحثة في مدينة عدن « أنها بيئة حضرية ذات موقع استراتيجي متصل بالتأثيرات الثقافية الخارجية. وشكلت الهجرات القديمة من المنطقة إلى خارجها مصدرًا آخر للاحتكاك الإنساني مع الخارج. وركزت سوزان دالغرين على الهجرات الداخلية من التجمعات البشرية المحيطة بعدن، وتأثيرها على التنوع الثقافي للمجتمع العدني. وترى سوزان أن رصد التأثير الناتج عن الانتقال بين التجمعات البشرية والثقافات المنقولة عبر هذا الانتقال مهم في الدراسات الأنثروبولوجية باعتبارهما يكشفان التنوع والتأثير والتشكل الثقافي بين التجمعات الإنسانية بالدرجة الأولى.

وفي الورقة المشار إليها أعلاه تعرّف سوزان الحركات التاريخية التي تتعرض لها

المجتمعات البشرية تعريفًا مختلفًا، إذ تعدها ليست انتقالًا من التقاليد إلى التمدن والحداثة، لكن هي مقياس نرصد من خلاله درجة الصراع في هذا التحول الذي يحدث بين الأفكار القديمة والحديثة. وترى سوزان في هذا النموذج أنه مهم لرصد التأثير الثقافي الذي يعقب هذا الانتقال في انتقاء الوسائل الحديثة واستخدامها، بل وقياس الآثار الثقافية الذي تركها الاستخدام المتمدن في الحياة اليومية في عقول الناس والسلوك العام لهم. وهي بهذا المفهوم، إنما تبحث في الإنسان أولًا وأخيرًا وتأثير المحيط عليه. وعلى قاعدة هذا التعريف انطلقت الباحثة إلى توثيق العديد من الحالات التي لا تتمثل فيها درجة الاستجابة للتحول الجديد وتغيير الثقافة والنهج السلوكي، مما يعني أن التمدن لم يحدث إلا انتقالًا ميكانيكيًّا. كما لم يترك انقلابًا في العقول ولم يتجسد في السلوك البشري للإنسان المستهدف في الأول والأخير من هذه التحولات.

وفي إطار بحثها العلمي اختارت الباحثة سوزان دالغرين أربعة نماذج في توصيف النهج المتمدن لعدن:-

1. customary modern ويضم أشكالًا وعادات سلوكية لأنماط لم تستطع الحداثة أن تلغيها.
2. التحديث الذي تركته الإدارة البريطانية في عدن ضمن خطة تمدينها. وشملت وسط المدينة ومحيطها، وتركت الأحياء البعيدة والفقيرة دون التملك لهذه الوسائل.
3. التحديث الثوري الذي أعقب الاستقلال الوطني في عام 1967. وكانت من ركائزه بناء الأسس العامة للدولة الجديدة. وشكّل التعليم سلاحًا استراتيجيًّا لضمان التمكين الصحيح لمشاركة المرأة في بناء الدولة الوطنية. كما ضمن هذا التمكين مشاركة الفقراء والمهمشين. كما تمثلت المساواة بين المرأة والرجل في أشكال قانونية. ويأتي قانون الأسرة في مقدمتها.
4. أما النموذج الرابع فقد قامت الباحثة بتأطيره في مرحلة الوحدة اليمنية. واعتبرت

النموذج الديني حلًّا للمشكلات اليومية في عدن. وهذا النموذج يمثل حضورًا كبيرًا للنساء للمشاركة من أجل مجتمع إسلامي حقيقي.

وفي سطور بحثها عن هذه القضية رصدت الباحثة نتيجة سلبية لمستوى تمثل مضامين التمدن والحداثة في السلوكيات الشخصية، وفقًا لأساليب قياس الآثار السلوكية التي اتبعتها هذه الباحثة. وظلت في نظر الباحثة في بعض العقول منطقة فارغة لا تستقر فيها صفات التمدين.

وللباحثة كذلك أعمال علمية أخرى منها: ورقة علمية بعنوان « Modernisation and Efforts Intellectuals Advancement in Colonial Aden" to promote Modernization.

وفي هذه الورقة تبحث سوزان في مضامين الموقف الثقافي للرجل العدني المثقف من قضايا المرأة العدنية، وذلك في فترة الحكم البريطاني لعدن، ومستوى التأثير الذي تركه هذا الموقف في الحركة المجتمعية تجاه المرأة سلبًا وإيجابًا، بل ونتائج ذلك على الحركة المجتمعية من سياسة التمدين التي كانت تنفذها الإدارة البريطانية في عدن وقتها، ودرجة استفادة المرأة منها.

ولأغراض البحث العلمي استخدمت الباحثة آليات رصد مختلفة للكشف عن مظاهر التأثير الثقافي لرجال عدن سلبًا وإيجابًا مما كان يتفاعل وقتها في عدن بشأن قضايا المرأة. ووصفت سوزان المجتمع العدني بأنه مجتمع يتّسم بالحضور الذكوري، وذلك في ظل غياب المرأة المتّشحة بالحجاب البعيدة عن صفوف التعلم وقتها. وعلى الرغم من ذلك فإن قضايا المرأة كانت حاضرة في أطروحات الصالونات الثقافية للرجل العدني الذي أتاح مساحة ملحوظة من برامجه للبحث في حقوق المرأة.

وفي بحثها عن الموقف الثقافي المتمثّل في سلوك رجال عدن تجاه المرأة ركّزت سوزان في مبتدأ عملها في البحث عن موقف رجال عدن من تعليم الفتاة، ومحو أمية المرأة، وقضايا الحجاب والسفور، والاشتغال في الوظيفة العامة والعمل المجتمعي.

وراجعت الباحثة في خضمّ دراساتها عن موقف محمد علي لقمان من قضية تعليم البنات، والتعبير العملي لذلك الموقف. ورصدت الباحثة تعدد أشكال المطالبة بهذا الحق، ابتداء من أول فرصة كانت مواتية لمحمد علي لقمان ورجال عدنيين آخرين كانوا يبحثون في عام 1931 مع الإدارة البريطانية لعدن قضية انتقال عدن إلى وزارة المستعمرات البريطانية لاحقًا في عام 1937، وقتها قال لقمان أمام الأوساط الرسمية الإنجليزية في عدن: إن صلاح المجتمع يبدأ بصلاح المرأة وتعليمها. وترجم مواقفه لاحقًا في العدد الأول لصحيفة فتاة الجزيرة في عام 1941 عندما ضمّن كلمته في عدده الافتتاحي لفتاة الجزيرة تأكيد الدعوة لتعليم البنات.

وعلى قاعدة هذا الموقف تلاحقت أنشطة رجال عدن مؤكدة الحق بتعليم البنات. وكانت الأندية الثقافية والصحف الأهلية التي توالى إصدارها مجالين رئيسين للدعوة لتعليم البنات. وفي الوقت التي غابت المرأة العدنية عن المشاركة المباشرة في الصالونات الثقافية لرجال عدن إلّا أن قضاياها كانت يقظة في نقاشات هذه الأندية وحوارات رجالها. ويرجع ذلك الاهتمام من قبل تلك الأوساط إلى أن غياب قضايا المرأة عن حركة التمدين التي يقودها المجتمع لن تثمر في ظل غياب هذه القضايا عن الأجندة الثقافية في عدن. فقد كانت التحولات العامة والتفاعلات الثقافية مع القضايا المجتمعية في عدن وقتها كفلية بأن تجعل من الحداثة والتمدين ومكان المرأة فيهما السؤال الأساسي لأبناء عدن في أطروحات الصالونات العدنية الثقافية آنذاك.

ونتيجة لذلك اتسعت دائرة الحديث عن الحقوق العامة للنساء، كحق العمل، والأحوال الشخصية والمهر والزواج الثاني، وهي قضايا اتسمت بالسخونة والحذر في مضمونها في أطروحات المجتمع العدني المسلم. وأفضت هذه الأجواء الثقافية الساخنة حول المرأة إلى ظهور أطروحات دينية معادية لها.

وأشارت الباحثة إلى أن الموقف الثقافي للرجال لم يكن مصدرًا وحيدًا في إدارة التحولات الإيجابية لصالح المرأة العدنية، لكنه كان على صلة وثيقة بما كان يحدث

في السنوات ذاتها في كل من القاهرة ودمشق حول قضايا المرأة. فقد كانت إذاعة صوت العرب كفيلة بربط عدن بمحيطها العربي القومي.

وتؤكد الباحثة في هذه السطور أن الحديث عن الصف النسائي الذي برز في سنوات الاستقلال الوطني لعدن في عام 1967 لا يجب فصله عن تفاعلات الوسط الثقافي العدني الذي جاهد رسميًّا ومجتمعيًّا لتثبيت حقوقها العامة. وترى هذه الباحثة، تأكيدًا لذلك، أن مجموعة المضامين الحقوقية المساوية للمرأة بالرجل في منظومة القوانين التي تلاحق صدورها فيما بعد الاستقلال الوطني ومنها قانون الأسرة إنما هي ذات صلة بجهود سابقة مؤيدة للمرأة في عدن.

وللباحثة أوراق علمية متعددة حول عدن تتمحور في قضايا المرأة وقياس درجة التأثر سلبًا وإيجابًا بالمنعطفات التاريخية التي عصفت بعدن والبلاد العربية بشكل عام.

وفي أثناء إعدادها لرسالة الدكتوراه اختارت الباحثة سوزان عدن موضوعًا لأطروحتها. ويجمع هذا الموضوع ما بين مرحلة الإدارة البريطانية لعدن وعقود النظام الوطني المؤسس في عدن بعد استقلال هذه المدينة عن الحكم البريطاني حتى قيام الوحدة اليمنية ((1839--1967 1990)). كما كانت هذه المدينة هدفًا مكانيًّا لدراستها.

وفي اختيارها عدن مرتكزًا للبحث فإن الباحثة كانت تدرس قضايا الاختلاف والآخر، والجنس والجندر والزواج في عدن المستعمرة، المدنية الجديدة، والفضاء العام والمتحول الجديد فيه بفعل المتحول السياسي في هذه المدينة الكسموبوليتانية. كما بحثت من خلال ذلك التداخل والتنوع السائد في المدينة في المدى العام للمرحلتين التاريخيتين من العمر السياسي لعدن تواصلًا واتصالًا أو تنافرًا وهدمًا وإعادة بناء في مكتسبات سابقة، وذلك سعيًا لتأسيس توجه جديد لهذه المدينة.

واختارت سوزان لرسالتها العلمية لنيل شهادة الدكتوراه عنوان «تنافس الحقائق

والأخلاق واللياقة والمجال العام contesting Realities –Morality، Propriety and public Sphere in Aden ، Yemen[1].

وفي مقدمة رسالتها العلمية أشارت سوزان دالغرين إلى عدن بأنها مدينة ذات مجتمع مرن، وذلك باعتبارها ميناء تاريخي مفتوح يحتضن مجتمعات مختلفة من مصادر عرقية لها عروقها وتاريخها وثقافاتها. وترى الباحثة أن الجانب الغامض في ذلك لا يكمن في هذا التنوع لسكان عدن، لكن في قدرة هذه المدينة في مرونة التعامل التي يستخدمها سكانها في التعامل مع بعضهم ونسج علاقاتهم الاجتماعية. وتركز هذه الدراسة بدرجة أساسية حول العلاقات المجتمعية الجوهرية، ومفهوم الجندر والعلاقات الأسرية التي تمّ تنظيمها عبر التاريخ[2].

وذكرت الباحثة في مقدمة الكتاب أن الجندر والأسرة والمجتمع قد أصبحت قضايا مرغوبة في الشرق الأوسط، وعدن من مدنه، في العقدين الماضيين في ميدان الدراسات الانثروبولوجية، عندما سقط مفهوم الحريم والحديث عن المرأة كضحية. ويعود السبب في ذلك إلى النهضة الوطنية لبلدان هذه المنطقة، وتحرر مجتمعاتها من مفهوم الحريم، والظهور الجديد للمرأة قوة منتجة وعاملًا اقتصاديًّا وجزءًا أساسيًّا من المشروع الوطني الذي كان يجري تحقيقه في البلدان الوطنية المتحررة آنذاك. وذكرت سوزان دلاجرين، وهي تبحث في قضايا المرأة والتوصيف الاجتماعي له، أن هذا التحول أثّر فيها وحدّد نهجا في الكتابة عن المرأة العدنية سعيًا للكشف عن تأثير هذا التحول على المرأة تحديدًا وعلى مجتمعاتها، لاسيما وأن النساء قد اقتحمن ميادين كانت حكرًا على الرجل.[3]

(1) Contesting Realities. Morality, Propriety and the Public Sphere in Aden Yemen (published as Contesting Realities. The Public Sphere and Morality in Southern Yemen. Syracuse New York: Syracuse Univ. Press 2010).

(2) المرجع نفسه.

(3) المرجع نفسة.

وفي مستهل هذه الدراسة حددت الباحثة أهداف الدراسة بشكل عام. وحرصت أنها ستسعى إلى تعريف مصطلحي الجندر والجنس، منعًا لالتباس القارئ حولهما، خاصة أن الدراسة تستقيم عليهما. كما ذكرت سوزان أنها لم تصادف في عدن معوقات في استيعاب هذين المفهومين، وذلك لأن التعريف العربي لهما يوصف الجنس بأنه «ذكر وأنثى». كما يقسم الناس إلى «المرأة والرجل». وفي مقدمتها لهذه الدراسة وصفت دالغرين « أن مصطلح الجندر يحدد الدور الاجتماعي المجرد للمرأة والرجل في مكان محدد وفي فترة زمنية محددة. ومن خلال اجتهادها في دراسة هذين المفهومين قدمت سوزان توصيفًا أكثر مرونة وتجسيدًا لمضمون هذين المصطلحين. واعتبرت الباحثة أن الجنس يرتبط بالتكوين الطبيعي للمرأة فيما يؤطر مفهوم الجندر في مضمون الدور الاجتماعي والثقافي للمرأة والرجل، ويوصّف مساهمات كل منهما.

وفي بحثها عن عدن المستعمرة لم يغب عن بال دالغرين أن هذه المدينة ذات الجذور الإسلامية ضاربة في التاريخ. فقد أفردت الباحثة الفصل الثالث من رسالتها لصور من الموائمة بين الحاضر في عدن تحت الإدارة البريطانية والأصل الإسلامي المتجذر في تراثها الديني. وأعطت لهذا الفصل عنوانًا يجسد الواقع في فترة بحثها (القوانين والمحاكم - المقاربة بين الأيدلوجيات والتوجهات الاستعمارية)، وفي فضاء هذا الفصل يتنقل قلم دالغرين بين مضامين السياسة البريطانية في إدارة قضايا الأحوال الشخصية في مدينة إسلامية تتعدد فيها الطوائف الإسلامية، وهي المدينة ذاتها التي تتزاحم على أرضها تيارات عرقية بجذور ثقافية متعددة. فاختارت الإدارة البريطانية الحاكمة وقتها لعدن تطبيق النظام القانوني المعروف ب (The Anglo Muhammadan legal practice) معتبرة هذا النظام مخرجًا توافقيًّا لإدارة الواقع الديني المتعدد الملامح المتنوع في الديانات والمعتقدات.

وعلى قاعدة التوجه المنهجي لسوزان دالغرين في دراستها لقضايا المرأة والتحولات العامة التي كانت تتفاعل في عدن وجهت سوزان الباحثة فصول دراستها

البحثية لمناقشة القضايا التالية:

الفصل الأول – المقدمة:–العزل والمتطلبات الأنثروبولوجية. – الإسلام والمعرفة في الفضاء المجتمعي العام، الأدب في المجتمع كتجسيد للفضيلة، الجنس والجندر،

الفصل الثاني:– التنوع المجتمعي في مدينة متعددة الجنسيات.

الفصل الثالث:– القوانين والمحاكم في تهيئة الأيديولوجيات العائلية في فترة الحكم الاستعماري – Law and court. the making familial ideologies during the colonial era

الفصل الرابع:– الإسلام و والثورة وخلق المرأة اليمنية الجديدة ، Islam revolution ، and making of new Yemeni woman

الفصل الخامس:– هذه عاداتنا وتقاليدنا – This our custom and tradition –

الفصل السادس:– الوعي والاعتدال في البناء المجتمعي consciousness and habituation in agency

الفصل السابع:– الأخلاق والمثالية والمجتمع – Morality ، propriety and society

وفي أثناء وجودها في عدن ذكرت الباحثة أنها قد تعرفت على مصطلحات ومفاهيم خاصة بالتعامل المجتمعي في عدن ساعدتها على فهم الواقع المحلي، وسهّلت مهمتها في دراسته. واختارت سوزان دالغرين عدن ميدانًا لدراستها، وهي المدينة الواقعة في أقصى جنوب شبه الجزيرة العربية. كما حددت إطارًا زمنيًّا لدراستها يمتد على ثلاثة مراحل: عدن المستعمرة البريطانية ما بين 1839 وحتى 1967، وعدن العاصمة للنظام الوطني المؤسس في 1967. وهي المدينة ذاتها التي غدت عاصمة اقتصادية في ظل الوحدة اليمنية المؤسسة في عام 1990. وركزت الباحثة في مقدمة كتابها بدرجة رئيسة حول العلاقات المجتمعية، وعلاقات الجندر والأسرة التي تمّ تنظيمها عبر التاريخ في

عقلية المجتمع تحت مسمى الموروث الشعبي - العادات والتقاليد- ومازال مخزونه نابضًا بالممارسات اليمنية للمجتمع العدني.

وفي عدن التقط قلمها انتشار مفهومي الأدب والسلوك Adab ،and maner كمقياس واضح لبناء منظومة التعامل مع الآخر في المجتمع العدني. وتأكيدًا على انتشار هذين المفهومين رصدت سوزان دلاجرين أنهما قد استخدما في توظيف مغاير لسابقه، وذلك في عام 1990 من قبل بعض النساء ممن ارتدين الحجاب كالتزام ديني، يتفق مع فكرة الأدب والسلوك السوي، الذي ساد استخدامه في عدن كمعيار بعد تأسيس دولة الوحدة اليمنية. وهو ما يفرق في المضمون بين المعنى المستخدم قبل الوحدة ثم بعدها.

وفي نقطة منهجية أخرى، وبعيدًا عن القانون والنظام القضائي، ناقشت سوزان دالغرين حجم الموروث الشعبي في مدينة عدن باعتباره ميراثًا تاريخيًّا لهذه المدينة. ورجعت بالواقع إلى عام 1967 عندما نهضت إصلاحات الثورة الوطنية وتوجهات النظام السياسي بعد استقلال عدن، وبرزت مفاهيم ومصلحات تصف بعض السلوكيات المجتمعية بالتخلف والعادات- Takhlluf – Tradition، باعتبارها جزءًا من السياسة الإقطاعية التي تمّ أسقاطها بعد الاستقلال الوطني. ورصدت التحولات التي تركتها الثورة المسلحة والنظام الوطني بعد الاستقلال على المرأة، وذلك من خلال ظهور مصطلحات جديدة تعاطت معها النساء منها (الثورة حقنا) دليلًا على المساحة المجتمعية التي كانت تقف عليها المرأة العدنية في سنوات ما بعد الاستقلال.

وترى الباحثة في مقدمة كتابها أن المفاهيم التي نوقشت في السطور الأولى لكتابها تعدها مؤسِّسة للبحث الدقيق في قضية العلاقات الجندرية، بل وتؤطِّر للمثل والمفاهيم والنماذج والعلاقات المحكومة في منظومة الأسس الجندرية. وتعتبر سوزان أن « عملها هذا سيناقش أن الديناميكية الاجتماعية لمدينة عدن قد تأسست على درجة حساسية عالية في الإطار المعياري المنافس. كما أن القضية لدى الباحثة ليست في

إبراز مستوى تطابق الناس هناك مع الإطار المعياري، بل في مناقشة كيفية إظهار الواقع المتزامن لقواعد التنافس في التطبيق العملي اليومي.

وعززت الباحثة توجهها العلمي في ذلك الموضوع بالبحث في التفاعل المجتمعي الذي يدور بين المعايير المتفاعلة في الإطار العام للعمل، حيث يتفاعل الناس مع معايير العمل، التنفيذ العملي على الرغم من أن هذا المعيار لا يفرض بالقانون.

وقد رسمت الباحثة في الفصل الرابع من كتابها ملامح تأثير الإسلام والثورة والتشكيل الجديد للمرأة في سنوات النظام الوطني الديموقراطي. وكانت منطلقات سوزان في تأسيس هذا البحث تتركز في رصد ملامح التأثر الذي اكتسبته المرأة العدنية وحملته من موروث الإدارة البريطانية إلى المرحلة الوطنية، وعدن وقتها كانت تجتاز عتباتها الأولى باتجاه تأسيس مرحلة سياسية مختلفة في رؤاها ومضمونها وأهدافها عن سابقتها. وعلى قاعدة هذا النهج لم تجد سوزان دالغرين مقياسًا لهذه المقارنة سوى قضايا المرأة في المجال الحقوقي العام - قانون الأسرة - الحركة النسائية.

وكان الفصل الخامس ميدانًا للبحث في هوية المرأة من خلال مكونات الموروث العام من العادات والتقاليد، وذلك عبر مفاهيم مجتمعية تعاقبت الأجيال على التعامل معها حول مفهوم «الرجل القوي والمرأة الضعيفة، الزواج ومفهومه في عقلية المجتمع، وأشكال الزواج».

وفي نقطة منهجية أخرى، وبعيدًا عن القانون والنظام القضائي ناقشت سوزان القضية على قضية العادات والتقاليد. ورجعت بالواقع إلى عام 1967 عندما نهضت إصلاحات الثورة ضد المفاهيم القديمة وأشكال التخلف Takhaluf and tradition، كمصدر من المصادر المؤسسة للسياسة الإقطاعية.

وترى سوزان أن هذه المفاهيم تؤسس للبحث في قضية الجندر، بل وتقوم عليها مثل ومفاهيم وضوابط تحكم منظومة العلاقات الجندرية. وترى الباحثة في هذه الدراسة مجالًا مهمًّا لمناقشة الديناميكية الاجتماعية في مواجهة كل المتغيرات، بحيث

تدرس التفاعل المجتمعي الذي أخذ موقعه بين المعايير المتفاعلة في الإطار العام لهذه الدراسة. كما ترى الباحثة أن الناس تتفاعل مع معايير العمل، لكن هذه المعايير لا تفرض بالقوة. وقد رسمت سوزان في مقدمة كتابها الإطار العام لهذه الدراسة التي ستسعى من خلال بحثها لتحقيق الأهداف العامة لهذا البحث، وذلك من خلال التدقيق في مفهوم الجندر، وكيفية تنظيمه كجزء من السياسة العامة للنظام السياسي بل وفي قوانين ذلك النظام.

اختتمت الباحثة دراستها لنيل شهادة الدكتوراه بالاستنتاجات التالية:- [1]

- أن القيم الأخلاقية والتوافق التام تتمثّل في الحياة اليومية، وفي كيفية تطبيقها في التعريف بالملاحظات حول مفهوم الجندر والأسرة في مناقشة علاقات مثالية متميزة بين الجنسين، وفي تأسيس فضاء عام في عدن يناقش بفاعلية الملاحظات قواعد السلوك وسمات التوافق.
- تذكر الباحثة أنها في إطار التحديات في الانتقال من التقاليد إلى التمدن سعت إلى تسليط الضوء على العمليات المعقدة التي تأسست في الفضاء العام في عدن. وفي الوقت نفسه فإنها ركزت على العلاقات المتداخلة في التنوع المذهبي الإسلامي وممثلي العقائد الأخرى. وفي كل الأحوال ترى أنه عند مناقشة القانون والنظام القضائي في المراحل الثلاث التي ركزت عليها الدراسة فإنه يمكننا أن نرى كيف أن التقاليد تستخدم لبرهنة الأسس الإيجابية في النظام القانوني الجديد وتأكيدها.
- في هذه الدراسة أظهرت الباحثة كيف أن المجتمع العدني يراعي الضوابط المنظمة للواقع الاجتماعي.
- أن فكرة الإطار الأخلاقي الديني الذي يجيب على كل المشكلات الاجتماعية يمكن أن تجد أجوبة لها في التعاليم الإسلامية. وستبقى ظاهرة في المستقبل عندما يتم مأسسة الإصلاح الأخلاقي، وعبر أي القنوات ستدخله عملية التمدن.

---

(1) المرجع السابق.

- في حالة المجتمع العدني فإن عدن لم تعرف تشكيلة النظم العائلية. وهذا نابع من خصوصيتها المتمدنة.
- أن قضايا التحول والإصلاح العام التي برزت في هذه الدراسة تعتبر عامة مقارنة بالمدن الحضرية الأخرى في الشرق الأوسط، لكن المتفرد في عدن عن مثيلاتها من المدن العربية هو طرق تفاعل هذه المدينة مع التركيبة التاريخية والنظم العرفية والقوى المؤثرة فيها.

الهوامش:

(1) عبد العزيز بن سعد الدغيثر، الاستشراق والمستشرقون، نظرة تحليلية، مقال، موقع الكتروني.

(2) إدوادر سعيد، الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء، الطبعة الأولى، مؤسسة الأبحاث العربية، 1981، ترجمة كمال أبو ذيب، 121.

(3) المرجع نفسه، ص38.

(4) عبدالعزيز بن سعد الدغيثر، مرجع سابق.

(5) لمرجع نفسه.

(6) Susanne Dahlgren studied anthropology in the University of Edinburgh، the London School- of Economics and Political Science (LSE) and University of Helsinki. Her book Contesting Realities. The Public Sphere and Morality in Southern Yemen was published in 2010 by Syracuse University Press. She has acted as a research fellow at the Helsinki Collegium for Advanced Studies، and with the Academy of Finland. Before her current appointment as Senior Lecturer in University of Tampere she acted as a Visiting Research Associate Professor in the National University of Singapore. She has written numerous articles on ethnography of law and urban space and co-edited the volume Moral Ambiguities for the journal Contemporary Islam (with Samuli Schielke) and two volumes to journal Hawwa on Middle

Eastern family studies. Her current research project Different Roads to Modernity: Politics of Islam and Post-Socialism in the Arabian Peninsula will lead to her second monograph. Her recent articles on Yemeni and South Yemeni politics are published in Arabia Incognita: Dispatches from Yemen and the Gulf، ed. Sheila Carapico (Charlottesville VA: Just World Books).

(7) Contesting Realities. Morality، Propriety and the Public Sphere in Aden Yemen(published as Contesting Realities. The Public Sphere and Morality in Southern Yemen. Syracuse New York: Syracuse Univ. Press 2010).

(8) المرجع نفسه.

(9) المرجع نفسه.

(10) المرجع نفسه.

(11) المرجع نفسه.

(12) المرجع نفسه.

عدن في كتابات الرحّالة البريطانية (فريا ستارك)

د. مسعود عمشوش

(فريا ستارك) (1893-1993) واحدة من أشهر الرحَّالة الغربيين الذين زاروا عدن خلال النصف الأول من القرن العشرين. وقد ألفت أكثر من ثلاثين كتابًا سردت فيها الرحلات التي قامت بها إلى مختلف أقطار الشرق الأوسط بين سنة 1927 وسنة 1983، وكرّست أربعة من تلك الكتب، بالإضافة إلى عددٍ من الدراسات التي نشرتها في الدوريات العلمية المتخصصة، لتقديم بعض جوانب الحياة في عدن وبعض المدن اليمنية الأخرى، وذلك خلال واحدة من أكثر المراحل حساسية في تاريخها الحديث والمعاصر؛ وهي عقد الثلاثينات من القرن العشرين، الذي انتهى ببدء الحرب العالمية الثانية التي نجد صداها في كتابات (فريا ستارك).

وفي اعتقادنا تكتسب كتابات (فريا ستارك) حول عدن أهمية تاريخية وتوثيقية كبيرة، إذ إنها تتضمن معلومات استخباراتية لن نعثر عليها في أي وثيقة تاريخية أخرى، لاسيما رصدها للأحداث اليومية في عدن خلال السنة الأولى من الحرب العالمية الثانية، التي تمَّ خلالها قصف المدينة بشكل عنيف من قبل القواعد الألمانية والإيطالية في القرن الإفريقي.

ومن الأسباب التي حفزتنا على دراسة كتابات (فريا ستارك) عن عدن: الأسلوب الفريد الذي استخدمته المؤلفة في تدوين رحلاتها التي ترجمت إلى معظم اللغات الأوروبية، هو الذي جعل كتبها من أروع ما ألف في أدب الرحلات باللغة الإنجليزية، فمن خلال المزج بين السرد والوصف استطاعت أنْ تضفي على نصوصها كثيرًا من عناصر الجمال والتشويق والإثارة. كما أن تداخل السرد مع الرسائل والمذكرات والانطباعات التي سجلتها الرحَّالة مباشرة في عدن قد أعطى لأسلوب (فريا ستارك)

حيوية قلما نجدها في كتب الرحلات الأخرى. ولتتمكن (فريا ستارك) من جذب أكبر عدد ممكن من القراء، لم تكتف بقلمها، بل استخدمت كذلك آلة التصوير. فهي قبل رحلتها الأولى إلى جنوب الجزيرة العربية قامت بشراء LeicaIII التقطت بها نحو 6000 صورة أصرت أن تظل جميعها باللونين الأسود والأبيض حتى بعد أن أصبحت الصور الملونة هي السائدة في الثمانينات من القرن الماضي. وقد ضمَّنت (فريا ستارك) كل واحد من كتبها الثلاثة الأولى عددًا من الصور تبرز في بعضها بعض مناظر لعدن وسكانها.

في هذا الدراسة، تناولنا الصورة التي رسمتها (فريا ستارك) لعدن في أربعة من كتبها: (الشرق هو الغرب، East is West 1945)، و(غبار في مخالب الأسد، Dust 1961 in the Lion's Paw. Autobiography)، و(الرسائل Letters)، و(البوابات الجنوبية لشبه الجزيرة العربية، The Southern Gates of Arabia 1936)، فبعد أن قمنا، في الجزء الأول من الدراسة، بإزاحة النقاب قليلًا عن شخصية (فريا ستارك) والأسباب التي دفعتها للمجيء إلى عدن سنة 1934 وسنة 1938، والعمل فيها من ديسمبر 1939 وحتى أغسطس من عام 1940، قدمنا في الفصل الثاني، عرضًا لأبرز مظاهر الحياة في عدن التي ركزت عليها الرحَّالة الإنجليزية في كتاباتها عن عدن. وسينصب جل اهتمامنا على الكيفية التي رصدت بها الرحَّالة الحياة خلال الحرب العالمية الثانية، وبعض العادات اليومية في عدن ومدى تأثرها بالغرب. وفي الجزء الثالث تناولنا الصورة التي رسمتها لثلاث شخصيات كانت تقيم في عدن عند زياراتها لها: علي محمد لقمان، والتاجر الفارسي فرامروز، والتاجر الفرنسي أنتونين بس.

أولًا: (فريا ستارك) وزياراتها لعدن (المسك بعصا الترحال):

على الرغم من أنّ (فريا ستارك) تحمل الجنسية البريطانية، فهي لم تقض في بريطانيا إلاّ جزءاً يسيراً من عمرها الذي تجاوز مئة سنة. أما معظمه فقد قضته في الترحال والاستكشاف. وكان والدها الرسام والنحات روبرت ستارك قد تزوج من بنت عمه

فلورا في عام 1887. وبعد أن أمضى الزوجان نحو سنة في (توركوا) انتقلا إلى لندن، ثم إلى باريس حيث قرر روبرت أن يكسب لقمة عيشه من خلال بيع بعض اللوحات. وهناك ولدت فريا في سنة 1892. وبعد نحو سنتين انتقلت العائلة إلى أسولو في شمال إيطاليا، وهناك ولدت طفلتهما الثانية: فيرا.

وفي شهر يناير من عام 1905، قبيل الاحتفال بعيد ميلاد فريا الثالث عشر، أخذت فلورا البنتين ليشاهدا الآلات الجديدة التي رُكّبت في المصنع الذي اشترته، وعندما اقتربت فريا من إحدى تلك الآلات التفّ شعرها الطويل في العجلات، وتم سحبها لإنقاذها، لكن بعد أن سُلِخ جزءٌ من فروة رأسها وأذنها اليمنى. وقد عانت فريا كثيراً من سوء الرعاية الصحية في مستشفى تورينو الذي ظلت طريحة الفراش فيه أربعة أشهر كاملة، واضطرت إلى استخدام باروكة دائمة تخفي بها آثار تلك الحادثة. ومن المؤكد أن هذا التشويه قد ترك أثراً عميقًا في نفسية (فريا ستارك) التي عبرت مراراً فيما بعد عن أسفها لأنها لم تكن جميلة.

ولا شك أيضًا في أنّ الشابة فريا قد فكرت يومًا ما في الزواج وإنجاب الأطفال وقضاء حياة هادئة بالقرب من البندقية، لكن سرعان ما تبددت تلك الأحلام حينما تركها الخطيب الذي اختارته لها أمها. ولا ريب في أنّ فشل الخطوبة وشيئًا من الخوف والخجل وروح المغامرة كانت من العوامل المهمة التي دفعت بفريا بعيداً عن البيت. وقد كان التطوع للعمل ممرضةً في الصليب الأحمر الإيطالي خلال الحرب العالمية الأولى هو أولى محاولتها للهروب من جبروت الأم، والاضطراب النفسي، وغياب الشعور بالأمان. وفي تلك المدّة طلبت فريا، التي لم تكن أبداً راضية عن طباع أمها، من راهب عجوز عاد من بيروت أن يعطيها بعض الدروس في اللغة العربية، إذ إنها بعد أن قرأت عن مآثر لورنس العرب وجيرترود بيل في الشرق الأوسط، قررت السفر إلى هناك للاستكشاف والحصول على وظيفة حكومية مثلهما، لاسيما بعد أن أصبحت بريطانيا تسيطر على جزءٍ كبيرٍ من تركة الإمبراطورية العثمانية. وفي خريف سنة 1925

توجهت فريا إلى لندن لتواصل دراسة اللغة العربية والاطلاع على بعض المراجع حول تلك البلاد.

وفي نوفمبر من عام 1927 ركبت (فريا ستارك) السفينة باتجاه بيروت، وبما أنها لا تملك كثيراً من النقود فقد فضلت استئجار غرفة في بيت عائلة مسيحية على النزول في أحد الفنادق. وشرعت مباشرة في مواصلة دراسة اللغة العربية. وفي شهر مارس سنة 1928 انتقلت إلى دمشق التي دمرت قوات الاستعمار الفرنسي جزءاً كبيراً منها للقضاء على المقاومة العربية. واستطاعت (فريا ستاك)، التي باتت تتقن اللغة العربية، أن تدخل مناطق الدروز التي منعت السلطات الفرنسية وصول الأجانب إليها. وقد سجلت انطباعاتها عن تلك الرحلة في مقال تحدثت فيه عن «الإمبريالية الفرنسية في سوريا»، ونشرته في (Cornhill Magazine) بعد عودتها إلى أوروبا في نهاية سنة 1928.

وفي نوفمبر من عام 1929، وصلت (فريا ستارك) إلى بغداد لأول مرة. وكما هي العادة فضلت أن تسكن عند إحدى الأسر المحلية على الاقتراب من بقية الإنجليز الساكنين في المدينة. ولكي ترفع مستواها في اللغة العربية وتدرس القرآن التحقت بإحدى مدارس البنات. وفي صيف عام 1931 عادت (فريا ستارك) مرةً أخرى إلى بغداد ومنها شدّت الرحال إلى إيران للبحث عن خرائب (لامياسر)، إحدى قلاع الحشاشين في شرق إقليم لوريستان. وقامت أيضاً بنشر بعض المقالات في الصحف البريطانية، وجمعت عدداً منها في كتابها الأول: (حوارات بغدادية قصيرة Baghdad Sketches 1933). وحينما عادت إلى إيطاليا في مارس سنة 1933 عرفت أنّها تحصلت على جائزة أخرى من الجمعية الجغرافية الملكية، تقديراً للخرائط التي وضعتها ورحلتيها إلى إقليم لوريستان.

ولا شك في أن روح المغامرة هو الذي دفع (فريا ستارك) إلى الذهاب إلى مناطق تنعدم فيها سلطة الدولة، ويغيب عنها الأمن، ويحوم حولها الخطر، وبالتالي تغدو محرمة على الرحَّالة الغربيين، لاسيما النساء. لهذا، في مطلع سنة 1934، قررت

الرحيل لاستكشاف جنوب شبه الجزيرة العربية. وقد حاولت في الجزء الثالث من سيرتها الذاتية أن تقدم تفسيرًا مقنعًا لاهتمامها بهذه المنطقة قائلة: «لقد سئلت مراراً عن الأسباب التي دفعتني في البداية نحو شبه الجزيرة العربية، وعادةً يبدو التفسير غير مناسب. ومع ذلك لا أستطيع أن أجد أفضل منه؛ فخلف كل مغامرة كان هناك فضول يلازمني حتى حينما كنت طفلة، وهناك حب الاطلاع بشكلٍ عام، رغبة في الهروب إلى حياة أكثر اتساعًا وأقل قلقًا، وأعتقد أنه يمكن تفسيرُ هذه الرغبة بالبيئة التي شَبَبْتُ فيها، والتي كانت بيئة مضايقة للغاية. ومن الأمور التي دفعت (فريا ستارك) نحو جنوب الجزيرة رغبتها في أن تكون «الأولى»، أي أن تكون حقًا مستكشفة. فبما أنها لم تكن قد تأهلت لكي تصبح باحثة أكاديمية لم يكن أمامها إلا أن تصبح باحثة جغرافية ميدانية؛ أي مستكشفة، لاسيما أن هذه المهنة تضمن لها تحقيق رغبتها في الابتعاد عن البيت.

وقد وصلت (فريا ستارك) إلى عدن لأول مرة في 19 ديسمبر من عام 1934، وبما أنها كانت تسعى للبقاء بعيدًا عن عيون السلطات البريطانية فقد فضلت أن تنزل ضيفةً على التاجر الفرنسي أنتونين بس. ومكثت في عدن شهرًا كاملًا كتبت خلاله عددًا كبيرًا من الرسائل التي تصف فيها الحياة في عدن بشكل عام وفي مكاتب شركة البس بشكل خاص. وحاليًّا تقوم أماني عبد الرحمن بن يحيى -إحدى طالبات مركز عبد الله فاضل فارع- بترجمة تلك الرسائل في إطار تحضير رسالتها لنيل درجة الماجستير في الترجمة.

وفي نهاية يناير 1945، قبل سفرها من عدن إلى حضرموت على ظهر إحدى السفن التابعة للبس والمغادرة باتجاه المكلا كتبت فريا لصديقتها فينيسيا رسالة تقول فيها: «أتمنى أن تبقى السلطات البريطانية لطيفة وهادئة وألا تتدخل في شؤوني». وبعد قضاء نحو شهرين في وادي حضرموت أصيبت (فريا ستارك) بمرض خطير، واضطر القوات الجوية البريطانية أن ترسل الجنرال دائث الذي هبط بطائرته العسكرية أمام شبام في 16 مارس 1935. وفي صباح اليوم التالي عادت (فريا ستارك) ممددة على نقالة إلى عدن

حيث تم إسعافها في المستشفى لمدة أسبوعين، قبل عودتها إلى أوروبا في مطلع شهر إبريل من العام نفسه. وقد أهدت ستارك كتابها الشهير (البوابات الجنوبية لشبه الجزيرة العربية) لمنقذها الطيار دائث وسلاح الجو البريطاني.

وفي شهر أكتوبر من عام 1937 التقت (فريا ستارك) في القاهرة بعالمتي الآثار جيرترود كاتون- تومسون وإلينور وايت جاردنر اللتين طلبتا منها مرافقتهما في رحلة استكشافية لمعبد القمر في مدينة حريضة بحضرموت. وقد وصلت البعثة إلى عدن في 31 أكتوبر من عام 1937. وقد تحدثت فريا عن زيارتها الثانية هذه لعدن في كتابها (الشرق هو الغرب)، وذكرت أن إحدى طائرات البس قد نقلتهن إلى مدينة المكلا آخر أيام الأسبوع الأول من نوفمبر. وخلال رحلتها هذه لم تتردد فريا في التذمر من الإجراءات الأمنية التي فرضها عليها المستشار البريطاني انجرامس.

الزيارة الثالثة:

من الواضح أن عدن خلال الزيارتين الأولى والثانية كانت بالنسبة لها مجرد محطة سفر، أما في المرة الثالثة فقد جاءت (فريا ستارك) إلى عدن في إطار مهمة رسمية كلفتها بها حكومة بلادها. فلكي تكسب بريطانيا أي حرب، لا يمكنها الاعتماد على نفسها فقط، بل عليها أن تحرص على أن يكون لديها، بالإضافة إلى الجيوش القوية، أصدقاء في كل نواحي المعمورة. لهذا، في النصف الثاني من عام 1939، عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، كان أمام البريطانيين مهمة كسب الأصدقاء العرب وإقناعهم بدعم الحلفاء، أو على الأقل إبقائهم محايدين. وكانت البروباجندا (الدعاية التحريضية) هي مفتاح تنفيذ تلك المهمة.

وقد أنيطت مهمة البروباجندا تلك بوزارة الإعلام، جنبًا إلى جنب مع عدد من أجهزة الاستخبارات. وبالإضافة إلى إقناع العرب بدعم الحلفاء أو إبقائهم محايدين، كانت المهمة تكمن في معرفة نوايا دول المحور، وتقييم قواتها المرابطة في منطقة الشرق الأوسط وإفريقيا، ووضع آلية متطورة لجمع المعلومات المختلفة. وفي القاهرة

تم البدء في التنفيذ، واستُدعيَ رجال ونساء يتقنون كيفية الاستماع والايحاء والهمس، وذلك من أجزاء مختلفة من الإمبراطورية البريطانية. وكانت (فريا ستارك) من بين الذين بادروا إلى تلبية نداء الواجب؛ فقد تم استدعاؤها من إيطاليا إلى لندن قبيل اندلاع الحرب، وسردت ذلك في أول فصول كتابها (الشرق هو الغرب)، قائلة: «في نهاية شهر أغسطس، غادرت منزلي بالقرب من البندقية، وجئت إلى لندن لأداء أية خدمة يمكنني تقديمها. وبسبب إلمامي باللغة العربية اختارتني وزارة الإعلام للعمل بصفة خبيرة (في شؤون الشرق). وبدأت العمل ضمن الدائرة الخارجية، في مقرات مؤقتة، اعتبارًا من الرابع من شهر سبتمبر 1939، أي من ثاني أيام الحرب».

وبعد بضعة أسابيع، استلمت (فريا ستارك) برقية من (ستيوارت بيراون Perowne Stewart)، مدير مكتب الإعلام في مستعمرة عدن، يسألها فيها عمَّ إذا كانت ترغب في أن تصبح مساعدة ضابط الإعلام في عدن. وفي الحال تركت فريا لندن، وتوجهت إلى القاهرة. وفي مطلع شهر نوفمبر من عام 1939 كانت (فريا ستارك) على ظهر إحدى السفن العسكرية البريطانية المتجهة إلى عدن.

وحالما وصلت إلى عدن، تمّ تعيينها مساعدة لستيوارت بيراون، مدير مكتب الإعلام. ولتسكينها تمّ تخصيص غرفتين من مبنى المكتب، الذي يطل على منظر بانورامي للميناء في منطقة التواهي. وقد وصفت (فريا ستارك) غرفتيها قائلة إنهما «مملوءتان بأثاث هندي وفيكتوري، وعُلّقت على جدرانهما صور للأسر الملكية التي مرَّت بعدن، خلال المئة سنة الماضية. وهناك أيضًا طائر كناري، منسي، بدأ يغني مبيّنًا أنه الكائن الحي الوحيد بين قطع الأثاث الهامدة».

من أبرز المهام التي كانت (فريا ستارك) تضطلع بها في عدن: الإشراف على توزيع النشرة التي يعدها المكتب، ومراقبة الأفلام الواردة، وإعادة صياغة الأخبار وترجمتها إلى العربية، وبثّها بالراديو ومكبرات الصوت في مختلف ساحات عدن.

في بداية الحرب العالمية الثانية كان من الصعب على (فريا ستارك) أن تتجاهل تصريحات البريطانيين حول جبن الإيطاليين الذين أحبتهم واختارت أن تعيش بينهم سنوات طفولتها، لكنها لم تشك في أن موسوليني سيجرهم إلى الحرب. وتوقعت كذلك أن تقوم إيطاليا بقصف مستعمرة عدن، وهذا ما حدث فعلًا حينما أعلنت إيطاليا الحرب على بريطانيا العظمى وفرنسا في العاشر من يونيو من عام 1940. أما مدير مكتب الإعلام، ستيوارت بيراون، الذي بعكس مساعدته، لم يكن يتوقع دخول إيطاليا الحرب، فقد أصبح فجأة قلقًا ومعكر المزاج، ولم يكف عن توبيخ (فريا ستارك) بشدة، لأنها كانت تتمشى فوق ظهر الخيل وسط الغارات الجوية، مؤكدةً أنها لا تخشى سماع انفجارات القنابل والمدافع، وتتمنى لو أنها استطاعت العمل ممرضة ميدانية كما فعلت خلال الحرب العالمية الأولى.

وتطوعت (فريا ستارك)، بحكم إتقانها التام للغة الإيطالية، للعمل في التحقيق مع البحارة الإيطاليين الذين تمّ القبض عليهم وحبسهم في عدن؛ وبينهم قبطان إحدى الغواصات الإيطالية التي تم تدميرها بالقرب من الميناء. وبفضل تحقيقها معه استطاعت أن تستخلص منه معلومات سرية حول سفينتين آخرتين كانتا تقتربان من الميناء، وقد تمّ إغراقهما أيضًا. وتقديرًا لإسهامها في تلك التحقيقات منحتها وزارة الدفاع البريطانية بواسطة وزارة الخارجية في لندن شهادة تقديرية.

وفي شهر أغسطس سنة 1940 نُقلت (فريا ستارك) إلى مصر لتقوم بالمهمة نفسها بالإضافة إلى إصدار نشرة إخبارية دعائية أسبوعية تروج لانتصارات الحلفاء. وفي شهر سبتمبر 1941 تم نقلها إلى بغداد، بناءً على طلب مديرها السابق ستيوارت بيراون، وعيّنت سكرتيراً ثانياً في السفارة البريطانية هناك في فبراير من عام 1942. وفي أكتوبر من عام 1947 تزوجت (فريا ستارك)، وهي في سن الرابعة والخمسين، من ستيوارت بيراون، وذلك على الرغم من أن أصدقاءها قد أخبروها أنّ بيراون كان شاذاً جنسياً. وتبيّن مراسلات (فريا ستارك) أن زوجها كان يحبها حقاً، لكن بطريقة عذرية أو

أفلاطونية فقط. بالإضافة إلى ذلك لم تطق (فريا ستارك) الالتزامات الرسمية والبقاء بجانب زوجها الذي عُيّن مستشاراً للملك في ليبيا، وظلت تتنقل بين ليبيا وأوروبا إلى أن انفصلت نهائيًا عن زوجها في سنة 1952. وبعد ذلك عادت (فريا ستارك) إلى حياة الترحال الفردي، حيث قامت برحلات عدة إلى تركيا وألفت خمسة كتب عنها. وفي الستينات من القرن الماضي زارت من جديد العراق وإيران والهند، ووصلت إلى وسط آسيا. وحتى بداية الثمانينات لم تكف السيدة المسنة، (فريا ستارك)، عن الترحال متوكئةً على عصاها. ففي سنة 1977، زارت للمرة الثانية في حياتها صنعاء وبعض القرى الواقعة في المرتفعات الوسطى من اليمن. ثمَّ اضطرتها الشيخوخة أن تقضي آخر عشر سنوات من عمرها، في بيتها في أسولو الإيطالية. وقد توفيت فيه في الحادي عشر من مايو سنة 1993، بعد أن ألَّفت أكثر من ثلاثين كتابًا.

ثانيًا- رصد (فريا ستارك) لمظاهر الحياة في عدن:

تسعى (فريا ستارك) في جميع رحلاتها إلى الاقتراب من السكان المحليين، وتعلُّم لهجاتهم، وذلك بهدف رصد حياتهم اليومية وتقديمها للقارئ الغربي. وخلال زيارتيها الأولى والثانية لعدن لاحظت، مثل معظم الرحَّالة الذين مروا بالمدينة، أن ميناء عدن كان يكتظ بأناس من مختلف الأعراق. وقد التقت ببعض السكان العرب، لاسيما من عائلتي آل مكاوي وآل لقمان. وتبيّن لها مدى تأثر السكان العرب بالجاليات الأخرى والحياة الغربية المهيمنة في المدينة. ولاحظت أن العرب في عدن بدأوا في تغيير نمط حياتهم، وأن ذلك التغيير قد تجسّد في ظهور طبقة وسطى منهم، هي الأولى من نوعها على مستوى شبه الجزيرة العربية بشكل عام. وتؤكد أن علي لقمان يجسّد، في نظرها، أنموذجًا لأفراد تلك الطبقة الجديدة في الجزيرة العربية. لذلك، مثل بول نيزان الذي قال في كتابه (عدن العربية، 1932): إن عدن «صورة مكثفة لأوروبا»، باتت (فريا ستارك) ترى أن (الشرق هو الغرب)، وتوضح ذلك قائلة: «في الحقيقة، كنت مهتمة بهذا الشاب (علي لقمان)؛ لأنني أعتقد أن بإمكان المرء أن يرى في شخصيته

مستقبل الجزيرة العربية. إنه، في نظري، يجسّد حلقة الوصل بين حقبتين تاريخيتين: مرحلة القرصنة الاسكندنافية، ومرحلة البورصة في وول ستريت، وهو يجسّد ذلك اللقاء حتّى في طريقة نهوضه من جلسته في منتهى اللطف والهدوء، التي تشبه طريقة وقوف سكرتيرات السفارات أمام رؤسائهن، وذلك البدوي القادم من أقصى أطراف مستعمرتنا حينما يشدُّ على يَدَيْنا: لقد وحدتهم العادات على الرغم من اختلاف الزمان والمكان. وفي هذا اللقاء تكمن المشكلة الأساسية التي تواجهها اليوم الحكومات العربية. وقد أدَّى كل ذلك – من غير أية إرادة أو ترتيبات سياسية – إلى تلاشي الحدود الفاصلة بين الصحراء والمدينة، وفقدان حياة العرب لخصوصيتها، وتغيير إيقاعها، وظهور طبقة أرستوقراطية ناشئة: هي طبقة الحرفيين الوسطى. ولا تعد هذه الطبقة ظاهرة جديدة في بلاد العرب. فالكتّاب والتجار، الذين تحدثت عنهم (حكايات ألف ليلة وليلة)، مثل السندباد البصري ومعظم الأسماء التي يمجدها العرب، وحتى الرسول نفسه والصحابة، كلهم نشأوا في الجو التجاري المهني، ووسط مجتمع عريق أساسه التجارة، وشكلت تلك الظاهرة الأساس الديمقراطي للفكر العربي؛ فنشأة هؤلاء الحرفيين وسلوكهم وآراؤهم تجعل منهم نخبة زمانهم. والفرق بين منتسبي تلك الطبقة اليوم ومنتسبيها بالأمس يكمن في أن الحرفيين يتحكمون اليوم في زمام أمورهم؛ فبعد أن كانوا أمس مجرد شريحة من القبيلة أو العشيرة، يتحملون بصبر ضغائن الشيخ، باتوا اليوم يتحكمون في مصائرهم، ويتوقون إلى الوصول إلى السلطات العليا، وأصبح لديهم حساباتهم وسجلاتهم الخاصة. ولم تعد الصحراء عائقًا يمنعهم من إرسال معاملاتهم وبضائعهم. وما يتم تداوله من أفكار وكلمات في جامعات بيروت والقاهرة تسمعه أيضًا في خيام القبائل. بل إن عربات فورد وشيرفولت أضحت اليوم من المناظر المعتادة في رمال الجزيرة العربية كما هي الحال في نيومكسيكو وأريزونا. إنها هذه الخلفية الجديدة التي ترعرع فيها علي هي التي شدّت انتباهي إلى هذا الشاب».

وتقترب (فريا ستارك) كذلك من بعض السكان من ذوي الأصول الهندية والصومالية والفارسية وتعجب بهم، وتعجب بهم وتصف بعض عاداتهم. فهي تقدم

مثلًا بعض الطقوس الدينية التي يحرص الفرس على أدائها يوميًّا في عدن، وذلك على النحو الآتي: «في الليالي شديدة السخونة، أتمدد فوق السرير البني، الواسع، الذي عاشت وماتت فوقه عائلات فارسية بأكملها، وأستيقظ وسط الظلام على صوت أقرب مؤذن ينادي إلى الصلاة. وأظل مستلقية، في مكاني، أستمع لأصوات الفرس وهم يفطرون، ويصلون في أحواشهم، في الأسفل. كانوا يتجمعون عند الساعة الخامسة لينشدوا معا دعاء الفجر. وبعد ذلك تصلني رائحة البخور، الذي يتم وضعه، في مجامر، فوق كل طاولة في بداية كل يوم جديد ونهايته. وقد طلبت من الفرس أن يشركوا مكتبنا الإعلامي في دعائهم المبارك».

ولا شك في أن (فريا ستارك)، مثل معظم الكتاب الغربيين الذين كتبوا عن الشرق، كانت تحاول أنْ تجذب القارئ من خلال تضمين كتبها بعض الأحداث والمشاهد الغرائبية، أو التي سيجدها القارئ الأوروبي غريبة على الرغم من واقعيتها. فهي تزور معبد الهندوس وسط عدن ومقبرتهم (برج الصمت)، وتؤكد أن الغربان هناك تحوّل جثة المتوفي منهم إلى هيكل عظمي في ساعة من الزمان.

وإضافة إلى السكان المحليين، تقدم (فريا ستارك) بعض عادات الجاليات الغربية المستقرة في عدن وتزور بعض أنديتها. وكما ذكرنا كانت ستارك في زيارتيها الأولى والثانية لعدن قد نزلت ضيفة على التاجر الفرنسي أنتونين بس، ومن خلال ترددها على منزله لاحظت غرامه بأسطوانات اشمع والموسيقى الغربية وعندما ترددت على مكاتب شركته تلاحظ النشاط التجاري الهائل الذي تشهده عدن حينذاك. وقد رافقها البس في جولات تسلق لجبال عدن وزار معها الفنار المطل على (ساحل جولدمور)

وبحكم طبيعة مهمتها شاركت (فريا ستارك) في تأسيس أول بث إذاعي في عدن. ومن المعلوم أن مديرها ستيوارت بيراون، الذي أسس مكتب الإعلام البريطاني في عدن، عند اندلاع الحرب العالمية الثانية في مطلع سبتمبر 1939، كان صحفيًّا وفي الوقت نفسه مذيعًا محترفًا. ومنذ تأسيس مكتب الإعلام سعى إلى افتتاح إذاعة في

عدن. وقد افتتحت الإذاعة فعلًا بتاريخ 15 سبتمبر 1940، وكانت تبث باسم (صوت الجزيرة) باللغة العربية والإنجليزية، وكانت تبدأ في الساعة السابعة والنصف مساءً من كل يوم. وكانت تركز في برامجها على أحداث الحرب، وأهمية عدن بوصفها موقعًا عسكريًّا. واستمرت في إذاعة أخبار الحرب والتعليقات السياسية وقراءة بعض المقالات الصحفية، إلى أن تمّ إغلاقها عقب انتهاء الحرب في عام 1945. ومن أبرز الشخصيات التي أسهمت في نشاط تلك الإذاعة، إضافة إلى (فريا ستارك): الأستاذ محمد علي لقمان، وابنه علي، والأستاذ عبد الرحيم لقمان ويوسف حسن السعيدي.

ورصدت (فريا ستارك) كذلك البدايات الأولى للصحافة العربية في عدن، وكتبت: «والد علي (محمد علي لقمان) محام بارع؛ وكان يخطط لإصدار ما هو الآن الصحيفة الوحيدة في جنوب الجزيرة العربية (فتاة الجزيرة)، وقد قام ستيوارت بيراون (مدير مركز الإعلام البريطاني) بجمع الورق والمكائن لمساعدته. وخلال لقاءاتهما نجح المحامي في إقناع ستيوارت أن الأفكار المعبّر عنها في الصحيفة يجب أن تكون أفكاره». وقد قامت صحيفة (فتاة الجزيرة)، التي صدر أول أعدادها في يناير 1940، بنشر بعض المقالات المترجمة ل(فريا ستارك). كما شاركت (فتاة الجزيرة) في نشر كثيرٍ من المواد الدعائية للجيش البريطاني وجيوش دول الحلف الأخرى، طوال سنوات الحرب العالمية الثانية

وضمّنت (فريا ستارك) كتابيها (الشرق هو الغرب East is West)، و(غبار في مخالب الأسد، سيرة ذاتية Dust in the Lions Paw 1939-1946)، رصدا لعدد من الأحداث العسكرية التي شهدتها مدينة عدن خلال السنة الأولى من الحرب العالمية الثانية. ومن المعلوم أن معظم أجزاء الكتاب الثاني تتكوّن من مزيج من الرسائل التي بعثتها المؤلفة إلى أقاربها وأصدقائها في مختلف أنحاء العالم، ومن اليوميات التي ذكرت أنها انتظمت في تسجيلها طوال سنوات الحرب. ويُعد الكتابان من الوثائق التاريخية النادرة التي نجد فيها صدى لتأثير الحرب العالمية الثانية في الحياة اليومية في

عدن. فالمؤلفة رصدت فيهما مشاعر السكان تجاه الانتكاسات التي مُنِيت بها فرنسا وبريطانيا خلال تلك المدة، وأكدت أنهم كانوا يشعرون بالخطر منذ بداية الحرب، إذ إنهم مقتنعون بأن إيطاليا ستدخل الحرب إلى جانب ألمانيا، وإن ذلك يعني قيام القواعد الإيطالية في القرن الإفريقي بشن غارات على مستعمرة عدن البريطانية.

ففي نهاية شهر يونيو 1940، كتبت (فريا ستارك) أن الغارات الإيطالية على ميناء عدن أصبحت منتظمة، وتحدث في الغالب في أثناء الليل، أو عند الفجر. وقد أدت الغارات إلى تحطم زجاج نوافذ المباني، بما فيها المبنى الذي يقع فيه المركز الإعلامي. وتقول إن منطقة (الهلال) التجارية في التواهي غدت شبه مهجورة، و«هيمنت حالة من الهلع على المدينة، وجعلت السكان يتهافتون على شراء المواد الغذائية، والبضائع الأخرى من المحلات التجارية التي شرعت في التخلص مما لديها من بضائع؛ لأنها كانت تحرص على المال أكثر من البضائع. وهرب معظم السكان من منطقة التواهي، وكذلك من منطقة المعلا، وانتقل أصحاب المتاجر إلى فروع مؤسساتهم في منطقة كريتر، التي كانت أكثر أمنا».

وذكرت كذلك أنّ كثيرًا من سكان عدن قد سارعوا في مغادرة المدينة حتى قبل دخول إيطاليا الحرب في العاشر من يونيو 1940. كما قامت السلطات البريطانية نفسها بترحيل معظم الأطفال والنساء البريطانيات قبل ذلك التاريخ، وكتبت: «وكان العرب في عدن قلقين على أسرهم، ويتساءلون عمّ إذا كانت لحج ستظل آمنة، وفضَّل كثيرٌ منهم السفر إلى الهند». وأضافت أنها ومديرها ستيوارت بيراون وضعا مجموعة من منشورات التوعية والتحريض، وقاما ببثها في مختلف الساحات ومراكز الشرطة في مدينة عدن.

ونجد صدى تلك الأحداث في مذكرات المحامي محمد علي لقمان (رجال وشؤون وذكريات Men, matters and Memories)، الذي كتب في الحلقة الرابعة والستين منها: «في العاشر من يونيو من عام 1940، انضمَّ موسيليني إلى الحرب، إلى

جانب هتلر، وبذلك انضمت الفاشية إلى النازية، في محاولة للسيطرة على العالم. وكنت قبل أيّام قليلة، أرسلت أسرتي إلى لحج، حيث ساعدني السلطان عبد الكريم في استئجار بيت طيني محاط بملحق ضخم بدون بوابة، لكن الأمن جيد بنسبة 100٪، ولزمت عدن مع ابني علي، الذي كان مسؤولًا عن النشرة اليومية لمكتب الإعلام. وفي ليلة إعلان موسوليني الحرب، كنت جالسًا بالقرب من المذياع، واستمعت إليه يتوعد ويهدد باللغة الإيطالية من محطة باريس الإذاعية. وجاءني السيد ستيوارت بيراون يطلب مساعدتي لإذاعة الأخبار من مكبرات الصوت من مركز شرطة كريتر. وقد نبّه الناس إلى أنْ يتوقعوا المعاناة والمحن، وأن يكونوا أقوياء في مواجهة الأضرار. وقد تمّت محاصرة المواطنين الإيطاليين في عدن خلال ساعة واحدة بعد إعلان الحرب وتمّ التحفظ عليهم».

وذكرت (فريا ستارك) أنّ السلطات البريطانية قامت بتلغيم ميناء عدن في نهاية شهر يونيو 1940، وألقت القبض على ثلاث غواصات إيطالية. وشاركت هي- كما ذكرنا- في التحقيق مع بعض ملاحيها. وعند بدء تعرض عدن للغارات الإيطالية، بادرت (فريا ستارك) إلى اقتراح تشكيل ثلاث فرق من الشباب العرب للعمل التطوعي: حراسة الشوارع والمنازل في أثناء الغارات الجوية الإيطالية. وتقول إن السلطات البريطانية، التي لم تعترض على ذلك، لم تقدم أية مساعدة، وتضيف: «بل أن الجيش المرهق والسلطات المحلية اعتبرونا إحدى المخلوقات الوهمية، إن لم نكن آخرها. لكنّا شعرنا أن ما قمنا به كان إيجابيًّا، على الأقل للهواة الذين يسعون إلى المشاركة في الدفاع عن أنفسهم. وحينما خططنا للتدريب في مجموعات مسلحة، أخبرنا البريق الذي يشع من عيني علي لقمان أننا على صواب، ولمحتُ البريق نفسه في الصباح عندما أخذتْ إحدى السفن عدداً من نسائنا، وتبيّن لعلي أنني لم أكن بين المغادرات. وفي تلك المدة، كان علي لقمان يقوم بمهمة المراقبة، وحينما يسمع صوت الإنذار من الغارات الجوية يهرع مهرولًا من طاولته، سعيدًا أن تُسنَد إليه مهمة في الخارج».

وفي مطلع شهر يوليو من عام 1940، الذي سقطت فيه معظم المعاقل الأوروبية، وأغلقت بوابات البحر الأحمر، قامت السلطات البريطانية بنقل العديد من الهنود والفرس ومعظم النساء الأوروبيات من عدن إلى أماكن آمنة، وباتت مدينة عدن الصغيرة في مواجهة الإمبراطورية الإيطالية الناشئة في الجانب الآخر من البحر الأحمر. وتؤكد (فريا ستارك) أن الشوارع في عدن أصبحت شبه فارغة، وكذلك الشواطئ الممتلئة بالمتاريس والسفن النرويجية المثقّبة بطلقات المدفعية، وبات الناس يشعرون أنهم يعيشون في جبهة أمامية معزولة. وكتبت: «وعندما ينقل لنا اللاسلكي في الصباح خبر الاعتراف بهزيمة بعد هزيمة، يشاركنا علي لقمان، وهو يرفع رأسه قليلًا فوق مكتبه، الصمت الذي يخفي فيه الجميع إمكانيات الاضمحلال، من غير أن يبدي أي تعليق». وفي نهاية الشهر (يوليو 1940)، بدأت (فريا ستارك) نفسها تفكر جديًا في مغادرة عدن، وسافرت فعلًا إلى القاهرة للتشاور مع المسؤولين الأمنيين هناك.

الفصل الثالث- شخصيات من عدن:

أ- علي محمد لقمان:

من أهم أسباب نجاح (فريا ستارك) في رحلاتها الاستكشافية والاستخباراتية طريقة تعاملها مع السكان المحليين؛ وقدرتها على نسج شبكة من العلاقات الممتازة مع عدد كبير من الشخصيات كالتجار والسلاطين والحكام والوزراء والوجهاء و»المناصب» والمثقفين، وكذلك قدرتها على مخاطبة كل واحد منهم بالأسلوب الذي يفضله. وفي عدن، أعطت (فريا ستارك) اهتمامًا خاصا بشخصية الشاب علي محمد علي لقمان، الذي كان يعمل معها في مكتب النشر في عدن. وأكدت في كتابها (الشرق هو الغرب) أن علي لقمان كان «محور مكتب الإعلام ودعامته الرئيسة»، وقدمته على النحو الآتي: «كان المترجم علي محمد، الذي يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا، نحيلاً ويرتدي بدلة بيضاء وربطات عنق ثمينة وجميلة. وكانت يداه، الحساستان، الناعمتان، في غاية النحافة، كأنهما لم تخلقا إلا لتحملا الأعصاب والأوتار والأفكار التي تحركهما، دون

زيادة في اللحم. ولم يكن بياض بشرة علي لقمان في مستوى بياض ثيابه، لكنها لم تكن قاتمة، بل مصبوغة بآثار تعرضها الطويل للشمس. وبإمكاننا مشاهدة الصبغة الداكنة نفسها في سنحات الأوربيين الذين يتجولون هنا في المستعمرة، بعيدًا عن سكناهم. ولا شك أنهم قد اكتسبوا الدرجة نفسها من المقاومة. وكان علي يدخل المكتب بعد أن يقطع الأميال الخمسة، التي تفصل منزله في منطقة (كريتر) عن منطقة (التواهي)، بالدراجة الهوائية، وينتظر أن يراه أحد ويقول له: «صباح الخير»، وكان هو يرد بابتسامة أكثر منه بالكلمات».

ومن المؤكد أن (فريا ستارك) قد أعجبت بحماس علي لقمان ونشاطه وأناقته. وذكرت أنه كان يساعدها في تحرير النشرة العربية، ويناقشها في دلالات بعض الكلمات الإنجليزية ومدى ملاءمة الإيقاعات العربية للنصوص التي تُوظَّف للردّ على البروباجندا الإيطالية، وتُقدَّم على أنها الأخبار الصحيحة الوحيدة عن الحرب، وذلك لسكان عدن الذين يسمعونها في المساء، حينما يحتشدون، تحت ضوء النجوم في ميدان كريتر، (مرتلةً) بالصوتِ الجميلِ لقارئ مسجدهم، ومكبرًا للصوت.

وفي الفصل الثالث من كتابها (الشرق هو الغرب)، عبّرت فريا كذلك عن إعجابها بثقة علي لقمان في البريطانيين، وحاولت أن تفسر تلك الثقة قائلة: «تدريجيًا عثرتُ على ما يقف وراء ثقة علي: إنه يؤمن بما كنَّا نحارب من أجله. فبالنسبة له، كانت كلمات النصوص الهجائية المشحونة بالمعاني الصادقة كلمات حيَّة؛ فحتى الآن لم يكن لدى الإنسان العربي الوقت ليفكر في الكلمات من الزاوية الدعائية أو الترويجية، وهو لا يزال يربطها بوجود الله، بطريقة غامضة».

ومن ناحية أخرى، من المؤكد أن (فريا ستارك) قد اكتشفت المواهب الأدبية التي يمتلكها الشاب علي لقمان، الذي في عام 1940 لم يكن قد نشر بعد أي نص شعري من تأليفه. وقد أعجبت كثيرًا بطريقة صياغته للأخبار التي يبثها المكتب بالمذياع، وتقول

إنه كان «يضفي شيئًا من الحب على تحرير الأخبار اليومية، التي كنت ألتقطها من المذياع أثناء فطوري، في نثر عربي جميل».

ولا ريب في أن علي محمد لقمان قد تعاطف كثيرًا مع (فريا ستارك) في زمن الانكسار البريطاني في جبهات القتال عام 1940، وبذل جهدًا كبيرًا في ترجمة قصائد ووردزورث الحماسية إلى العربية التي قدمتها له (فريا ستارك). وقد قام مكتب الإعلام بنشرها في كتاب وَزّعَت منه ألفي نسخة في بضعة أيام. وسردت (فريا ستارك) ذلك في كتابها (الشرق هو الغرب) على النحو الآتي: «كنت أقرأ (السونيتات) التي ردّ بها ووردزورث، ما بين عامي 1801 و1806 على غزو بريطانيا، عندما تبيّن لي أن الكتيبات والملصقات وكل ما بعثته إلينا مكاتب الإعلام في لندن إلى هذه اللحظة لم يكن مجديًا أو غير مناسب إثر إغلاق البحر الأحمر. وسألت نفسي عمَّ إذا كانت سونيتات ووردزورث يمكن أن تثير حماس السكان العرب في عدن في زمن المخاطر الذي نعيشه. وأعطيتهم إلى علي محمد ليأخذها معه إلى منزله. وقد أتى إلى المكتب في الصباح التالي والبريق يملأ عينيه، حاملًا اثنتين من السونيتات مترجمة إلى العربية شعراً. «هذا، قال لي بحماس واندفاع، هذه القصائد للعرب، إنها بطولية!» وكنا نعتقد أن عدد القراء في

وسبق أن تحدثنا في الجزء الأول من الورقة عن مبادرة (فريا ستارك) إلى تشكيل ثلاث فرق من الشباب العرب للعمل التطوعي وحراسة الشوارع والمنازل في أثناء الغارات الجوية في عدن في صيف عام 1940، وقد أسهبت في الحديث عن المشاركة الكبيرة التي قام بها علي محمد لقمان لإنجاح تلك المبادرة.

ب- أنتونين بس:

ذكرنا أن (فريا ستارك) في زيارتيها الأولى لعدن اضطرت أن تنزل ضيفة على التاجر الفرنسي أنتونين بس، الذي أطلقت عليه لقب «ملك سواحل البحر الأحمر»، والذي قدَّم لها، هو ووكلاؤه المحليون المنتشرون في مدن حضرموت، كثيراً من التسهيلات. وفي صباح اليوم التالي لوصولها لعدن في 19 ديسمبر 1934، كتبت إلى أبيها الروحي

هيربرت يونج رسالة قدمت فيها التاجر الفرنسي على النحو الآتي: «لقد نزلت في منزل جميل للغاية، وسأقيم فيه مدة ثلاثة أسابيع. السيد بس في غاية اللطف، وهو من صنف تجار ألف ليلة وليلة. طوال النهار لا يكفُّ عن استلام البرقيات من الهند وأمريكا وأفريقيا وأوروبا. وسفنه تجوب دون انقطاع هذه البحار، وستأخذني إحداها إلى المكلا. كما أن وكلاء البس موجودون في كل مكان؛ وقد أخبرني أنه سيوصيهم بالاهتمام بي في وادي حضرموت حيث يعيش كثير من أصدقائه المناوئين لسلطان المكلا. لهذا يبدو لي أن المحطة الثانية من رحلتي ستكون جميلة».

وقد قام أنتونين بس بتسكين ضيفته في منزل ملاصق لبيته الحجري في مدينة (كريتر) عدن، ودعاها لتناول جميع الوجبات في مائدته. وقد أعجبت فريا بأثاث بيت مضيفها: «السجاد الفارسي الفاخر، والتحف الأثرية ولفنية، والصور، والبيانو، ومجموعة واسعة من أسطوانات الموسيقى الكلاسيكية». وخلال الأسابيع الأربعة التي أمضتها (فريا ستارك) في عدن، في أثناء تلك الرحلة الأولى، كانت تقضي ساعات الصباح في ممارسة اللغة العربية مع مدرس أحضره لها أنتونين بس، وبعد العصر تذهب إلى شركته لتشاهده وهو يدير إمبراطوريته، ويعقد صفقات النفط، والجلود، القهوة، واللؤلؤة، والبخور، عبر البرقيات.

ولا شك أن (فريا ستارك) قد أعجبت بشخصية التاجر العصامي أنتونين بس، فهي كتبت تقول لأمها: «لديه شغف بكل شيء جميل. وهو في الواقع شخص جذاب، ومتسرع جدًا، وينقاد دائمًا لحدسه». ومن جهته أعجب أنتونين بس بشجاعة الرحَّالة المستكشفة (فريا ستارك)، التي لم تتردد في تسلق الجبال المحيطة بعدن مرفقته؛ فبعد أن كان قد نصحها في البداية بصرف النظر عن الذهاب إلى حضرموت والبحث عن شبوة القديمة، باتَ يؤكد لها ثقته بنجاحها.

ومن المؤكد كذلك أن «انجذابًا متبادلًا» نشأ بين (فريا ستارك) وأنتونين بس من أول يوم وصلت فيه (فريا ستارك) إلى عدن. وتؤكد جين فليتشر في كتابها ((فريا ستارك):

البدوية العاشقة)، أن «كل منهما أحبَّ الآخر على الفور، وأمضت فريا جميع أمسياتها، في تلك الرحلة، في صحبة أنتونين بس، إلى درجة أن الناس في عدن أصبحوا يتحدثون عن: فريا وأنتون».

وبما أن أنتونين بس كان في أديس أبابا لحل بعض المصاعب التي تواجه فروع شركاته هناك عندما أعيدت (فريا ستارك) من حضرموت إلى عدن على متن طائرة عسكرية، في شهر مارس من عام 1935، فقد سارع إلى إرسال عشرات البرقيات إليها، وأمر ابنته مريم بمرافقتها خلال رحلة العودة إلى إيطاليا. ثم سافر هو إلى السويس ليطمئن بنفسه على حالتها، وأصر على أن تكمل ابنته مريم الرحلة معها إلى أسولو.

ولم تقطع (فريا ستارك) علاقتها بآل (البس) خلال إقامتها الأخيرة في عدن، في بداية الحرب العالمية الثانية، وذلك على الرغم من تأطيرها عمليًّا وعاطفيًّا من قبل مديرها ستيوارت بيراون. وأكدت، في كتابها (غبار في مخالب الأسد: سيرة ذاتية 1939-1946): «كنت أهرب (من التواهي) إلى كريتر، (مدينة عدن القديمة)، مرتين في الأسبوع، لأرى هيلدا بس، وزوجها أنتونين، ملك سواحل البحر الحمر، الذي ظل محتفظًا بتألقه وطرافته وابتهاجه. وأخبرني أنه يشعر بالأسى لأنه لم يستطع، حتى في زمن الحرب، التوقف عن جمع الأموال التي أبت إلا أن تتكدس في خزائنه رغمًا عنه».

ج- التاجر الفارسي فرامروز:

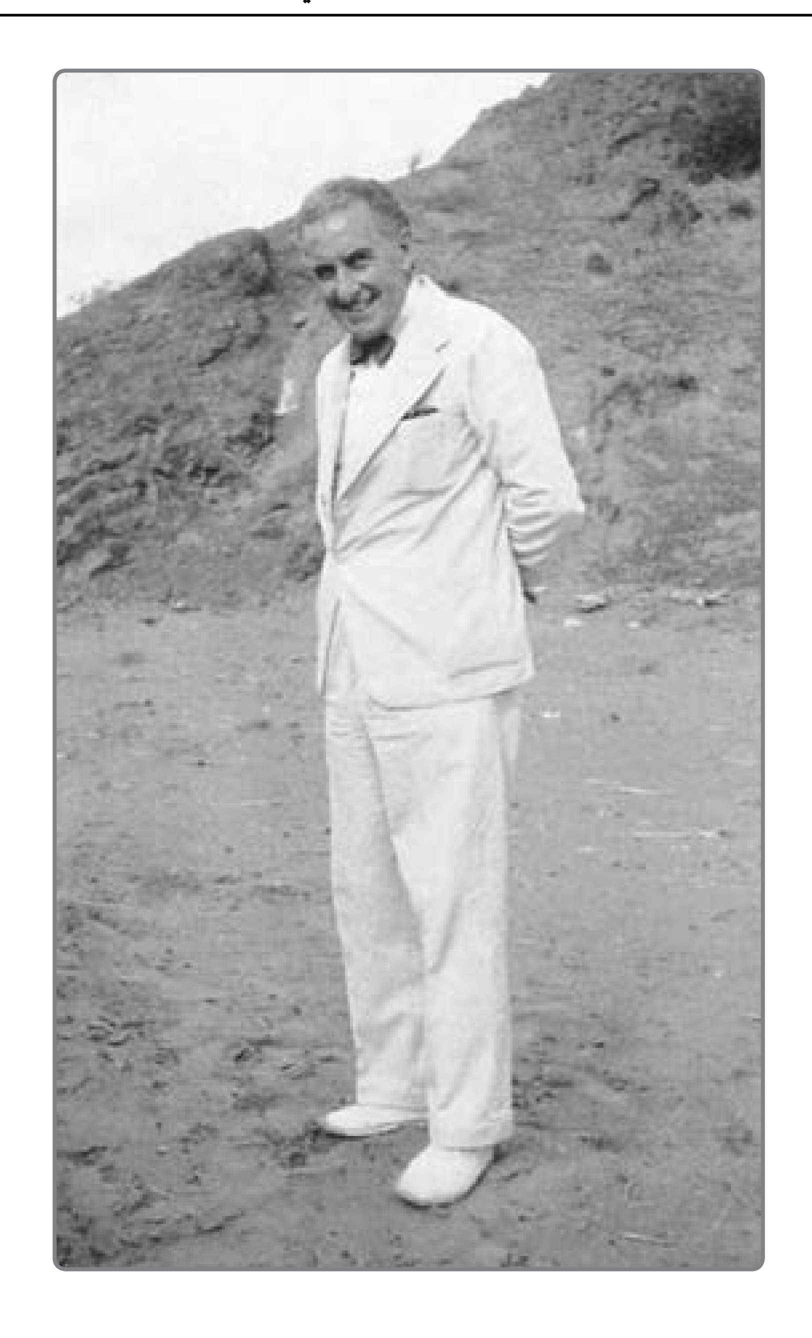
مثل كثير من الرحَّالة الأوروبيين، لاحظت (فريا ستارك) أن عددًا من الهنود من ذوي الأصول الفارسية الذين قدموا إلى عدن من مومباي بعد وصول البريطانيين سنة 1939، استطاعوا أن يتحكموا في تجارة الجملة في عدن. وكتبت: «على حواف فوهة البركان الخامد، بمحاذاة الخلجان المتلألِئة، تتضاعف ثروات العائلات الفارسية، بالوتيرة نفسها التي تنمو بها الحاجة لواحد من أهم الموانئ في العالم: عدن. وشرع الفرس في شراء السفن، وتمكنوا من بسط نفوذهم على التجارة الساحلية. وبدأت دكاكينهم، بواجهاتها المسقوفة، ومداخلها المعتمة، تزدهر، وتنتشر في شكل هلال، حول أرصفة الميناء الجديد (التواهي the Steamer Point). ولا شك في أن ثمة توسع

خطير تشهده التجارة الشرقية. وخطورة هذه التجارة لا تكمن في حجمها وأرقامها، بل في المدى التي تنتشر فيه: براً وبحراً. وعلى حواف فوهة البركان الخامد، بمحاذاة الخلجان المتلألِئة، تتضاعف ثروات العائلات الفارسية، بالوتيرة نفسها التي تنمو بها الحاجة لواحد من أهم الموانئ في العالم: عدن».

ومن بين هؤلاء التجار الفرس ركزت على التاجر فرامروز (Framrose) الذي قدمته قائلة: «كان السيّد العجوز يترجرج بجسمه المترهل، وقلنسوته ذات الخطوط البيضاء والسوداء؛ إنه كبير مالكي السفن والتجار الفرس، الذين جاءوا إلى عدن، مع القوات البريطانية، عام 1839. لقد كانوا هم أول المقاولين الذين تعاقدوا مع الجيش البريطاني في ميناء عدن، الذي كان عبارة عن أرض بركانية معزولة، ومحطة لتزويد السفن المتجهة إلى الهند بالفحم، وذلك قبل أن يفكر أحد في شق قناة السويس. ولم تبلغ تجارة السيد فرامروز وعائلته هذا المستوى العالي الذي بلغته تجارة البس، ومع ذلك، فهو مثله مشغول دون انقطاع باستقبال التجار القادمين من أرض سبأ، والتجار الصوماليين شديدي السمرة والنحافة، القادمين من بربرة وجيبوتي».

وتناولت فريا علاقة التعاون المتينة التي نشأت بين الحكومة البريطانية والتاجر فرامروز الذي لم يكف عن دعم السلطات في عدن معنويًّا وماديًّا. فهو، مثلًا، قدّم أحد أجمل بيوته في التواهي دعمًا حربيًّا للحكومة البريطانية، التي مكنته -بفضل حمايتها- من جمع ثروته في هذه السواحل المكتظة بالقراصنة. وقد جعلت السلطات في عدن هذا البيت، الذي يطل على مشهد بانورامي للمرفأ، مقرًّا لمكتب الإعلام (Information office).

وتحدثت (فريا ستارك) كذلك عن تدهور الحالة النفسية للتاجر الفارسي فرامروز خلال السنة الأولى من الحرب، ورفضه مغادرة عدن مثل كثير من الهنود والفرس والبريطانيين، وذكرت أن «علي لقمان كان يحاول أن يرفع معنوية السيد فرامروز الذي، على الرغم من عناده، كان يرتجف في كرسي وضعه في سطح المبنى، مقتنعًا أن السماء الزرقاء هي المظلة الآمنة من القذائف والشظايا».



الرحالة والمجتمع الفسيفسائي العدني

أ.د. سمير عبد الرحمن هائل الشميري
أستاذ علم الاجتماع - جامعة عدن

المقدمة:

تقول عِيسي وقد أزمعتُ مرتحلًا لحجًا وقد لاحت الأعلام في عدن:
أمنتهى الأرض يا هذا تريد بنا؟! فقلت: كلا، ولكن منتهى اليمن

«عمر بن أبي ربيعة»

الرحَّالة والمجتمع الفسيفسائي العدني موضوع شائق لم تمضغه الأفواه، وله رنين أنيق في عقولنا ووجداننا يحمل قلق السؤال الفكري ويحفز اللب على التفكر والتدبر في مسالك الوعي والذاكرة والهوية الثقافية والأعراق واللغات والديانات والتضامن الاجتماعي والاندماج الاجتماعي والثقافات الفسيفسائية.

لقد استخدمنا في البحث المنهج الوصفي، والنص الذي بين أيدينا يندرج ضمن ما أصطلح تسميته في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا بالدراسات الوصفية، وفي ثنايا النص استخدمنا المدخل التاريخي لترصين مداميك البحث، فمن المعلوم «أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفائدة، شريف الغاية»[1].

ويطيب لي أن أعلن، أن غايتي من كتابة هذا النص تقديم لوحة صغيرة من التمازج والتخالط الاجتماعي والثقافي والإنساني في مدينة عدن، وتوضيح ما سطرته أقلام الرحالة والمستشرقين عن مدينة عدن ومينائها التاريخي والتنوع العرقي والثقافي وتسامح الأعراق والطوائف في مدينة كونية كوسموبوليتية استوعبت الأقوام والثقافات والهويات وانبجست من روحها ووجدانها وأنسجتها الاجتماعية ثقافة إنسانية مفعمة

(1) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: مجدي فتحي السيد، (القاهرة: دار التوفيقية للتراث، 2010م)، ص15.

بروح المحبة والتسامح والتساكن الاجتماعي في ظل مؤسسات ضبط فاعلة وأبنية سلطوية ترشِّد وتنمي هذا التناغم وتكسر قاعدة الكره والتدابر والتباغض والقطيعة والتهاجر الاجتماعي والنعرات الشوفينية.

ولا أنسى أن أنوِّه، أننا لا نستطيع كتابة ورقة علمية إلا بمنهج علمي، وأولى مبادئ المنهج العلمي تحديد التساؤلات، وأهم التساؤلات التي نبسطها في هذه الورقة هي:

- هل عدن مدينة تاريخية؟
- ماذا قال الرحالة والمستشرقون عن مدينة عدن؟
- ما لون التعدد والتسامح الثقافي والعقائدي في مدينة عدن، وما طبيعته؟
- ما أهم البصمات لأطروحات الرحالة والمستشرقين عن مدينة عدن وأهلها؟

النص الذي سطرناه متنوع المقامات والضروب تمتد دائرة البصر فيه لتشمل عدن من زاوية تاريخية وموقعها في خارطة المدن التاريخية العالمية وموقعها الجغرافي والتجاري والعسكري العظيم، ثم نسير بخطوات عريضة في البحث والتنقير في المراجع التاريخية وأمهات الكتب والأسانيد لاستجلاء أطروحات الرحالة والمستشرقين بمنأى عن الظنون والترجيحات والبحث عن وجوه الحق ومعالم الطريق.

لست أزعم أني بلغت الكمال في هذه الورقة، فالكمال شرف لا أدعيه لنفسي.

هذا وتتكون الورقة من النقاط التالية:

- المقدمة
- أولًا: عدن مدينة عريقة في القدم.
- ثانيًا: عدن مدينة التسامح والتعدد الثقافي.
- الخاتمة.

لا أريد أن أقول، أن ما هو مسطور في هذه الورقة قابل للمناقشة والسجال والمطارحات العقلانية الهادئة، ولن نتردد في تصحيح الأغلاط وتصويب الأخطاء إذا ما تبين لنا ذلك.

أولاً: - عدن مدينة عريقة في القدم: -

في دراسة لمنظمة اليونسكو للبحوث التاريخية والأثرية بينت فيها أقدم المدن التاريخية في العالم وعمر كل مدينة قديمة وعلى النحو التالي: [1]

1. حلب – سوريا (12200 عام).
2. أريحا – فلسطين (10600 عام).
3. دمشق – سوريا (9200 عام).
4. الإسكندرية – مصر (7900 عام).
5. اللاذقية – سوريا (7300 عام).
6. سامراء –العراق (6500 عام).
7. عدن – اليمن الجنوبي (5500 عام).
8. خرسان – إيران (4800 عام).
9. الرقة – سوريا (4000 عام).
10. صنعاء – اليمن (3500عام).

فعدن مدينة حضارية أثرت في ثقافتها وتمدنها وروحانيتها وجغرافية عقلها وفضاءات الأمكنة على البشر في التراب الوطني والإقليمي، فهي مدينة تاريخية عامرة بالثقافة والتمدن.

كانت منذ العصور القديمة أهم مركز تجاري ما بين الشرق والغرب على الطريق البحري بين مصر والهند وطريق القوافل بين اليمن والشام. ولعل أقدم إشارة تحكي دور ميناء عدن في خدمة التجارة الدولية جاءت في التوراة، حيث عرفت عدن التجارة وما يتبعها من عمليات تنظيم وشحن وخزن وتسويق واستيراد وتصدير منذ القدم[2].

---

(1) دراسة لمنظمة اليونيسكو للبحوث التاريخية والأثرية – https:ar.unesco.org a–
–nabd–sharqi.com b –

(2) إبراهيم أحمد المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، (صنعاء: دار الكلمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزء الثاني، 2002م)، ص1026.

ولقد ورد ذكر عدن في التوراة في سفر «حزقيال» كميناء تاريخي شهير، وذكر اسمها في نقش يوناني قديم حيث سميت بالعربية السعيدة (وهو اسم عمِّم على اليمن كلها فيما بعد)[1].

ويذكر المؤرخ محمد كريم إبراهيم الشمري أن عدن مدينة عريقة في القدم فقد ذكرها اليونان والرومان باسم Adana، وسميت أيضًا Arabia Eudaemon أي العربية السعيدة.

هناك من يرجع تسمية عدن إلى العدون بمعنى الإقامة أو التوطن بالمكان. وقيل إن الأحباش عدوا في سفنهم إلى عدن، وخرجوا منها، فقالوا: عدونة، وتفسيره: خرجنا. ويروي ابن المجاور بأن عدن كانت سجنًا لأصحاب الجرائم. ففي رواية الطبري أنها سميت بعدن بن عدنان، وكان لعدنان من الأولاد معد وعدن. وأن عدن اسم لشخص يدعى عدن، واشتق اسم عدن من المعدن وهو معدن الحديد. والنسبة إلى عدن العدني تطلق على من سكنها وانتقل إليها واستقر فيها[2].

واسم عدن ساحر يفجر القصص والأساطير، فثمة قصص وأساطير تحوم في سماء هذه المدينة الأنيسة فيقال:

إن شداد بن عاد لما وجد أنه لا يمكن الدخول إلى وادي عدن، أمر بأن ينقر له باب في صدر الوادي، فأقام على حفر نهر ونقر باب رجلان قالا حكماء الهند أنهما عفريتان من الجن. واستمر الحفر والنقر سبعين عامًا، وفي النهاية قال ناقر الباب: إنه بمشيئة الله سوف يتم عمله في الغد، أما حافر النهر فقال: سوف يتم حفر النهر في الغد شاء الله أم لم يشأ، وفي الحال ارتدم ما حفر وما بني وانسد معين الماء من الأصل. أما ناقر الباب

(1) الموسوعة اليمنية في أربعة مجلدات، المجلد الثالث، (صنعاء: مؤسسة العفيف الثقافية، ط2، يناير 2003م)، ص2043.

(2) محمد كريم إبراهيم الشمري، عدن دراسة في أحوالها السياسية والاقتصادية 476- 627 هـ، 1083- 1229م، (عدن: دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ط2، 2004م)، ص55، 56، 57، 58.

فقد أتم عمله وفتح الباب وصار شداد بن عاد يدخل إلى وادي عدن ثم حول شداد هذا الوادي إلى سجن يحبس فيه خصومه[1].

وعلى سياق متصل يذكر المؤرخ العدني أبو مخرمة في كتابه تاريخ ثغر عدن:

اعلم أن عدن بلدة قديمة، يقال أن قابيل لما قتل أخاه هابيل، خاف من أبيه آدم، ففر من أرض الهند إلى عدن، وأقام هو وأهله في جبل صيرة، وأنه لما استوحش بمفارقة الوطن وغيره، تبدى له إبليس ومعه شيء من آلات اللهو كالمزامير ونحوها، فكان يسليه باستعمالها، فهو أول من استعمل ذلك على ما قيل[2].

ولقد أومأ الرحالة الألماني هنزهولفريتز أن: كلمة عدن تعني في اللغة العربية جنات النعيم والفردوس، وثمة نظريات تقول أن عدن هي المكان نفسه المذكور في سفر حزيقيال في التوراة، وكثير من الثروات كانت ترد من البلاد الأسطورية النائية، كانت تنقل عن طريق عدن. وكان الفينيقيون يعرفونها ويعدونها أهم المراكز التجارية في جنوب جزيرة العرب، وجاء الرومان بعد ذلك، فاحتلوا شبه الجزيرة، وظلوا قائمين على احتلالها حتى القرن السادس وبعد فترة فراغ، سيطر فيها الأحباش، عاد الفرس، فأعادوا عدن إلى حضيرتهم الحضارية[3].

وخلاصة القول أن مدينة عدن عريقة في قدمها، وثرية بمداخيلها، ومشهورة بمينائها التاريخي وبأساطيرها وبتعدد فسيفسائها الاجتماعي والثقافي والعرقي منذ القدم، وكانت على مر العصور عرضة للغزوات طمعًا في موقعها الاستراتيجي الذي يربط

---

(1) حمزه علي إبراهيم لقمان، تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية، (عدن: دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ط1، 2008م)، ص271.

(2) أبو مخرمة، أبو محمد عبدالله الطيب بن عبدالله بن أحمد، تاريخ ثغر اليمن، (بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، ط2، 1986م)، ص7-8.

(3) هنز هولفيترز، اليمن من الباب الخلفي، ترجمة: خيري حماد، (بيروت: دار العودة، ط1، 1405هـ - 1985م)، ص32

طرق التجارة العالمية ما بين الشرق الغرب ويدر أرباحًا عظيمة للتجار والمشتغلين والقاطنين في عدن والممسكين بزمام أمورها.

واشتهرت عدن بأسواقها التجارية، ففي كتابه (الإمتاع والمؤانسة)، يذكر لنا أبو حيان التوحيدي سوق عدن والذي منه: تشترى اللطائم وأنواع الطيب، ولم يكن في الأرض أكثر طيبًا، ولا أحذق صناع للطيب من أهل عدن[1].

ولقد وصفها الرحالة والمؤرخ هارد لوف. يعقوب في كتابه ملوك شبه جزيرة العرب بأنها: حسناء الشرق Cinderella of the east[2].

ثانيًا: عدن مدينة التسامح والتعدد الثقافي:-

التحديث والتمدن قد لامس أطراف وتفاصيل الحياة في هذه المدينة العريقة، وتميزت عدن بصفات التسامح والانفتاح على العلم والعالم وعدم التعصب، وبالنظم والقوانين والتشريعات والأنظمة الإدارية والمؤسسات التعليمية والثقافية، وبالممارسات الديمقراطية وبالتخطيط الحضري والمجالس البلدية والنهضة العمرانية والخدمات المتطورة وبالانفتاح والتطور الاقتصادي.

وانصهرت في عدن الثقافات المحلية اليمنية وغير اليمنية لتكون نسيجًا ثقافيًا اجتماعيًا وحضاريًا متميزًا له رائحته الخاصة، ونكهة لذيذة وشائقة دفعت بعجلة النماء إلى الأمام.

ومدينة عدن لذيذة تترك بصمة عزيزة في قلوب الرحالة برائحتها وهويتها وتسامحها ونقاء سريرتها وسحرها المفعم بالسكينة والرضوان.

---

(1) أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج1، (بيروت: مكتبة الحياة للطباعة والنشر د.ت)، ص84.

(2) هاردلوف. يعقوب. ك.سي.أي، ملوك شبه الجزيرة العربية، ترجمة: أحمد المضواحي، (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني - بيروت: دار العودة، 1983م)، ص346.

كنت أنظر دائمًا إليها على أنها الفردوس. وعندما كنت أؤوب إلى عدن، بعد رحلات على ظهور الإبل،.. كنت أرى فيها عصارة المدنية، وأجد فيها جميع تلك « اللطائف» الصغيرة من الحياة العصرية التي يألفها كل من يعيش معها، ولا يكترث بها، ولكنه إذا ما افتقدها، شعر بما لها من أهمية قصوى. وكنت ألقى فيها دائمًا السكن المريح(1).

وانصهرت في عدن الأجناس والأقوام والعقائد وتمازجت الثقافة المحلية العدنية واليمنية وغير اليمنية لتكون نسيجًا حضاريًا متميزًا وفرادة ثقافية وفسيفساء بشرية في كنف الوئام الاجتماعي.

وأثرت الثقافات الفرعية للجاليات الأجنبية في عدن على الحياة الثقافية والفكرية، فالتنوع الثقافي يشكل أساسًا من أسس الإبداع، ويُثري الثقافة والفكر، ويعزز التسامح العرقي والمذهبي والعقائدي، ويزيل التعصب الأعمى، ففي عدن تجد:

المسلم الذي يصلي إلى الله، والفارسي الذي يصلي إلى الشمس، والبانيان الذي يصلي إلى الأوثان، والمسيحي مكرم الصور والصلبان، والإسماعيلي صاحب الزمان، واليهودي مُسبح الذهب الرنان، وفيها من يغسلون ويكفنون أمواتهم، ومن يحرقونهم، ومن يحملونهم إلى برج السكينة، لتأكلهم النسور والعقبان.. كل هؤلاء يتاجرون ولا يتناقرون ويربحون ولا يفاخرون.. ففيها من المذاهب الدينية مئة مذهب ومذهب - حسب ما يرويه الأستاذ أمين الريحاني الذي زار عدن في عشرينيات القرن العشرين - تعيش كلها في فم البركان في سلام وأمان. وليس فيها غير واحد من المذاهب السياسية، تصونه التقية ويعززه الدينار والقوة، هو مذهب الاحتلال.. والتاجر وطنيًا كان أو أجنبيًا. لا يهمه من الحكومة غير الأمن والنظام(2).

---

(1) هانز هولفريتز، اليمن من الباب الخلفي، مرجع سابق، ص35.

(2) أمين البرت الريحاني، الأعمال العربية الكاملة، المجلد الأول، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، 1986م)، ص402، 403.

فمدينة عدن عنوان للتسامح، ففي سويداء فؤادها يجد القاطنون والسارحون والبارحون الحرارة والدفء، ونبضات المشاعر الإنسانية، وتنويعات في إيقاع حياتهم الممزوجة بتعابير من العبوس والابتسام.

عدن تمد يدها للطيبين وتسكب سحرها في النفوس بطيبة نفسها وكبريائها ورائحة أديمها الذي يجمع أطيافًا من التناقضات في بوتقة لذيذة من التعايش.

لقد كتب الأستاذ/ أحمد محمد سعيد الأصنج - أحد الوجوه الثقافية والتنويرية في عدن في كتابه: (نصيب عدن من الحركة الفكرية الحديثة (1934م)، عن طائفة البهرة في عدن، والذي نلمس من خلال سطوره روح المحبة والإخاء والتسامح في الفضاء العمومي، حيث يتم معاملة القاطنين في مدينة عدن معاملة حسنة بمنأى عن التعصب العقائدي والطائفية الدينية والعرقية والسلالية الممقوتة، حيث يقول:

البهرة جماعة إسماعيلية المعروفين بتشيعهم لآل البيت، وينقسمون إلى قسمين في الجنسية عرب أقحاح من الهمدانيين في اليمن، والقسم الآخر من الهنود من مقاطعة (كجرات)، يجمعهم المذهب تحت لواء واحد... إذا درسنا سيرتهم في عدن نجدها مثال للشهامة والأخوة والتآزر. لقد أعجبتني وايم الحق الرجل البهري في مواطن كثيرة، وأعجبتني أكثر تلك المزية الشريفة التي يمتاز بها جماعة البهرة في تضامنهم واتحادهم، بل في عكوفهم على العمل وإتقانهم له بلا تردد ولا ملل، حتى إنك لا تستطيع أن تجد أثرًا للبطالة بينهم[1].

وينتقد الأستاذ أحمد محمد سعيد الأصنج بروح صافية بعض الناس في المجتمع الذين ينظرون إلى البهرة نظرة غير منصفة:

كأنهم لا يمتون إلينا برابطة ما، مع أنهم إخواننا في الدين، وإخواننا في القومية يعبدون إلهًا واحدًا ويتبعون خاتم الأنبياء القائل: «من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا

(1) أحمد سعيد الأصنج، نصيب عدن من الحركة الفكرية الحديثة، (عدن: دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ط2، 2007م) ص49 - 50.

وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له مالنا وعليه ما علينا»، والقائل: «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»[1].

وينصح عامة الناس إلى توطيد مداميك العلاقة الإنسانية معهم وعدم التنابذ والتنافر مع إخواننا من البهرة؛ لأن «المسلم أخو لمسلم»، وأن «المؤمن للمؤمن كالبنان المرصوص يشد بعضه بعضًا»، ويرفض التقاطع والوحشة المجتمعية وينشر قيم المحبة والتسامح والمساواة والإخاء، وينهي حديثه بأبيات شعرية تحث على عمل الخير وعدم التجافي:[2]

فيما التقاطع والقرآن ينظمنا * كجوهر عقده من محكم السور**

ما دامت بالصلوات الخمس متصفًا * فأنت والله نعم اليسر في العسر**

قم نعمل الخير في أبناء ملتنا * ولا نقيده في تيم أو مُضر**

وفي رحلة آلان فاليارس من عدن إلى باب المندب أعجب هذا الكاتب بالطيبة وروح التسامح والمودة والمؤانسة وحسن المعاشرة للبحارة الذين أبحروا معه بقاربهم من عدن إلى باب المندب، حيث رآهم كيف كانوا يصومون ويصلون في شهر رمضان ولا يحملون الحقد والكراهية له وهو مسيحي صاحب ديانة أخرى حيث قال:

أثار إعجابي الشديد بساطتهم وأمانتهم وبعدهم عن النقائص والفلسفة التي يستقبلون بها حياتهم بكل هدوء، كانوا يصومون ويصلون ويغتسلون في البحر، ويتوضؤون كلما اقتضاهم الأمر، وكانوا يأكلون طعامهم البسيط بكل شهية وسرور، ولقد خيل إليّ أن البساطة ذاتها الكامنة في حياتهم القاسية قد زودتهم بمادة يحسدون عليها وهي غير متوافرة في حياتنا نحن[3].

---

(1) المرجع السابق، ص51.

(2) المرجع السابق، ص52.

(3) آلان فاليارس، رحلتي إلى شواطئ عدن وحضرموت، (صنعاء: المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، العدد 40، إبريل 2011م)، ص15.

وفي أثناء رحلتهم عندما لم يحالفهم الحظ في صيد الأسماك للغذاء يظلون جائعين لا تمتد أيديهم لسرقة البضائع والمواد الغذائية المحملة في القارب:

ولم ألاحظ أن شيئًا من حمولة القارب قد تأثر، ولم تمتد إليه يد رغم أن بعضه كان مواد غذائية، وكنا نحن جياع، ولم يسرق شيء رغم أن البحارة فقراء وأي شيء من هذه الحمولة قد يعني ثروة بالنسبة إليهم[1].

فالأديان والعقائد على كثرتها في هذه المدينة (في الزمن الفارط) لم تَقُد القاطنين فيها إلى التعصب والكراهية ولا إلى الاحترابات العقائدية والدينية والعصبوية الضيقة، بل إن العلاقات الإنسانية السامية كانت هي العنوان الشامخ في فضاء هذه المدينة التي يقطنها المسلمون والمسيحيون والأوربيون واليهود والفرس والميمن والخوجة والبنيان والبهرة والصومال والهنود والباكستانيون والزنوج والأفارقة وأهل جاوى والأتراك والعرب واليمنيون من كل حدب وصوب.

ولقد كتب الأديب والصحفي والرحالة الفرنسي فيليب سوبو انطباعاته عن عدن عندما زارها عام 1951م حيث قال:

في الشارع: حشود ملونه من البشر تمشي الهوينى، عرب بعمائمهم، هنود بكوافيهم الصوفية السوداء، يهود بطرابيشهم الحمراء، صومال بلون الأبنوس وقد بدوا في مآزرهم المخططة الفاقعة الألوان وعصيهم الطويلة في غاية الأناقة، ويمنيون غطى وجوههم غبار الفحم، وبعض الإنجليز الذين يشبهون في سراويلهم الكاكية صبية عمالقة... مد البحر يرتفع، ومع أمواجه يصل إلى عدن نازحون من داخل اليمن ومهاجرون من الصومال، وتجار من الهند، ويهود مضطهدون، جميعهم يستقرون في عدن آملين الحصول على عمل.

وفي موسم الرياح يرحل بعضهم، لكنهم يعودون جميعًا إلى هذه المدينة. فعدن غدت المرفأ الذي يستريح فيه أبناء السندباد المتعطشون إلى ركوب البحر. إنهم

---

(1) المرجع السابق، ص16.

يتركون مؤقتًا ضوضاء البركان (كريتر)، ويبتعدون عن اليابسة مثل جدهم السندباد على ظهور مراكب ذات أشرعة بيضاء وعالية...

إن البحَّارة العرب الذين لا يكلهم التعب يصلون اليوم إلى أرض بعيدة مازال البيض يجهلونها. لكن هؤلاء البحَّارة لا يكفُّون أبدًا عن التفكير في مرفأ عدن: القطب المغناطيسي[1].

فعدن لا تؤمن بالحواجز العرقية والعقائدية، ولا بالهويات الضيقة التي تقود إلى التحجر والتقوقع والعنصرية، وكان سكانها خليطًا فسيفسائيًّا من البشر، ولقد قال ابن المجاور البغدادي النيسابوري في كتابه: وصف بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز (625-626هـ الموافق 1227-1228م):

غالب سكان البلد عرب مجمَّعة من الإسكندرية ومصر والعجم والفرس وحضارم ومقادشة وجبالية وأهل ذبحان وزيالع ورباب وحبوش، وقد التأم إليها هذا الجمع من كل بقعة وأرض، وتمولوا وصاروا أصحاب خير ونعم، وغالب أهلها حبوش وبرابر[2].

ثمة ملاحظة دقيقة لابد من التنبه لها، هي أن سكان الموانئ والمدن البحرية الواقعة في طرق المواصلات البحرية العالمية تتميز بالانفتاح والتخالط والتسامح وبتكوينات سكانية فسيفسائية من أجناس متعددة، على عكس المدن الداخلية التي تتميز بتركيبات سكانية متجانسة، ولا تتعرض لهجرات كبيرة ولا لتغيرات ديموغرافية شديدة وسريعة مثل المدن الساحلية، مع عدم إهمال العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والجغرافية والصناعية والتجارية والحروب والكوارث الطبيعية والتطورات التكنولوجية في جذب المهاجرين والتوطُّن في المدن.

---

(1) مسعود عمشوش، عدن في كتابة الرحالة الفرنسيين، (عدن: دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ط1، 2003م)، ص141، 144.

(2) ابن المجاور البغدادي النيسابوري، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، المسمى: تاريخ المستبصر، مراجعة: ممدوح حسن محمد، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1996م)، ص153 -154.

وعدن على مر العصور تميزت بتنوع ثقافي وسكاني، وشهدت وتشهد هجرات داخلية وخارجية مستديمة، فهي منطقة جذب للسكان والبشر، وفيها حركة تجارية عالية المستوى، فهي تتحكم بمدخل البحر الأحمر وتطل على بحر العرب والمحيط الهندي، وتحتفظ بموقع استراتيجي عالمي للتجارة الدولية وبمواقع عسكرية حصينة، ومواقع سياحية، وبمياه دافئة. وتنوع المناشط الاقتصادية والإنتاجية والسمكية والخدماتية توفر أشغالًا للقاطنين فيها، والقادمين إليها. وتميزت بمينائها العالمي الشهير. ولقد أومأ المستشرق ر.ج. جافين في كتابه «عدن تحت الحكم البريطاني 1839-1967م»:

أن سكان مدينة عدن خليط من الأقوام ففيها، العرب، والهنود، واليهود، والمصريون، والفرس، والسودانيون، والصوماليون، والبريطانيون، والفرنسيون، والمالطيون، وقوميات أخرى ضمن المجموعة التجارية، ثم يضيف:

بعد الجبليين كان العنصر الأقوى (الأكبر) في الأربعينات والخمسينات مكونًا من رجال من المخا تجاوز عددهم عدد أولئك المسجلين عدنيين، ويأتي بعد العدنيين المهاجرين من حضرموت وبعدهم القادمين من لحج ثم من شمال اليمن والحجرية وصنعاء (حسب إحصاء 1849م)[1]

وعلى سياق متصل كتب الصحفي والمفكر العدني / محمد علي لقمان عن سكان عدن المتخالط والمتمازج الملفوف برائحة التسامح والتعايش الاجتماعي:

في عام 1908م، كانت عدن خالصة العروبة سكانها غالبًا من أبناء العرب اليمنيين وأبناء الجنوب إلى جانب سكانها الأصليين، كان الناس يعيشون عيشة بسيطة وفيهم أريحية ونجدة، وكانوا من دبع ودقم الغراب والعزاعز، كما كان فيها مهاجرون من صنعاء مثل قشاشة الدلال الضحوك، ومن الحديدة وزبيد وشمير، وعدد كبير هاجر

(1) ر.ج. جافن، عدن تحت الحكم البريطاني 1839- 1967م، ترجمة: محمد محسن محمد العمري، (عدن: دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ط1، 2013م)، ص78.

إلى عدن من المخا، وكان هؤلاء يسكنون حافة العيدروس، بينما أهل تعز واليمن الأعلى والأسفل وأهل حبان والحضارم والجنوب العربي عمومًا كانوا يسكنون منازل في حافة حسين وسوق الطعام وسوق الحراج، أما الدواعن باصمد وباحكيم وباحميش وبايعشوت فقد كانت لهم حوانيت معطارة في رأس كل زقاق، وكان الناس يسمونهم الشحارية وما يزالون[1].

وتعايش العرب واليمنيون مع الأجناس الأخرى:

وكان اليهود والبنيان وبعض بيوت الإفرنج في حافة القطيع بيت بنين وبيت اهريني وبيت ميجلاشابيسي وبيت كاركندا وليفراتو، وبعض البيوت التجارية كانت في سوق البز مثل بيت تيان وبيوت البزازين البانيان طارشان وبرمانا لالجي وبجوان داس وبيوت البهرة للحرير والطاس والحناجر والملس والمقصب بأنواعه بيت شرف علي وداؤود بهاي عبدالرحيم وساريلا في سوق الطعام.

وكان العرب يشتغلون بتجارة البن والجلود والصمغ واللبان والتبغ والمر والحبق هادي يستوردونه من اليمن وبلاد الصومال والحبشة، كما يستوردون الزباد ويبيعونه على التجار المصدرين[2].

ولقد كان الرحالة ابن بطوطة دقيقًا لوصفه مدينة عدن وأهلها عندما زارها (732هـ - 1331م)، حيث قال:

مدينة عدن، مرسى بلاد اليمن... تأتي إليها المراكب العظيمة... وتجار الهند ساكنون بها، وتجار مصر أيضًا. وأهل عدن ما بين تجار وحمالين وصيادين للسمك. وللتجار منهم أموال عريضة، وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الأموال، ولهم في ذلك تفاخر ومباهاة. ويزيد على

---

(1) محمد علي لقمان ذكرياتي من (4-6)، في كتاب عبد الرحمن خبارة، نشوء وتطور الصحافة في عدن 1937م - 1967م،(صنعاء: شركة الأمل للطباعة والنشر، د.ت.)، ص124.

(2) المرجع السابق، ص124.

ذلك ابن بطوطة بقوله أن أهل عدن «يحسنون إلى الغريب، ويؤثرون الفقير، ويعطون حق الله من الزكاة على ما يجب» (1).

وثمة حقائق لا يمكن تجاهلها، ولإنارة الأذهان وإيقاظ الأفكار وتساوقًا مع الأطروحات للرحالة والمستشرقين عن التركيب السكاني المتنوع لمدينة عدن، يكفي أن نشير إلى البيانات الرسمية الخاصة بالتعداد السكاني لمدينة عدن 1955م، التي تبين أن سكان مدينة عدن يتكون من عدة أجناس وعلى النحو التالي:

العرب 103879

الصومال 10611

اليهود 831

الهنود 15817

الأوربيون 4484

آخرون 2608

الإجمالي 138230

ولعله من المفيد الإشارة إلى أنه، بلغ عدد سكان م/ عدن حسب تعداد عام 2004م (589419 ألف نسمة)،ووصل تعداد السكان في عام 2015م (865000 ألف نسمة).

فعدن درة من دُرر الشرق بين حناياها وفوق صدرها سكنت الأقوام والأعراق، وتعايشت الأديان والمذاهب بسلام، وانصهرت في البوتقة المدنية، ولا نحتاج إلى دليل لتبيان التراث الثقافي والعلاقات الإنسانية السامية التي جمعت القاطنين في مدينة عدن بمنأى عن التعصب والفجاجة وانغلاق الآفاق العامة.

فهذه المدينة الصغيرة هضمت العقائد والأقوام والعلاقات والثقافات وكونت بيئة اجتماعية متسامحة تحترم الأديان والثقافات والتجمعات المدنية، ولا تهتك

(1) محمد بن عبد الله الطنجي ابن بطوطه، رحلة ابن بطوطه المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، (القاهرة: مكتبة جزيرة الورد، 2010م)، ص210، 211.

آدمية الإنسان ولا تسمح بتقطيع أوصال الوشائج الاجتماعية، ولا تؤمن بالتعصب والعنصرية واستلاب شخصية الفرد، بل حرصت على الانسجام والتكامل والتجانس وتوسيع الخيارات واحترام التوجهات لكافة أطياف المجتمع. فعدن تنفر من العصبية والتفاخر القبلي والعنصري والسفه والتسفُّل فهذه شذوذ عارضة في حياتها، فالمدنية والتسامح والتعايش عنوان عريض له عروق متجذرة في نسيج المجتمع العدني.

ويكفي أن نعرف أن الحاخام اليهودي بنين ميسا أوصى قبل مماته في (12/ 10/ 1922م)، بإقامة جنازة متواضعة بدون حشود بشرية واحتفالات جنائزية كبيرة إلا أن: حشودًا كبيرة من الناس، يهود، عرب، هنود، إيرانيين، صومال، وآخرين، جاءوا لزيارته الأخيرة وتقديم احترامهم، ومن بين الحضور الحاكم البريطاني لعدن.

وكان ليهود عدن علاقة جيدة بالعرب المحليين، ومن بين الأسر البارزة ممن قاموا بحماية اليهود كان الشيخ العيدروس ولي عدن الذي كان معتكفًا في مسجد سُمي العيدروس... إن الشيخ عيدروس كان المرجعية العليا للمسلمين في عدن، وأن مسجده يهب العناية الإلهية لليهود مقدمًا لهم المأوى والحماية في أوقات المشاكل، خصوصًا عندما يبدأ قطاع الصحاري هجومهم المباغت على عدن... وليس غريبًا عن اليهود اتخاذ مسجد العيدروس ملجأ لهم في يوم الغزو البريطاني لعدن مع البنيان وجماعة من النساء... فسلالة هذا الشريف (العيدروس)، محترمون جدًا بين العرب، وإنهم يكرهون القتل والنهب والفساد[1].

وعلى السياق نفسه، دافع العلماء المسلمون عن اليهود في عدن عندما كانت السلطة تفرض عليهم ضرائب مجحفة، ويلتجؤون إلى مساجد المسلمين، عندما يتعرضون للظلم والسلب والنهب.

ولا نضيف جديدًا إن قلنا إن أهل عدن أهل طيبة وتسامح، لا يحبون الضغينة والتحجر الفكري والعقائدي والعصبوي، تهفو نفوسهم للسلام والوئام المدني،

(1) التجمع اليهودي في عدن تاريخ وجوده حتى رحيله، ترجمة: م/ صلاح غبري، (عدن: مطبعة الإبداع، ط1، 2012م)، ص108، 97.

ويحترمون البشر والعقائد والثقافات والعادات والتقاليد والتفكير الحر، وينفرون من التعصب، فليس من قيمهم هدم الكنائس والمعابد، ولا إحراق المساجد كما حدث يوم 2/ 9/ 1994م، عندما قامت مجاميع متعصبة بحرق وتهديم ضريح ولي الله الصالح العيدروس والمقابر التابعة له، وضريح ولي الله الصالح الهاشمي والمقابر التابعة له، واقتحموا كل المساجد في مدينة عدن وهدموا القبور والأضرحة فيها ثم ضربوها بالآر بي جي والقنابل والأسلحة الرشاشة، واعتدوا على الكنائس والمعابد ومقابر المسلمين وغير المسلمين.

فالاعتدال والانفتاح والتسامح لا بد أن يكون من العناوين البارزة في إيقاع حياتنا اليومية، والتسامح كما عبرت عنه وثيقة إعلان المبادئ المتعلقة بالتسامح:

يعبر عن صيغة احترام مشاعر ومعتقدات الآخرين، أي معاملة الآخرين كبشر بصرف النظر عن ألوانهم وانتماءاتهم الدينية والعرقية والمذهبية أو خلفياتهم الاجتماعية، وعكس التسامح التعصب[1].

ففي أزقة وحارات مدينة عدن تعايشت الأديان والعقائد والأقوام بسلام، وتشمخ في سماء مدينة عدن مآذن المساجد والكنائس والمعابد، وتسود قيمة احترام المشاعر الدينية والإنسانية وحرية الضمير.

ومن أشهر المساجد في مدينة عدن:[2]

مسجد أبان بن عفان، مسجد العيدروس، مسجد العسقلاني، مسجد حامد، مسجد بانصير، مسجد جوهر، مسجد الضياء، مسجد الهتاري، مسجد الهاشمي، مسجد النور، مسجد القادرية، مسجد العراقي، مسجد أبو قبة، مسجد شيخان، مسجد الجبرتي، مسجد حسين الأهدل، مسجد الخير، مسجد الصومال، مسجد الإسماعيلية (البهرة)،

---

(1) انظر: علي أسعد وطفة، التربية على قيم التسامح، التسامح (عُمان:)، السنة الثالثة، العدد 11، (صيف 1426هـ - 2005م)، ص220.

(2) انظر: أمين سعيد عوض باوزير، حلقات القرآن الكريم ومجالس العلم في مساجد عدن، (صنعاء: مركز عبادي للدراسات والنشر، ط2، 2005م).

مسجد الخوجة (الحسينية)، مسجد طيبة، مسجد الموانئ، مسجد علي بهاي، مسجد ابن علوان، مسجد كهبوب، مسجد القادرية، مسجد القلوعة، مسجد الغفار، مسجد النصر، مسجد خواص، مسجد أبي ذر، مسجد الذهيبي، مسجد الرحاب، مسجد الفقي صغير، مسجد العمودي، مسجد المحمدي....

ومن أشهر الكنائس والمعابد في مدينة عدن:

1. كنيسة القديس سانت أناتوني (التواهي).
2. كنيسة القديس جوزيف (كريتر).
3. كنيسة رأس مربط (التواهي).
4. كنيسة القديسة ماريا (كريتر).
5. كنيسة حافون (المعلا).

ومن أشهر المعابد الهندوسية:

- معبد شري كاميرجي، معبد شنكرهونومان، معبد رام جي، معبد شري جين، معبد ما تا جي، معبد هانومان، معبد الفرس (معبد النار)، وثمة معابد لليهود أشهرها المعبد الكبير.

وكانت إشارة الرحالة الفرنسي بول نيزان 1926م عميقة حول طبيعة التعدد العقائدي في مدينة عدن حين أومأ:

إن المرء ليفهم أشياء كثيرة إذا ما عرف أن كل هؤلاء الناس مصيرهم أن يدفنوا وفقًا لطقوس قبائلهم تصحبهم كل أنواع الصلوات الممكنة: الكاثوليكية واليهودية والتطهيرية والمشيخية والميثوذية والفارسية والجائينية والإسلامية. لقد كانوا رجال موتى مفروشين على سرير من الصخر، وكان هناك آخرون يحرقون وآخرون يتركون لشواء الشمس ونبش مناقير النسور المعكوفة. ما كان هناك موتى يختفون بطريقة معمولة أبدًا أو يتحولوا إلى عدم حقيقي بدون أي عذر لطقس من الطقوس[1].

(1) بول نيزان، عدن العربية، ترجمة بشير خان، مراجعة وتقديم: سعدي يوسف،(عدن: دار الهمداني للطباعة والنشر، ط1، 1984م)، ص56.

الخاتمة:

لقد قال الروائي العالمي باولو كويلو: إننا نحتاج إلى البراءة كي نكتب[1].

وثمة أقلام لبعض المستشرقين والرحالة لم تكن بريئة خدمت الدوائر الاستعمارية أمثال: لويس ماسينون ولورانس العرب، وآخرون أنكروا الشرق وبصماته الحضارية وحملوا بشدة على الحضارات الشرقية والإسلام أمثال: أرنست رينان، وغبريال هنوتو، وكينور، وكيمون، ورانكة، شلوسر، وبرنارد لويس، وصومائيل هنتجتون. ولا أنسى أن أشير إلى أن رهطًا من المستشرقين أنصفوا الشرق وحضارته والحضارة الإسلامية أمثال: المستشرق هنري كوربان، والروسي فاسيلييف، ومكسيم رودنسون لوتسكي، بيار كلاستر، وهلموت ريتر.

وثمة مستشرقون كتبوا عن اليمن ولعل أبرزهم:

فيتالي ناوؤمكين، إيلينا جولوبوفسكايا، م. أ. رودينوف، هانز هولفريتز، هاردولدف ف.يعقوب، فالكوفا، توركيل هانس، فاسيلييف، هارولد انجرامز، ر.ج جافن، أوليج جراسيموف.

وعلى سياق متصل لابد أن نشير إلى أن كتابات الرحالة والمستشرقين تدرجت في ثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى تميزت بالنزعة التاريخية والجغرافية، والمرحلة الثانية تميزت بالنزعة الاستكشافية والمرحلة الثالثة بالنزعة الأنثروبولوجية.

والنزعة الأنثروبولوجية نقصد بها: دراسة الإنسان والثقافة واللغات والعادات والتقاليد وعمليات الصراع والهجرات والتمازج الثقافي والروحي والنشاط والحراك الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية والثقافية في الفضاء العمومي، وهذه الدراسات الخاصة بالأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية بزغت في القرن التاسع عشر الميلادي،

(1) باولو كويلو ومحسن الرملي في كتاب: حوارات العربي، (الكويت: كتاب العربي (83)، يناير 2011م)، ص285.

وكان لعدن نصيب من هذه الدراسات ونستطيع أن نلمسها في كتابات بول نيزان، فليب سوبو، آلان فالياراس، فلويس سيمونان، آرثر دي غوبينو، هنري مونفرد، فالفرد بارديه، أندره مالرو. وثمة كتاب مهم موسوم ب: (التجمع اليهودي في عدن تاريخ وجوده حتى رحيله)، طغت فيه النزعة الأنثروبولوجية ويقدم صورة حية ونابضة لحياة اليهود في مدينة عدن، ويرصد تفاصيل حياتهم الدينية والعملية والترفيهية وعاداتهم وثقافاتهم وتقاليدهم، ويعرج الكتاب على مشاهد من التسامح والتساكن المدني في مدينة عدن بين الأجناس والطوائف الدينية التي تساكنت وتعايشت تحت مظلة من المحبة والوداد والاحترام المتبادل.

ونستطيع القول إنه حتى هذه اللحظة لا توجد دراسات أنثروبولوجية دقيقة للمجتمع الفسيفسائي العدني من قبل الأنثروبولوجيين الأجانب عدا بعض التلميحات والانطباعات العامة التي تفتقر للمنهجية العلمية في الدراسات الأنثروبولوجية، ومترعة بالانطباعات ووصف الوقائع والأحداث، وتحتاج إلى نقد وتفكيك وتركيب وتفسير للأحداث والوقائع بطريقة علمية سليمة.

وإجمالًا من خلال البسط السالف الذكر في هذه الورقة العلمية يتبين لنا أن الرحالة والمستشرقين تركزت أطروحاتهم عن عدن وسكانها بالقسمات التالية:

1 – عدن مدينة كوزوموبوليتية من أعظم المرافئ العالمية، وموقعها الجغرافي لا يقدر بثمن.

2 – عدن طريق تجاري عالمي يربط الشرق بالغرب وله أهمية سياسية وعسكرية بالغة الأهمية.

3 – جلب ميناء عدن الخير والرخاء والطمأنينة لسكان المدينة والمشتغلين فيها.

4 – قطنت عدن أقوام وأجناس من هويات وعقائد مختلفة.

5 – تركيب عدن السكاني فسيفسائي يحتوي على خليط من البشر من التراب اليمني وأجناس خارجية من أصقاع قريبة وبعيدة.

6- تميزت عدن بتعدد الأديان والعقائد والمشارب الفكرية واللغوية والتعدد الثقافي.

7- تميزت مدينة عدن بالسلام والوئام المدني وغياب نعرات التعصب والشوفينية.

8- سكان مدينة عدن طيبون يعيشون عيشة بسيطة ومنفتحون ومتسامحون.

9- نهوض مدينة عدن التجاري والحضاري كان على همزة وصل قوية بسلطة تحمي التجارة والتجار من شذاذ الآفاق وتجني أرباحًا هائلة.

المصادر والمراجع

أولًا: الكتب:

1. أبو مخرمة، الطيب بن عبد الله بن أحمد، تاريخ ثغر اليمن، (بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، ط2، 1986م).
2. المقحفي، إبراهيم أحمد، معجم البلدان والقبائل اليمنية، (صنعاء: دار الكلمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزء الثاني، 2002م).
3. القزويني، زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، (بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، 1404هـ - 1984م).
4. البريهي، عبد الوهاب بن عبد الرحمن، طبقات صلحاء اليمن، تحقيق: عبد الله محمد الحبشي، (صنعاء: مركز البحوث والدراسات اليمني، د.ت).
5. ابن بطوطة، محمد بن عبد الله الطنجي، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، (القاهرة: مكتب جزيرة الورد، 2010م).
6. ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: مجدي فتحي السيد، (القاهرة: دار التوفيقية للتراث، 2010م).
7. الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب، صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط2، 1983م).
8. المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1411هـ - 1991م).
9. الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد، المسالك والممالك، (بيروت: دار صادر، 2004م).

10. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، كتاب البلدان، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1422هـ).
11. ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر، الأعلاق النفسية، المجلد 7، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت).
12. ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي النصيبيني، صورة الأرض، (بيروت: دار مكتبة الحياة، 1979م).
13. التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، (بيروت: مكتبة الحياة للطباعة والنشر، د.ت).
14. أباظة، فاروق عثمان، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1976م.
15. الأصنج، أحمد سعيد، نصيب عدن من الحركة الفكرية الحديثة، (عدن: دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ط2، 2007م).
16. الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، (بيروت: دار صادر، 897هـ – 1977م).
17. الأصفهاني، الشيخ أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن، الأزمنة والأمكنة، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1417هـ – 1996م).
18. النيسابوري، ابن المجاور البغدادي، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستبصر، مراجعة: ممدوح حسن محمد، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1996م).
19. التجمع اليهودي في عدن تاريخ وجوده حتى رحيلة، ترجمة: صلاح أغبري، (عدن: مطبعة الإبداع، ط1، 2012م).
20. الشُمري، محمد كريم إبراهيم، عدن – دراسة في أحوالها السياسية والاقتصادية 476 – 627 هـ، 1083م – 1229م، (عدن: دار جامعة عدن للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 2004 م).

21. الشميري، سمير عبد الرحمن، عدن الحرية الثقافية والتقهقر المدني، (أبو ظبي: ثقافة للنشر والتوزيع، إبريل 2018م – 1439هـ).

22. العلس، أسمهان عقلان، الموروث الثقافي للمرأة العدنية، (صنعاء: الهيئة العامة للكتاب، ط1، 2010م).

23. الموسوعة اليمنية الكبرى في أربعة مجلدات، (صنعاء: مؤسسة العفيف الثقافية، ط2، 2003م).

24. انجرامز، هارولد، اليمن الأئمة والحكام والثورات، ترجمة: نجيب سعيد باوزير، مراجعة: عبد الكريم سالم الحنكي، (عدن: مركز البحوث والدراسات اليمنية، ط1، 2007م).

25. الريحاني، أمين، الأعمال العربية الكاملة، المجلد الأول، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، 1986م).

26. اليونيسكو، منظمة اليونيسكو للبحوث التاريخية والأثرية

a. hpps:ar–unesco.org

b. nabd–sharqi.com

27. باوزير، أمين سعيد عوض، حلقات القرآن الكريم في مجالس العلم في مساجد عدن، (صنعاء: مركز عبادي للدراسات والنشر، ط1، 2005م).

28. باوزير، أمين سعيد عوض، من أبرز الدعاة والتنوير في عدن خلال مئة عام من الزمن (1900 – 2000م)، (صنعاء: مركز عبادي للدراسات والنشر، ط1، 2008م).

29. جافن، ر.ج، عدن تحت الحكم البريطاني 1839– 1967م، ترجمة: محمد محسن محمد العمري، (عدن: دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ط1 2013م).

30. خبارة، عبد الرحمن، نشوء وتطور الصحافة في عدن 1937 – 1967م، (بدون معلومات إدارية).

31. درويش، بول، القبيلة والديمقراطية في اليمن، ترجمة: علوي السقاف، (صنعاء: المركز الفرنسي للدراسات اليمنية، د.ت).
32. رودنيوف، م.أ، عادات وتقاليد حضرموت الغربية، ترجمة: د.علي صالح الخلاقي، (عدن: دار جامعة عدن للطباعة والنشر، 1999م).
33. عمشوش، مسعوداً عدن في كتابات الرحالة الفرنسيين، (عدن: دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ط2، 2007م.
34. فالكوفا، ل، السياسة الاستعمارية في جنوب اليمن، ترجمة: عمر الجاوي، (عدن: دار الهمداني، ط2، 1984م).
35. فاليارس، آلان، رحلتي إلى شواطئ عدن وحضرموت، (صنعاء: المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، العدد 40، إبريل 2011م).
36. لقمان، حمزة علي إبراهيم، تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية، (عدن: دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ط1، 2008م).
37. محيرز، عبد الله أحمداً صهاريج عدن، (عدن: دار الهمداني 1987م).
38. محيرز، عبد الله أحمد، صيرة، (عدن: دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ط1، 1992م).
39. ماكرو، ايريك، اليمن والغرب، ترجمة: حسين عبد الله العمري (بدون معلومات إدارية).
40. مجموعة من المؤلفين، صورة المرأة في الدراسات الغربية، مراجعة وترجمة: لوسين تامينيات، (صنعاء: المعهد الأمريكي للدراسات اليمنية، سلسلة الدراسات المترجمة (3)، 1997م).
41. ناؤمكين، ف.ن، الجبهة القومية في النضال من أجل استقلال اليمن الجنوبي والديمقراطية الوطنية، (1963–1969م)، (موسكو: دار التقدم، 1984م).
42. نيزان، بول، عدن العربية، ترجمة: بشير خان، (عدن: دار الهمداني، ط1، 1984م).

43. هولفريز، هانز، اليمن من الباب الخلفي، تعريب: خيري حماد، (بيروت: دار العودة، 1405ه – 1985م).

44. يعقوب، هارد لوف.ك.سي.أي، ملوك شبه الجزيرة العربية، ترجمة: أحمد المضواحي، (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني- بيروت: دار العودة، 1983م).

ثانيًا: الدوريات: -

أ- **المجلات**:

- الثوابت (صنعاء)، العدد 19.
- التسامح (عُمان)، العدد 11.
- العربي (الكويت)، العدد 258، 298.
- المستقبل العربي (بيروت)، العدد 259.
- المعرفة (الرياض)، العدد 111.
- دبي الثقافية (دبي)، العدد 42.
- الاجتهاد (بيروت)، العدد 39-40، 47-48، 50-51

ثالثًا: الندوات:-

1. الندوة العلمية الأولى: عدن - ثغر اليمن - الماضي - الحاضر - المستقبل 15- 17 / مايو / 1999م، (عدن: دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ط1، 1999م).
2. الندوة العلمية: عدن بوابة اليمن الحضارية 18-19/ يناير / 2011م (عدن: دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ط1، 2011م).

المحميات الشرقية (عدن الخلفية) في كتاب الرحَّالة دانيل فان درميولين (من عدن إلى حضرموت.. رحلة في جنوب الجزيرة العربية)

د. راهيلا حسين عمير

المقدمة:

كانت مدينة عدن بحكم موقعها البحري على المحيط الهندي محطة للعديد من الرحَّالة والمستشرقين الأجانب الذين نزلوا بها خلال حقب تاريخية مختلفة، ولاسيما خلال فترة الاحتلال البريطاني لعدن، وعبرها انطلق هؤلاء الرحَّالة إلى بقية المحميات المحيطة بهذه المدينة.

ويعد الرحَّالة الهولندي (دانيل فان در ميولين) من بين أبرز هؤلاء الرحَّالة وأشهرهم، إذ قام بعدد من الرحلات إلى حضرموت خلال الأعوام (1931م، 1939م، 1945م)، ونشر خلالها كتبًا عن رحلاته الثلاث، دوّن فيها كل مشاهداته عن حضرموت والمناطق التي قام بزيارتها وتحديدًا المحميات الشرقية التي كانت في طريقه من عدن إلى حضرموت والتي أسماها (عدن الخلفية).

وكون كتب الرحَّالة تقدم صورًا شخصية حية لجوانب معينة من الحياة في البلدان والمناطق التي زاروها، ونتيجة للأهمية الكبيرة التي تحتلها رحلته الثانية التي قام بها عام 1939م، والتي جاءت بعد مرور قرابة عشر سنوات عن الرحلة الأولى، وما احتوته من معلومات مختلفة لخَّصها في كتابه الثاني (من عدن إلى حضرموت.. رحلة في جنوب الجزير العربية) الذي تتمحور دراستنا له في هذا البحث، حيث أردنا الخوض في دراسة ما جاء به هذا الرحَّالة من أخبار عن عدن والمناطق المحيطة بها، وما شاهده ولخصه لنا، علمًا بأن عدن كانت هي محطته الأولى للتوغل في جنوب شبه الجزيرة العربية في طريقه إلى بلاد حضرموت مرورًا بشقرة، ثم لودر، ثم نصاب بشبوة، ثم وادي جردان،

وهضبة السوط، وعقبة باتيس، ووادي عمد، ثم حريضة إلى وادي حضرموت، ومنه إلى الجول الشمالي ثم إلى وادي بن علي في المكلا.

وعلى ما يبدو من ثنايا الكتاب أن أهداف هذه الرحلة قد تنوعت بين سياسية وعلمية، وكان الهدف السياسي يتمثل في إشادته ببريطانيا وما تقدمه للمحميات الواقعة تحت سيطرتها، ورغبته في أن تساهم هذه الرحلة في تحسين العلاقة بين بلاده هولندا وبريطانيا، والهدف العلمي يتمثل في جمع بعض العينات النباتية والحشرية والجيولوجية، ورسم خرائط للمناطق التي لم ترسم لها خرائط من قبل، وكذا توثيق العلاقة بين الإدارتين الهولندية والبريطانية في المستعمرات، وهو ما شد انتباهنا ووجهنا لفكرة الكتابة عن هذه الرحلة، لما احتوته من معلومات عن المناطق التي زارها ومكث فيها، أو مر بها.

ونتيجة لذلك قمت بتقسيم دارستي هذه إلى مقدمة وثلاثة مباحث رئيسة، تناولت في المبحث الأول منها دراسة لشخصية هذا الرحَّالة الهولندي، ورحلاته الثلاث، ودرست في المبحث الثاني خط سير رحلته الثانية - موضوع دراستنا -، وأفردت المبحث الثالث لرصد ملاحظاته ومشاهداته عن عدن والمحميات الشرقية خلال هذه الرحلة، وأنهيت دراستي هذه بخاتمة تناولت من خلالها أهم النتائج والاستنتاجات التي توصلت إليها، وعددًا من الخرائط لخط سير هذا الرحَّالة.

المبحث الأول: الرحَّالة دانيل فان در ميولين

من هو فان در ميولين:

الرحَّالة الكابتن أو الكولونيل/ دانيل فان در ميولين، وهو هولندي الجنسية، عمل لمدة ثلاثين عامًا في الخدمة الحكومية الهولندية، قضى جزءًا منها في الشرق (مستعمرة هولندا في الهند الشرقية)، والجزء الآخر في شبه الجزيرة العربية، حيث عمل قنصلًا لهولندا في مدينة جدة.

حياته العملية:

بدأ حياته العملية عام 1915م حين تم تعيينه ضابطًا في جزر الهند الشرقية (المستعمرة الهولندية).

قام كرستيان سنوك وهو أستاذ جامعي ومستشار لحكومة هولندا في مستعمرة جزر الهند الشرقية بدفع فان در ميولين لطلب العمل كقنصل لهولندا في مدينة جدة والتي عين فيها عام 1926م وذلك لغرض قيامه بمراقبة الحجاج القادمين من مستعمرة جزر الهند الشرقية [1].

كان فان در ميولين دارسًا جيدًا للغة العربية، ومطلعًا على الإسلام، حيث درس اللغة العربية في جامعة الأزهر في القاهرة، وكوَّن معارف كثيرة عنها وعن الإسلام.

رحلاته إلى حضرموت:

نفذ فان در ميولين ثلاث رحلات إلى حضرموت نشر عنها ثلاثة كتب، الرحلة الأولى عام 1931م، ونشر عنها كتابه الأول (حضرموت.. إزاحة النقاب عن بعض غموضها)، والرحلة الثانية كانت عام 1939م، ونشر عنها كتابه الثاني (من عدن إلى حضرموت.. رحلة في جنوب الجزيرة العربية)، والذي قام بترجمته والتقديم له والتعليق عليه الدكتور/ محمد سعيد القدال كلية الآداب بجامعة عدن عام 1999م، وهذه الرحلة وهذا الكتاب هو موضوع دراستنا الحالية، كما كانت له رحلة أخرى نفذها عام 1945م.

وبسبب الحرب العالمية الثانية لم يستطع ميولين العودة إلى جدة لممارسة عمله كقنصل لهولندا هناك، فقد تم إرساله مرة أخرى إلى جاوا بصفة وزير مفوض.

وفي عام 1948م ترك مستعمرة جزر الهند الشرقية نهائيًا وعاد إلى هولندا، ثم عمل مذيعًا في إذاعة هولندا العالمية حتى تقاعده عام 1952م.

المبحث الثاني: هدف الرحلة وخط سيرها

الهدف من الرحلة:

كان الهدف الرئيس من الرحلة هو حضرموت؛ لأنها كما يقول يخرج منها رجال أصبح لهم مكانة متميزة في مستعمرة هولندا في جزر الهند الشرقية، ويؤدون دورًا

(1) موقع مهارات -أ.د مسعود عمشوش. دانيل فان در ميولين ورحلاته إلى حضرموت.

اقتصاديًا مهمًّا فيها، وهو ما دعاه إلى محاولة اكتشافها، هذا هو الهدف المعلن من خلال الكتاب، لكن هناك هدفًا غير معلن وهو أن هولندا كانت تريد استكشاف المناطق التي جاء منها (الحضارم) إلى جزر الهند الشرقية، والذين تمكنوا من الاختلاط بالسكان بشكل سريع، بل وانسجموا معهم، وأصبحوا أثرياء لهم مكانة، وأسهموا في أعمال المقاومة للاستعمار الهولندي في المستعمرة، رغم الإجراءات التي اتخذتها هولندا ضدهم ومحاولتها عزلهم في مناطق معينة داخل المستعمرة.

أخذ موافقة البريطانيين:

كان الرحَّالة دانيل فان در ميولين يدرك تمامًا صعوبة الرحلة التي سيقوم بها، لاسيما وأن خط رحلته لم يسبقه إليه أحد من الرحَّالة، من ناحية، ومن ناحية ثانية طبيعة الناس في مناطق الرحلة كونهم من القبائل التي اشتهرت بصلابتها وقوتها واعتزازها بالنفس والكرامة، وأيضًا بمدى تقبلهم للأجنبي لاسيما أن تلك المناطق لم تدخل في نطاق سيطرة البريطانيين. ومن ناحية ثالثة - قد تكون هي العقبة الأكبر - كيفية إقناع البريطانيين بالموافقة على قيامه ورفاقه بالرحلة، كون مدينة عدن التي سينطلق منها وحضرموت التي يريد الوصول إليها كانت محمية بريطانية، والقيام بالرحلة يتطلب موافقة البريطانيين ودعمهم حتى تتم بسلام. ومن ناحية رابعة فإن التوتر العالمي الذي سبق الحرب العالمية الثانية كان بمثابة عقبة إضافية أخرى.

وكان الحصول على موافقة البريطانيين في محمية عدن لإتمام الرحلة ليس بالأمر السهل كون الرحَّالة البريطانيون الذين حاولوا استكشاف مناطق جنوب شبه الجزيرة العربية لم يحضوا بالدعم الكامل من قبل حكام محمية عدن، ولذلك فقد كانوا ينتقدون كثيرًا تصرفاتهم تلك.

كما أن حكام المحمية من البريطانيين كان لديهم هاجس آخر وهو حماية مناطق المحمية من حب الاستطلاع الضار الذي يقوم به المستكشفون، لذلك كانوا يقومون بفحص كل الطلبات لدخول مناطق المحمية بمزيد من الحرص والوعي المسؤول.

وقد جاءهم العون والمساعدة من قبل أحد الضباط السياسيين الجدد هو الكابتن هيملتون، وهو الضابط المسؤول عن الاتصال والتواصل مع القبائل في ذلك الجزء من منطقة عدن الخلفية التي من المتوقع أن يمر بها طريق الرحَّالة، وكان طلب الرحَّالة للقيام بهذه الرحلة متسقًا تمامًا مع توجهه في استكشاف تلك المناطق فدعمهم دون تردد.

وكان دعم الكابتن هيملتون لهم وقراره مساعدتهم مهم لكنه غير كافٍ لأن الأمر يتطلب موافقة الحاكم العام للمحمية وهو السير بيرنارد رايلي على الرحلة، ولم تتم الموافقة على الرحلة إلا بعد توقيع الرحَّالة ومرافقوه تعهدات خطية مكتوبة بعدم مسؤولية البريطانيين عن أي شيء يحدث لهم في طريق الرحلة.

وبعد استكمال الموافقات على الرحلة بدأ التجهيز لها والإعداد من قبل مدة، وشمل التجهيز إلى جانب المؤن الغذائية والأجهزة أيضًا تجهيز حراسات مسلحين ومجهزين لمساعدتهم وحمايتهم.

خط سير الرحلة:

بدأت الرحلة في صباح الجمعة الموافق 24 من مارس 1939م، ومخطط لها أن تستمر لمدة شهرين كاملين.

الرحلة هذه المرة لم تكن مباشرةً لحضرموت، مثل المرة السابقة، وإنما ابتدأت من الجانب الآخر للمحمية البريطانية في جنوب الجزيرة العربية، من عدن عبر سلوك طريق بري متشعب تتخلله الجبال والوديان والقرى والمدن لم يسبق للرحَّالة المرور منه أو الإشارة إليه أو وصفه في رحلاتهم السابقة، وهو ما أكسب الرحلة أهمية خاصة، كونها تستكشف مناطق لم يسبق زيارتها من قبل، وتتكون الرحلة من ثلاثة أجزاء هي:-

الجزء الأول: من عدن إلى سيؤون في حضرموت الداخل

بدأت من عدن (منطقة التواهي) ثم عبر منطقة البرزخ (وهي منطقة المطار الآن) في اتجاه الشرق عبر الطريق الساحلي حتى وادي سماك، ومنه رأوا قرية الكود وهي أول قرية يرونها في رحلتهم منذ مغادرتهم عدن.

ثم وصلوا إلى مدينة زنجبار، ومنها عبروا مجموعة من الوديان والسهول وصولًا إلى قرية شقرة، حيث يسكن حاكم سلطنة شقرة، ثم غادروها متجهين إلى جبل حيد العرقوب، حيث أقاموا على سفحه قبل أن يتحركوا إلى آخر نقطة تصلها العربات في المنطقة، ومنها إلى منطقة وادي لامص حيث أقاموا هناك.

ثم انطلقوا من منطقة لامص حتى وصلوا وادي الجوف، ومنه إلى قرية الجوف التي تبعد مسافة ساعتين عن مدينة لودر، ومنها إلى قرية زارة التي تبعد عن لودر حوالي ساعة ونصف أو ساعتين وبها قصر السلطان محمد بن جعبل - سلطان زارة - وحاشيته.

ومن زارة إلى مستوطنة لودر الكبرى العاصمة الفعلية للسلطنة التي يوجد فيها فرقة تابعة للبريطانيين على رأس التل الذي يحتضن المدينة.

ثم غادروا لودر متجهين نحو دثينة حيث وصلوا قرية مصعام أولى قرى دثينة، ومنها انطلقوا عبر وديان وقرى وسلاسل جبلية وعرة وعقبات مختلفة تسمى أرض الله، ومنها إلى ممر الطلح (الذي مثَّل أخطر جزء في الرحلة؛ كونه كان يقع في منطقة حرب)، ومنه إلى وادي حطيب ثم قرية جابر (والتي حدثت فيها مشكلة كبيرة حيث لم يتمكنوا من المرور عبرها بعد أن أقاموا فيها ثلاثة أيام للمفاوضات نظرًا لرفض منصب قرية جابر لمرورهم وكذا رفض قبيلة (هل شمس) من بعدها مرورهم على أراضيها، مما اضطرهم للعودة إلى ممر الطلح ليسلكوا طريقًا آخر عبر الجبال الوعرة والمنحدرات الصعبة والسهول القاحلة حتى وصلوا أخيرًا إلى قرية النقوب وهي أولى قرى نصاب وفيها تقع قصور السلطان وقلاعه المحصنة، ثم وصلوا مدينة نصاب التي كانت هدفهم الرئيس الأول في طريقهم إلى حضرموت.

ومن نصاب انتقلوا إلى منطقة عياد التي يتمركز فيها مجموعة ممن جندهم البريطانيون من أبناء القبائل وهم من يعرفون بفرقة (هملتون)، ومنها إلى قرية الباردة أولى قرى وادي جردان.

وعبر وادي جردان حتى وصل قرية العميق التي تعد من أكبر القرى وأجملها في الجزء الأوسط من جبل جردان، ومنها إلى عقبة كنيفة التي تقترب من نهاية وادي جردان وتتقدم هضبة جبل السوط.

وفي هضبة جبل السوط مرت القافلة من عقبة باتيس الرهيبة، ومنها نفذت إلى قرية مخية وهي أولى مناطق وادي عمد في حضرموت، وفي الوادي سارت القافلة عابرة عددًا من القرى لكنها تجنبت قرية عمد بسبب المواقف التي حصلت من أهلها للرحَّالة في رحلته السابقة إلى حضرموت، والتي اتسمت بالعدائية الشديدة؛ حيث تعرضوا لإطلاق الرصاص على طول مرورهم بالقرية، ثم وصلت القافلة إلى قرية حريضة التي سبق أن مر بها الرحَّالة في زيارته السابقة.

وانطلقت القافلة من حريضة عبر عدد من القرى والدويان حتى وصلت قرية هنن التي التقى فيها بأحد أصدقائه القدامى، ثم بعد ذلك إلى قرية القطن في حضرموت الداخل، ومنها إلى شبام أقدم مدن حضرموت.

من شبام انطلقت القافلة إلى سيؤون عبر وديان وقرى صغيرة، ومن سيؤون إلى تريم مدينة العلم والمركز الديني لحضرموت الداخل، ثم عادت القافلة إلى سيؤون.

الجزء الثاني: من سيؤون إلى العوامرة والعودة إلى سيؤون

بدأت القافلة بالتحرك من سيؤون عبر مناطق الجول الشمالي وودیانه وجباله الوعرة والقاحلة ووصلت إلى منطقة العوامرة في حدود صحراء الربع الخالي، ثم عادت عبر مناطق الجول إلى شبام ومنها إلى سيؤون.

الجزء الثالث: من سيؤون إلى المكلا

حيث انطلقت القافلة من سيؤون مرورًا بوادي بن علي بما فيه من قرى ومحطات مختلفة، ومرت عبر عقبة حصن القاع ومنها إلى عقبة الصويغرة والتي يظهر من شكلها أنها إحدى طرق التجارة العظيم.

وعبر عقبة الصويغرة عبرت القافلة إلى مفترق طرق وهي منطقة التقاء القوافل حيث يلتقي وادي علي بوادي عمد، ومنها إلى مدينة المكلا خاتمة الرحلة.

المبحث الثالث: ملاحظات ومشاهدات عن محمية عدن والمحميات الشرقية

يقدم الرحَّالة وصفًا مبسطًا وبلغة سهلة للمناطق التي مر بها في رحلته هذه، فتراه حينًا يتمعن في وصف الوديان والسهول بما فيها من خضرة وتعاريج وقرى وطرق، وتراه حينًا آخر يتمعن في وصف الجبال وتضاريسها القاسية ووعورتها وخطورتها بما فيها من عقبات ومنزلقات وبقايا براكين وجلاميد صخرية، وتراه حينًا ثالثًا يتمعن في البشر على اختلافهم بصلابتهم وقوتهم وجلدهم.

الجزء الأول من الرحلة:

فمنذ خروجه من عدن حتى وصوله منطقة جبل حيد العرقوب في سلطنة شقرة قدم وصفًا تفصيليًا لبعض المناطق التي مر فيها ومنها منطقة السهل الساحلي الممتد من منطقة البرزخ في عدن حتى منطقة الكود أولى القرى التي صادفها في طريقه، حيث أشار إلى قوافل الجِمال التي تمخر عباب الأرض جيئة وذهابًا تحمل المؤن والأغذية المختلفة من مناطق السلطنات إلى عدن والعكس، والصيادين الذين يعتلون مراكبهم لصيد الأسماك، والمناطق الزراعية الخصبة التي تمتد من بعد مدينة زنجبار حتى المنطقة القريبة من قرية شقرة وما يتنشر فيها من ماشية وأبقار.

لكنه لم يعط أي انطباع أو وصف في كتابه عن قرى ومدن الكود وزنجبار وشقرة وكل ما قدمه وصفًا مفصلًا عن سلطان سلطنة شقرة في شكله وهيئته وملابسه وسيارته الفارهة وقصوره الفاخرة، وبحبوحة العيش التي كان يعيشها.

يقدم الرحَّالة وصفًا لما شاهده في طريقه من وادى لامص إلى مدينة لودر مرورًا بقرية الجوف، حيث المنطقة عبارة عن وديان ومنحدرات صخرية تتوزع فيها المساكن في تجمعات ما بين البيوت المبنية من الحجر وأخرى من التراب ومغطاة بالقش، الحالة

التي يعيش فيها السكان قاسية للغاية لاسيما مع شحة وقلة المياه التي تجلبها النسوة من على بعد أكثر من عشرة أميال بشكل يومي.

قرية زارة بما فيها من فن معماري متميز، حيث بنيت بيوتها من الأحجار المربعة وثبتت بالطين يثبت بعضها بعضًا، وكان بنيانها عاليًا، بشكل بسيط لكنه قوي ومتسق، وأبرزها حصن زارة الأول الذي يقع فيه قصر السلطان محمد بن جعبل سلطان زارة، وقد تبين أنه محصَّن بشكل مثير للإعجاب، ولوحظ في بناء قصوره أن حالة الدفاع ضد الأعداء كان المتحكم الأول في فنهم المعماري ليوفر الحماية وقت الحروب.

أما لودر تلك المدينة التي تقبع على سفح جبل يبرز منه نتوء جميل الشكل يعتليه قصر السلطان، وبيوتها لها طابعها الخاص فبعضها مبني من الحجر وأغلبها من عيدان القش وفيها مسجدان، وحي يهودي خاص باليهود حيث يصل عددهم إلى (13) عائلة، وهم الذين حاول الرحَّالة إظهارهم كفئة مستضعفة مغلوبة على أمرها، شردت في أصقاع الأرض حتى وصلت هذا المكان البعيد، لكنه عاد وأشار إلى أن اليهود عاشوا بين اليمنيين دون مشاكل واحتفظوا بدينهم وعباداتهم ومعتقداتهم وطريقة حياتهم دون أي تدخل من العرب، ولهم مهنهم التي يعيشون منها ويكسبون منها أرزاقهم، وهذا ما اعترف به الرحَّالة نهاية حديثه عنهم.

أما المنطقة الممتدة من لودر إلى قرية مصعام أولى قرى دثينة وما بعدها، فهي عبارة عن أرض زراعية شبه مسطحة، وخصبة، وفيها تنوع رهيب، أشجار وخضرة بأشكال متنوعة ومتعددة إلى الحد الذي أشار فيها أنه لم يسبق له أن سافر في الجزيرة العربية بمثل هذا الجمال والخضرة والتنوع.

وصادف تواجد الرحَّالة في قرية مصعام أن كان هناك زفاف في القرية، فكان وصفه للزفاف والطريقة التي تم بها وما تخللها من رقص على أنغام الدان له مذاق آخر، إذ أبرز وبقوة وبالتفصيل طريقة تعامل أهل العريس وأهل العروس في أثناء الزفاف وما تخلله من الرقص الذي شبهه بالإيقاع وكذا التصفيق والحركات التي تؤدى بإتقان

وتنم عن قوة وشموخ وما يصاحبها من أغان يتم ترديدها بطريقة جميلة وبأصوات تمتلك من القوة والفخامة ما يجعلها مثل هدير الطبيعة في عاصفة أو رعد.

وأشار إلى تميز المناطق التي تلي قرية مصعام وهي مجموعة من الوديان والجبال والقرى التي تمر بوادي الطلح ووادي حطيب بأنها عبارة عن أرض زراعية خصبة تتوزع فيها الحقول والوديان الخضراء، وصادف مروره فيها هطول الأمطار الغزيرة التي كانت بمثابة الفرحة الكبرى لدى سكان تلك المناطق.

كما أشار إلى ممر الطلح وهو عبارة عن ممر بين جبال، وخطورته وما يتميز به من وعورة وانحناءات ومنزلقات متعددة، وهو المنطقة التي كانت وما زالت منطقة حرب بين القبائل في المنطقة، وما يدل على ذلك القبور التي تواجدت فيه، والتي خصصت لمن قتلوا من المتحاربين هناك، وقد سمي بممر الطلح نظرًا لما يكتنفه من أشجار الطلح الكثيفة والعالية والصلبة التي اكتسبت صلابتها مع مرور الزمن والتي تنتشر في الممر بكثرة.

ويصف الرحَّالة بشكل جميل خيبة أملهم من إقناع منصب قرية جابر وزعيم قبيلة هل شمس من عدم سماحهم بمرور القافلة عبر أراضيهما إلى منطقة نصاب، وكيف استمرت المفاوضات لثلاثة أيام متواصلة دون تحقيق نتيجة، وأثر ذلك على نفوس المرافقين له، وخيبة الأمل التي سيطرت عليهم، وفي وقت منها شعروا بالانكسار وأن رحلتهم على وشك الفشل، إلا أن بريق الأمل قد عاد إليهم عندما اهتدوا إلى خطة تتضمن العودة إلى ممر الطلح ومنه يتم العبور إلى نصاب في التفافة طويلة عبر جبال ووديان ومناطق وقرى لقبائل أخرى متعددة، وهو ما سيأخذ منهم وقتًا أطول من المقرر، وكانت المناطق التي عبروا منها قاحلة جرداء تمتاز بالوعورة حينًا وبالاستواء أحيانًا أخرى، جبال وسهول قاحلة لا شجر فيها ولا ماء ولا أثر لحياة البشر، وهو ما جعل الرحَّالة يطلق عليها «أرض الشيطان».

ومنها إلى قرية النقوب التي تتقدم مدينة نصاب وهي مقر السلطنة فيها يقيم سلطان نصاب، وكانت مبانيها من الحجارة مبلطة بالطين المخلوط بالقصب، وتمتاز بمبانيها العالية ذات النوافذ الصغيرة والشريط الأبيض الذي يميزها عن غيرها.

أما مدينة نصاب ذات الحصون والقلاع المختلفة والمتعددة، وأبراج المراقبة التي تتوزع على طول التلال المحيطة بالقلاع جيدة التحصين تحرس مداخلها، وما فيها من نقوش حميرية وآثار قديمة تشي بأن من شيدها هم مهندسون معماريون متمكنون يذكرونه بالحضارم، وفي محيطها شريط عريض من الحقول المزروعة التي أقيمت عليها الجسور، وتنتشر فيها القنوات والخزانات التي تدل على نظام الري المتبع في المدينة منذ مدة طويلة حيث كانت بمثابة منطقة زراعية خضراء، تمر عبرها ومنها القوافل التجارية الآتية من الصين والهند والمغادرة إليهما حاملةً معها التوابل والأواني الصينية والبن والبخور واللبان وغيرها وهي ما يطلق عليها طريق التجارة القديم، وما يؤكد ذلك أنه عند وصولهم إلى منطقة قرن سران بدأت النقوش والرسومات الحميرية القديمة تظهر بجلاء وللعيان، وتتوزع النقوش والرسومات ما بين الجمال والخيول والوعل بقرونه الطويلة، وكان الرحَّالة ومساعدوه يستحضرون من خلالها عظمة الحضارة القديمة، وتعزز ثقتهم بان هذا الطريق الذي يمر من نصاب كان هو طريق التجارة القديم.

وفي المنطقة الفاصلة بين نصاب والنقوب شاهد الرحَّالة لأول مرة منذ قيامه برحلته خيولًا بيضاء وأشجار النخيل اليانعة الطويلة إلا أن عددها كان قليلًا وذلك بسبب الحروب التي نشبت في المنطقة وتم خلالها قطع شجر النخيل وإحراقها بالكيروسين.

كانت منطقة عياد - التي وصلوها بعد رحلة شاقة انطلقت من نصاب - هي المنطقة التي تقع على حدود حضرموت، إذ تُرى منها مخارج وادي جردان ووادي عرمة، وكانت هذه المنطقة مقرًا لحامية عسكرية بريطانية لكنها صغيرة، وتتكون من جنود من فرقة هاملتون وهم مجموعة من أبناء القبائل الذين جندهم البريطانيون، وتم

استحداثها لمواجهة قوات الإمام يحي الذي أرسل مقاتليه لغرض الاستيلاء على المنطقة بعد تكرار رحلات الرحَّالة الأجانب إليها، وقد أطلق عليها الرحَّالة أقصى مركز لقبلة السلام البريطانية الزاحفة إلى منطقة عدن الخلفية.

وفي عياد يتحدث الرحَّالة عن الحواجز الطينية التي تحيط بالحقول، والتي تحفظ كميات كبيرة من السيول في مواسم الأمطار، وعدَّها سرًّا من أسرار السبئيين والحميريين الذين يبحث الرحَّالة عن أنقاظ حضارتهم، إنه سر السيطرة على فيض الماء الثمين بواسطة السدود والقنوات والخزانات واستغلال مائها لزراعة بساتين النخيل والحقول المستديمة ذات الخصوبة العالية.

ومن عياد إلى وادي جردان والذي يشكل كتلة شديدة الخضرة من الأشجار، بينما في المنطقة القريبة من مجرى السيول يرى الحقول المزروعة بالذرة والبرسيم تشكل فسيفساء من الظلال الخضراء المتنوعة، ورغم أنه يفتقد لبساتين النخيل إلا أن أشجار العلب تنتشر فيه بكثرة تزداد كثافتها كلما تعمق الإنسان في الوادي، ويدل الفن المعماري لوادي جردان على أنه أحد المداخل إلى حضرموت وأنه حافظ بعض الشيء على حضارة حضرموت القديمة، وأن الأبراج الصغيرة المبنية وسط الأسقف المسطحة تخص الفن المعماري لوادي جردان إذ لا توجد في غيرها من المناطق في جنوب الجزيرة العربية.

هضبة جبل السوط التي تلي وادي جردان هي هضبة صخرية تنتشر فيها كل أنواع الخرائب التي توحي بأنها مقابر وتحصينات تعود إلى العهد القديم، وربما كانت دلائل على أن هذا الطريق كان أحد ممرات طريق التجارة العظيم الذي يربط الشرق بالغرب، وفي هذه الهضبة يصادف الرحَّالة عدد من أحواض الماء وهو ما كان يطلق عليه (حسو) على عكس حضرموت التي تسميها (نقب) ولها تقنية خاصة في البناء مصممة بعناية ودقة، تساعد طريقة بنائها على عدم تبخرها وبالتالي يحفظ الماء فيها لعدة سنوات، وهي قديمة ربما تم بناؤها قبل قرون خلت.

وصلت القافلة إلى عقبة باتيس التي أطلق عليها بالعقة الرهيبة نتيجة لوعورتها من ناحية، وصعوبة منحدراتها من ناحية ثانية، وإطلالها على وادي عمد في حضرموت من ناحية ثالثة، ومن أعلاها تشاهد منظرًا دراماتيكيًّا غريبًا، إذ ترى الوادي في الأسفل أنه مجرى لنهر عريض كان يمر من هنا في غابر الأزمان، وترى من بعيد تلال صخرية ممتدة في البعيد وجروف متعددة بأشكال مختلفة. في العقبة وجد الرحَّالة ولأول مرة نظام السقاية للمسافرين وهي عبارة عن بناء صغير تعلوه قبة صغيرة ويُملأ من الداخل بالماء، ويستطيع المسافر أن يغرف منه عبر فتحات في جدار البناء، حيث تعد مساعدة المسافرين فضيلة للمسلم لأنها واجب ديني قبل كل شيء.

ويشير الرحَّالة إلى أول قرية واجهتهم بعد عقبة باتيس وهي قرية مخية أولى مناطق وادي عمد، والتي تنتشر فيها أحواض مستطيلة صنعت من الإسمنت مما يدل على أنها صنعت في وقت سابق وربما في العهد الحميري والسبئي، ويشار إلى الكم الهائل من هذه الأحواض التي يبلغ عددها ما يقارب (300) حوض إلا أنه لا يتم استغلال سوى بعضٍ منها فقط.

وفي وادي عمد كانت الظروف أفضل من غيره من حيث توافر المياه ووجود أشجار النخيل التي لم تكن موجودة في وادي جردان، وتتخلله القرى الأكثر استقرارًا من غيره من المناطق، ووصف الوضع في وادي عمد خاصة بعد صلح (انجرامس) بأنه كان أفضل مما هو عليه الحال في زيارته السابقة، حيث تخلى الرجال عن بنادقهم وتركوها في المنازل، وخرجت النسوة إلى المزارع والحقول، وبدأ الفلاحون يوسعون مزارعهم وحقولهم، وأصبحوا يتجولون بحرية في المكان، ويقتربون من البيوت التي طالما طلبوا الإذن من أهلها للاقتراب منها.

يتحدث الرحَّالة عن قرية حريضة التي زارها في رحلته السابقة والفرق بين وضعها الحالي والسابق، حيث أصبح الأمان والسلام يعم القرية، بعد أن كانت إحدى جهات الحرب، في حريضة التقى بأصدقائه الذين تعرف عليهم في رحلته السابقة من آل العطاس،

وهم سادة هذه القرية والذين كان لهم نفوذ كبير في حضرموت في الماضي، وهم ممن رحل إلى بتافيا (جاوا) واشتروا العقارات هناك وتملكوا، ونقلوا العلوم من هناك من خلال افتتاحهم لمدرسة في القرية وتعليم أبنائها المناهج التي يتم تعليمها في جاوا. حريضة التي ظلت حية بفضل أبنائها الذين يعملون في البلاد البعيدة (جزر الهند الشرقية)، وما كانت لتستمر لولا أولئك الذين يمدونها بالمال عصب الحياة وسبب النهوض الحاصل فيها، حيث يقطن حوال (700) من عائلة العطاس سادة حريضة في بتافيا (جاوا)، ولذلك فهي ترتبط بعلاقة طيبة ووثيقة مع الهولنديين في بتافيا (جاوا)، حريضة هي بوابة دخول ويجب أن تقف حارسًا يقظًا لكنوز الماضي ومتنبهة لأداء أدوار كبيرة في المستقبل.

وفي طريقه مر على قرية هنن وهي قرية صغيرة كانت منغرسة في الرمال، يسكنها أحد أصدقاء الرحَّالة واسمه «بن مرتع» الذي سبق أن سافر إلى جزر الهند الشرقية وكسب فيها الكثير من المال، وعاد إلى قريته لتنفيذ خطة لحمايتها من الرمال، وتوسيع المدينة وبناء عقول أبنائها، حيث بنى الكثير من البيوت، وحفر الآبار وزرع أشجار النخيل، وبنى مدرسة لتعليم أبناء القرية، ونقل لهم تجربة جاوا في التدريس والمناهج، وحوَّل القرية إلى نموذج في الزراعة والتعليم والرقي.

ثم وصل إلى مدينة شبام حضرموت ذات الخصوصية الحضرمية القديمة والمبهرة، فهي عبارة عن كتلة رملية مسطحة ويغطي أعلاها سكر أبيض، بيوتها مثل المكعبات البنية التي تشبه الحطام، وعليها غطاء أبيض غير متسق، ومنازلها حوالي (500) منزل تشكل كتلة متماسكة، تحيطها بساتين النخيل، وتشكل الجوانب الخالية لمنازلها سور المدينة. تقع بوابتها في الجهة الجنوبية وهي مثل إطار أسود لصورة مهيبة من الضوء واللون، شوارعها تخترق المدينة المظلمة مثل شقوق ضيقة لا تصلها الشمس خلال اليوم إلا أوقات قليلة، وهي بهذا أعرق مدن حضرموت وأكثرها أصالة في حضرميتها بمنازلها الشاهقة المتصلة ببعضها، ويبرز فيها الفن المعماري الحضرمي في أرقى أشكاله.

ومن شبام عبر قرية الغرفة وصلت القافلة إلى سيؤون التي شيدت على السفح الجنوبي لجدار الوادي ولها حزام عريض من بساتين النخيل يمتد شرقًا وغربًا وشمالًا نحو وسط الوادي، والمدينة محمية من كل الجهات باستحكامات عالية من الطوب الطيني، شوارعها أعرض من شوارع مدينة شبام وأكثر اتساقًا منها. الرفاهية تشع من المنازل المصانة جيدًا بطوابقها العالية البيضاء، وتنتشر فيها المساجد بمآذنها العالية التي ترى من بعيد.

ومن سيؤون إلى تريم مدينة العلم والمركز الديني لحضرموت، تنتشر المساجد فيها بكثرة حيث يصل عددها إلى (330) مسجدًا، وفيها الكثير من المدارس المشهورة، وترى أعدادًا كبيرة من الطلاب في شوارع المدينة، وانتقد التقليد المبالغ فيه للغرب في البناء وصبغ المنازل بالألوان لأنه يغير من قيمتها التاريخية وفنها المعماري الراقي.

ومنها عاد الرحَّالة إلى سيؤون حيث انتهى الجزء الأول من الرحلة وهو أطولها.

الجزء الثاني من الرحلة:

يبدأ من سيؤون باتجاه الشمال، حيث مرت القافلة عبر الجول الشمالي وهو منطقة واسعة تتوزع بين سلسلة جبال وسهول طويلة قاحلة جرداء خالية من الماء والنبات والبشر.

ومرت القافلة عبر مناطق متعددة تتشابه في تضاريسها إلا ما ندر، حيث كان هدف الرحَّالة الوصول إلى قبيلة العوامرة التي تسكن الحدود الشمالية مع الربع الخالي.

وبعد رحلة شاقة وصلت القافلة إلى مناطق قبيلة العوامرة، وهي قبائل بدوية تنتشر في المناطق التي تقع على حدود الربع الخالي، تعيش حياة قاسية جدًا، حيث ظروف المعيشة الصعبة، يقطن السكان في بيوت بدائية مبنية من كومة من الحجارة وسقوفها من القش أو في كهوف جبلية، المياه في المنطقة قليلة وتجلب من مسافات بعيدة، والسكان يعيشون على الرعي والماشية. ومن أشهر مناطقها بئر (تميز)، وهي بئر

عجيبة إذ تتوافر فيها المياه لأنها تحتفظ بمياه الأمطار لفترات طويلة من السنة، مياهها ملوثة غير صالحة للشرب إذ تستقبل مياه السيول فتخزن فيها لفترات طويلة.

ومن منطقة العوامرة قفلت القافلة عائدة إلى سيؤون ولكن عبر طريق آخر غير الذي قدمت منه، حيث مرت من مناطق أخرى من الجول الشمالي لا تقل وعورة وقساوة عن المناطق التي مر الرحَّالة منها عند الذهاب، مناطق مقفرة لا ماء ولا نبات ولا بشر، إلا ما ندر.

ومنها عاد الرحَّالة إلى تريم ومنها إلى سيؤون، وهنا كانت نهاية المرحلة الثانية من الرحلة.

الجزء الثالث (الأخير) من الرحلة:

بدأت من مدينة سيؤون باتجاه وادي بن علي، وهو وادٍ طويل له تعرجات كبيرة، في باديته تنتشر أشجار النخيل والزراعات المختلفة، كما تنتشر فيه أنواع من الورود والزهور، وتكسو الخضرة مختلف جوانبه، إلا أنه ما يلبث أن تقل الخضرة والأشجار لتنقل القافلة إلى مناطق غير آهلة بالسكان ومقفرة. تمر القافلة من عقبة (حصن القاع)، ثم عقبة (الصويغرة)، وهذه الأخيرة لاحظ الرحَّالة أنها تختلف عما قبلها من العقبات، حيث أن الممر فيها عريض، والطريق فيها معبد أكثر، وتسهل فيه الحركة والتنقل، مما يدلل على أن طريق التجارة العظيم كان يمر من هنا. ثم تمر القافلة في مجموعة من المناطق المختلفة حتى تصل منطقة التقاء القوافل وهي منطقة التقاء وادي بن علي مع وادي عمد، وفيها لاحظ الرحَّالة مرور قوافل أخرى، وتتبعها في نزولها من المنحدرات على جنبات الوادي حيث كانت أصوات سائقي الجمال تعلو وتتردد في جنبات الوادي، ولكثرة القوافل كان يحدث أحيانًا اصطدام بينها.

ووصلت القافلة أخيرًا إلى المكلا المحاطة بسور طويل، وشوارعها الضيقة الصاخبة لاسيما في المدينة القديمة، حيث أقام هناك مع رفاقه في الرحلة.

الفصل الثالث: الخاتمة والاستنتاجات:

استغرقت رحلة دانيل فان در ميولين الرحَّالة الهولندي من عدن إلى المكلا حضرموت حوالي شهرين، مر خلالها في مناطق مختلفة.

أعطى الرحَّالة وصفًا لكل ما شاهده في طريقه، حيث وصف القرى والمدن والبيوت، والجبال والوديان والقفار، والفن المعماري والهندسي، والرعي والزراعة، ويأخذ القارئ معه في كل تفاصيلها من حالات الحماس إلى حالات التفاؤل والسعادة والإرهاق والإحباط وخيبة الأمل.

ومن خلال التمعن في كتابه (من عدن إلى حضرموت.. رحلة في جنوب الجزير العربية) نستطيع الوصول إلى جملة من الاستنتاجات:-

- كان الرحَّالة في نقاشاته مع السلاطين وشيوخ القبائل ورجال الدين في مختلف المناطق التي مر بها يروج لأهمية الحماية البريطانية للمناطق المختلفة لخلق الأمن والسلام في المجتمع، لاسيما في مناطق حضرموت، وكان يشدد على أنها ضرورية، بل زاد على ذلك حينما قال: «إن بلادًا صغيرة مثل حضرموت لا يمكنها البقاء في عالم اليوم دون حماية، وهي في رأيي نزعة استعمارية خالصة، يتشارك فيها الأوروبيون بعد احتلالهم لكثير من دول العالم.

  وكان كثير الحديث عن الصلح الذي أنجزه البريطاني (أنجرامس) بين القبائل المتحاربة في حضرموت، وهو ما وفر لها الاستقرار والأمن والسلام، وأسهم في وتهيئة مدنها وقراها لإعادة البناء والإعمار.

- يشير الرحَّالة في كتابه إلى ما أسماه بالارتباط الوثيق بين المصالح البريطانية والهولندية، ليس في حضرموت فقط وإنما في الشرق الأدنى بشكل عام، وهي مصالح نشأت نتيجة استعمارهم لتلك المناطق، ويؤكد على أن بريطانيا وهولندا ستخرجان من الحرب الجديدة وقد انتهت بينهما الكراهية وعدم الثقة التي كانت تسود علاقة الدولتين في الماضي، وبهذا فهو يريد أن يكسب بريطانيا من

خلال مدحها وجهودها في بناء السلام في مناطق المحميات.

- لاحظ الرحَّالة حضورًا قويًا للقضية الفلسطينية لدى السلاطين وقادة القبائل ورجال الدين، وذلك من خلال أسئلتهم المتكررة عن فلسطين وهل يقف البريطانيون ضد الفلسطينيين في فلسطين؟ والتي كان يحاول جاهدًا توضيح رأيه حولها وأحيانًا التهرب من الإجابة الصريحة عنها.
- يبرز الرحَّالة بشكل واضح الطبيعة القاسية للمناطق التي مرت قافلتهم عبرها، والتي تتخللها الرمال والصخور البركانية والتعرجات المختلفة والحرارة الشديدة وقسوة العيش، ويصور شيوخ القبائل على أنهم أفجاج لا همّ لهم سوى جمع الإتاوات وما يستطيعون الحصول عليه من المسافرين، مؤكدًا أنها عادت سيئة متأصلة في مجتمع عدن الخلفية، لكنه سرعان ما يتغير كلامه عندما يصادف سلطانًا أو شيخًا يدعوهم للضيافة فيها أكل ومقام فيصفهم بالكرم العربي والديني الأصيل، ووصل كرم الضيافة بأحد أبناء القبائل أن أجل زفاف ابنته الذي كان مقررًا لليوم التالي حتى يستضيفهم في منزله وهو كرم غير عادي وغير متوقع بالنسبة للرحالة كونه كان يضع صورة قاتمة عن القبائل في تلك القرى والمناطق.
- كان الرحَّالة منبهرًا كثيرًا بطريقة البدو - الذين شاركوه رحلته كحماية وأصحاب جمال - في التعامل حيث كانوا سادة أنفسهم ولم يتعودوا على الطاعة، لاسيما إذا كان من يوجههم أجنبيًا لا يصلي ولا يؤدي الشعائر الإسلامية، كما كان منبهرًا بطريقتهم في التعامل مع جمالهم في أثناء الرحلات، ومدى فهمهم المتبادل لبعضهم البعض، وكأنه يقول أبناء مكة أدرى بشعابها.
- المتتبع لطريقة السرد في وصف المناطق التي اتبعها الرحَّالة في كتابه سيجد أنه معجب بحضرموت، إذ يتنوع وصفه ومدحه لها سواءً من حيث السكان أو المناطق أو البناء أو الزراعة أو التدين أو القيادة.
- أن تطور الفن المعماري في اليمن مفعم بالتنوع والقوة والجمال، وله شخصيته

الخاصة التي تعود إلى عصور العهد الذهبي للسبئيين والحميريين، حيث وصل الفن المعماري في هذه البلاد إلى مستوى رفيع وكل منطقة لها شخصيتها المتميزة، لأن اختلاف المناخ بين السهول المنبسطة الحارة والجبال العالية أدت إلى تشييد مختلف أنواع المباني والمعاقل في أماكن مختلفة وحتمت استخدام مواد مختلفة، فالمباني التي تعتلي الجبال والتلال فهي مبنية من الحجارة حيث تفنن اليمنيون بنحت الحجارة ونقشها، فبنوا حصونًا وقلاعًا ضخمة صممت لغرض مواجهة خطر الحروب ووسائل الدمار البشري وصمموا بيوتًا لمقاومة الأمطار والأعاصير، والفقراء بنوا بيوتهم من الطين والقش، أما الأمراء والتجار فيبنون منازلهم من الحجارة ذات الألوان المختلفة والزاهية.

- رغم انتقاده لطريقة تعامل السادة في حضرموت مع الناس عندما يقبلون أيديهم، ووصفه لذلك بالعادات القديمة التي عفى عليها الزمن، إلا أنه يشيد بهم كرجال دولة ورجال سلام ورجال دين مصلحين، وما وصلوا إليه من المكانة الاجتماعية التي يحتلونها في مناطقهم، إضافةً إلى انتسابهم للرسول الأعظم -صل الله عليه وسلم- وقيامهم بمهام التوعية والإرشاد الديني والإصلاح بين الناس وحل الخلافات.
- لاحظ الرحَّالة أن حالة الدفاع ضد الأعداء كان هو المتحكم الأول في الفن المعماري (بناء القصور والقلاع) في المناطق التي مر بها وذلك حتى تستطيع أن توفر لهم الحماية وقت الحروب، وذلك يرجع إلى الحروب المتواصلة والثأرات التي نشبت بين القبائل في تلك المناطق.
- يعمد الرحَّالة في أحيان كثيرة - لاسيما عندما وصل في رحلته إلى حضرموت - أن يبرز أن أي تطور أو تقدم حاصل في مدنها وقراها ووديانها وحتى بساتينها إنما هو بسبب الفرصة التي وفرتها المستعمرات الهولندية للحضارم، ونسب معظمها لخيرات جاوا التي وصلت حضرموت عن طريق أبنائها الذين يعملون هناك.

- كان من المؤيدين وبقوة للفن المعماري في مدن وقرى حضرموت، والذي أطلق عليه البناء الحضرمي الأصيل، وانتقد بشدة إدخال أي تغييرات حديثة في هذا الفن الجميل، سواءً من حيث إدخال الألوان الصاخبة في دهن المنازل والقصور، والأشكال المختلفة للمباني التي لا تتفق مع اللون المعماري الحضرمي المميز، والتي أتت من الخارج، وكان يطلق عليه «التقليد البائس للغرب».
- فيما يتعلق بالنساء فقد لاحظ الرحَّالة أن نساء البدو محجبات يكشفن عن وجوههن بعكس مدن وقرى حضرموت حيث تنتقب النساء ولا تكشف عن وجهها للغرباء ويعد ذلك عيبًا، ولعل السبب في ذلك الالتزام الديني الأقوى بفعل وجود السادة الذين يسهمون في نشر الفكر الديني المستنير.

كما لاحظ اختلاف أزياء النساء من منطقة إلى أخرى فمثلًا النساء في شبام وسيؤون يلبسن العباءة الواسعة ذات اللون الأزرق زرقة السماء، والنساء في تريم يلبسن العباءة ذات اللون الأحمر أو البني، النساء في وادي علي يلبسن العباءة ذات اللون الأزرق الداكن القريب من اللون الأسود، لكن كلهن يلبسن جلابيب زرقاء وأحيانا شديدة الحمرة، ويرتدين قبعات من سعف النخيل في بعض القرى تكون واسعة والبعض الآخر منها تكون أقل وسعًا.

المراجع

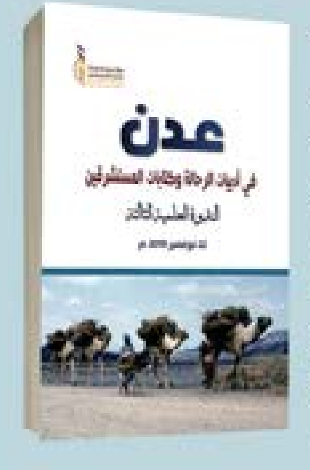
♦ رحلة في جنوب شبة الجزيرة العربية، للرحالة فان درميولين، ترجمة محمد سعيد القدال، الطبعة الأولى، دار جامعة عدن للطباعة والنشر 1999م.

♦ موقع مهارات -أ.د مسعود عمشوش. دانيل فان در ميولين ورحلاته إلى حضرموت.



فهرس المحتويات

الموضوع **الصفحة**

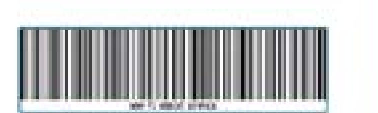


لعدن أهمية كبرى عبر التاريخ، وفي ظل ثورة المعلومات يتزايد الإدراك العام بأهمية علم التاريخ لدى الأمم والشعوب التي تبذل جهوداً كبيرة لاستقصاء جذورها، والمحافظة على هويتها، وتحقيق الشعور بالانتماء والمواطنة لدى أبنائها. وأدراكا من مركز عدن للدراسات والبحوث التاريخية والنشر لتلك الأهمية حرص على الإسهام في خدمة تاريخنا الوطني بما أتيح له من إمكانيات، من خلال إقامة العديد من الأنشطة والندوات والمؤتمرات والإصدارات التاريخية العلمية. وكذلك المجلة التاريخية المحكمة. ويضم هذا الكتاب عشرة أبحاث دارت حول عدن في أدبيات الرحالة وكتابات المستشرقين، وهي كالآتي:

1. عدن في سجلات صاحب الطواف حول البحر الاريتري (Periplus).
2. عدن في كتابات الرحالة والبلدانيين في العصر الإسلامي.
3. عدن في كتاب المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم.
4. عدن في أدبيات الرحالة العرب في العصر الإسلامي ابن بطوطة أنموذجًا.
5. قلعة صيرة في كتابات الرحالة والبلدانيين.
6. عدن في كتابات الرحالة الألماني مالتزان.
7. المرأة العدنية في كتابات سوزان دلاجرين.
8. عدن في كتابات الرحالة البريطانية فريا ستارك.
9. الرحالة والمجتمع الفسيفسائي العدني.







دار الوفاق الحديثة للنشر والتوزيع
واتس آب: 2001008170225+